



التعاون

أحلام التصوف والإسلام

الطبعة
الثانية

أحمد أبوكف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فتمنى

الاسكندرية

كتاب

أعلام التصوف الاسلامي

أحمد أبو كف


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية



الغلاف :

الفنان : طلعت رزق

سكرتير التحرير التنفيذي :

نزيه عبد الغنى

مؤسسة دار التعاون
للطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة:
محمد رشاد
رئيس التحرير:
سعيد نور الدين

كتابات

٦ شارع عبد القادر حمزة - جاردن سيتي - القاهرة - تليفون ٣ (٣٣٤٣٥٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ... سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ...

فقد احترت كثيرا في الكلمات التي أختارها ، تقديمًا لهذه الباقة المباركة من الأولياء المؤمنين .. الذي تناولتهم صفحات هذا الكتاب .
كما احترت أيضا فيما أضغه من عنوان لائق لهذا الكتاب .
وكانت هذه الحيرة في تقديم الكتاب واختيار عنوانه .. بلا سبب .
ربما يكون السبب .. جلال هؤلاء الرجال وشدة إعجابي بحياتهم .. بعد أن قضيت الوقت الكثير معهم .. باحثًا منقبا ، قاطعا المسافات .
أوربما يكون السبب هو الخشية من ألا أنصفهم بكلمات قليلة في مقدمة قصيرة .. أو وضعهم بين دفتي غلاف كتاب لا يليق عنوانه بهم .

وربما يكون هذا أيضا .. نابعا من اقتناعي بأن الإنسان مهما حاول بذل الجهد - خاصة في هذه الظروف التي نعيشها - فإن هذا الجهد سيكون قاصرا في سبيل الوصول إلى الكمال لأن الكمال لله وحده .

هذه الشخصيات المباركة .. التي نقدمها بين دفتي هذا الكتاب كان لها من الأهمية ومن الاتباع بالملايين على مدار السنين وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وهي شخصيات تجمعها سمات واحدة تقريبا مع اختلاف العصور والظروف والأساليب . لكنها في واقع الأمر كلها نبعت من فيض غزير واحد ، واتجهت إلى هدف واحد .. هو الجهاد في سبيل الله ، وفي مرضاته . ونصرة دين الله .. على ضوء الكتاب والسنة .

وسبيل هذه الشخصيات الكريمة الى ذلك الجهاد ، ليس السيف أو البارود ، إنه جهاد بالعلم والتربية الاسلامية ، وتقوية الناس في أمور دينهم وتنويرهم .. ثم رفع راية العمل ، والعمل المستمر في سبيل الانسان المسلم ووطنه الاسلامي . ونحن أمة الاسلام والمسلمين .. نمر في هذه الايام بظروف دقيقة ، تتشابه مع تلك الظروف التي شاهدت هؤلاء الرجال ، وشهدت جهادهم المتواصل في سبيل الله . ولذلك فإن إلقاء الاضواء على هؤلاء الرجال ، وعلى فكرهم ، وظروف عصرهم .. لا ريب فيه عبء .. يعتبر بها أبناء هذا الجيل في الجهاد ضد أعداء أمة العروبة والاسلام .

إننا نحن أبناء هذا الجيل في حاجة الى جهاد نفسي ، ومجاهدة أعداء أمة العروبة والاسلام . وهؤلاء الرجال جاهدوا ووقفوا حياتهم من أجل إعلاء كلمة الحق والعدل في عالم الاسلام الواسع الشاسع .

ونحن الان في حاجة إلى أن نعود الى تعاليم ديننا القويم ، وأن نتخلق بخلقه ، ونهتدى بهديه .. وأن نتنبه للتيارات التي تحاول النيل من عقيدة الاسلام .

وهم - في الماضي - كان جهادهم الاكبر ينصب على العلم والعمل ونحن الآن نحاول بقدر الجهد أن نرفع لواء العلم والعمل .

والواقع .. فإن تراثنا الاسلامي ، الذي تكالب عليه الكثيرون يحتاج منا الى وقفة . يحتاج منا إلى أن نعود اليه ونستضيفه ، ونسترشد به .. بعد أن نكشف النقاب عن جواهر حضارتنا الاسلامية الزاهرة .

نحن بحاجة أن ندرس الماضي .. بعد أن نعود اليه ، لأن من ليس له ماض ، ليس له حاضر ولا مستقبل . وليس هذا دعوة « سلفية » كما يقولون .. إن تراثنا ملوئ بالكنوز التي لو استخرجناها وأحسننا استخدامها لأغنتنا عن الكثير . على أن استخدام الماضي أو الوقوف عنده لا ينبغي أن يكون قيداً على مسيرتنا . وإنما يكون ركيزة صلبة نقف عليها لننتقل ، ونحن نستشرف آفاق القرن الواحد والعشرين .. وبعد سنوات صعبة عانينا فيها ، بفعل استعمار ثقافي وسياسي أحسن تخطيطه المستعمرون .

إن أوروبا الحديثة أكلت الكثير على موائدنا نحن العرب والمسلمين هم اغتصبوا أطايب موائدنا .. واتبعوا معنا سياسة التفریب عن قيمنا الاسلامية .

ونحن العرب والمسلمين ، بعد أن تخلصنا من استعمار بفيض .. في حاجة الى أن نرسى دعائم العلم والإيمان ، الذي أظهر حضارتنا الاسلامية في الماضي ..

وديننا القويم هو علم وايمان في المقام الاول .
وهؤلاء الرجال الذين نقدمهم على صفحات الكتاب نماذج مشرفة لرجال العلم
والايمان .
هؤلاء الرجال هم الذين وصفهم الامام « القشيري » في مقدمة الرسالة القشيرية
بقوله :
« جعل الله هذه الطائفة صفوة اوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله
وانبيائه ، صلوات الله عليهم ، وجعل قلوبهم معادن اسراره ، واختصهم من بين الامة
بطوالع انواره ، فهم الغياث للخلق والداثرون في عموم احوالهم مع الحق بالحق » .
هؤلاء الرجال علما نعتبر بهم .. وعل حياتهم تكون هاديا لنا وسط تلك الانواء
المتلاطمة التي تموج من حولنا .
والله الموفق

احمد أبو كف



سیدی احمد الرفاعی

رجل .. بعشرة
آلاف رجل



●● كانت تهتز اعصابه وترتعد فرائصه حين يسمع بكاء طفل يتيم وهذا شعور إنسان مسلم مؤمن ..

لكنه هو أيضا .. قد عاش هذا اليتيم .. فقد مات أبوه وهو لا يزال في بطن أمه .
في « أم عبيدة » .. كانت ولادته .
وفي « أم عبيدة » ، إلتف حوله مائة وثمانون ألف محب ومريد عيونهم على شفثيه ، يحفرون في قلوبهم كل ما يخرج منهما ... فقد كان كلامه من نبع تجارب وعلوم ، اسبغها الله على عبده المؤمن .

لقد جاهد نفسه .. والنفس دائما امارة بالسوء .. وتغلب على نفسه فقهرها .. وانصرف عما في أيدي الخليفة ، واشتغل بالحقيقة .

هذا القادم من قرية صغيرة .. خطف أبصار علماء المدينة ، العاصمة .. فاعترفوا له بالرسالة .. وقالوا : إنه رجل بعشرة آلاف رجل .

كان يقول إن العلم الذي اعطيه .. لا اجر عليه .

وقل يعطى .. ويعطى .

وظل يعمل ويعمل الى آخر لحظة من حياته .

وحين تجمع عليه احابؤه ومريدوه .. كانت آخر كلماته لهم : لا تسبونى .

فتعجب تلامذته المخلصون وقالوا : كيف نسبك وانت إمامنا ؟ فقال لهم : تقولون قولاً لم أقله ، وتفعلون شيئاً لم افعله .. إعملوا إن كل شيء خرج عن الكتاب والسنة ، فليس منا .

« أعلم أن مثل القلب كالقصر ، والمعرفة فيه كالسultan ، والعقل أمير على الأركان . والأركان له تبع واعوان . واللسان كالترجمان والسر من خزائن الرحمن .. ولا بد لكل واحد منها من الاستقامة في مواضعه ، ودوران على استقامة السر مع الحق . فإذا استقام السر مع الحق .. استقامت المعرفة ، فيستقيم العقل . وإذا استقام العقل

استقام القلب . وإذا استقام القلب استقامت النفس ، وإذا استقامت النفس
استقامت الأحوال .

والعقل منور بنور اليقظة والاعتبار .
والقلب منور بنور خشية والافكار .
والنفس منورة بنور الرياضة والانزجار .

فالسبحر بحر من بحور العطايا ، وأمواج الهمة فيه لا يحصى عددها ولا ينقطع
مددها . وأن استقامة السرح مع الحق ، هي الدوام على بساط المشاهدة مع فقد رؤية
الاستقامة ، كما يقول سيدي الإمام الرفاعي .



في كتابي عن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، المدفونين في ثرى مصر ، كتبت
عن حياة القطب الصوفي سيدي « أحمد البدوي » ، رضى الله عنه .

وذكرت أن سيدي « أحمد البدوي » ، وهو في رحلة البحث عن الحقيقة ، أحس
أنه مشوق الى مزيد من علوم سيدي « أحمد الرفاعي » ، خاصة ، وأعلام الصوفية في
العراق بصفة عامة ..

وقد أوردت رؤيا لسيدي « أحمد البدوي » ، رآها في منامه على صورة خطاب من
سيدي « أحمد الرفاعي » ، الى سيدي « أحمد البدوي » ، يقول له فيه : « لا تنم ..
فمن طلب المعالي لا ينام ، وحق أبائك الكرام ، سيكون لك حال ومقام ،

ولقد شد الرحال ، سيدي « أحمد البدوي » ، بعد هذه الرؤيا الى العراق ، في
شهر ربيع الأول عام ٦٣٤ الهجرى . وكان وصوله اليها ، بعد وفاة سيدي « أحمد
الرفاعي » ، بحوالى نصف قرن من الزمان .. فقد توفي سيدي « أحمد الرفاعي » عام
٥٨٧ الهجرى .

وفي العراق بدأ سيدي « أحمد البدوي » ، بزيارة آل بيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وأقطاب الولاية المدفونين هناك . كما زار « الكاظمية » .. حيث مقابر الشيعة
، وفيها قبر جده الامام « موسى الكاظم » ، وحفيده الامام « محمد الجواد » ، رضى الله
عنهما .

وبعدھا .. قام سيدي « أحمد البدوي » بزيارة قبور الجيلاني ، والحسين بن منصور الحلاج ، وعدى بن مسافر ، ومسى الزوالى .. وتاج العارفين أبى الوفا فى وادى لوسان ، حيث بات ليلة هناك .. ليرى فى منامه من يأمره بزيارة قرية « أم عبيدة » مركز الطريقة الرفاعية .

ولقد شد سيدي « أحمد البدوي » الرحال الى هذه القرية .. ليستقبله هناك مريدو وخلفاء سيدي « أحمد الرفاعي » . وقد اقام « البدوي » فى رحاب سيدي « أحمد الرفاعي » مدة ثلاثة أيام ، نهل فيها من علم الرفاعية ، ووقف على أحوالهم ، ثم عاد الى بغداد .

وكان قبل أن يتوجه الى بغداد ، وكما يذكر المؤرخون ، قد توجه اليه النداء الباطنى - كما تقول الصوفية - من سيدي « أحمد الرفاعي » ، يشير عليه بالذهاب إلى « فاطمة بنت برى » ، فى العشائر بشمال العراق .. كى يُقَوِّم سلوكها المعوج ويؤدبها !!..

من تكون فاطمة بنت برى هذه ؟

إن هذه السيدة نسجت حولها عشرات القصص والروايات ، وألفت فيها عشرات القصائد .. فقد كانت ، كما يصفها الإمام الشعرانى : « امرأة لها حال عظيم ، وجمال بديع ، وكانت تسلب الرجال أحوالهم ، فسلبها السيد البدوي - حالها » .

وهذه السيدة - فاطمة بنت برى - بالإضافة الى جمالها ، ذات مال عظيم وكان الاختبار الذى تمتحن به كل من يريد أن يتلمذ عليها - ليسير فى طريقها - هو موضع الحسن الذى تتمتع به من نفسها فيقع فيها من يطيل النظر اليها ، وهنا لا يصلح أن يكون صوفيا حقيقيا لأنه ضعيف القلب سريع التأثر . ويقال إنه قد تجمع حول « فاطمة بنت برى » قوما وأنصارها يؤازرونها فى مسلكها الخاص . وكان هذا سبب الرؤيا للذهاب اليها من قبل سيدي « أحمد البدوي » : « .. بيد أن حق الشرع لا يذهب جفاء ، فأشار قطبا التصريف - الرفاعي والجيلاني - على أبى الفتيان ، سيد أحمد البدوي ، بدرء هذه الفتنة ، فذهب اليها سيدي « أحمد البدوي » .

ولقد أطنبت المصادر فى تصوير لقاء « البدوي » بـ « فاطمة بنت برى » .. ومخلص ذلك كله . أنهم قالوا : إنه ما أن وقع بصر فاطمة بنت برى على سيدي أحمد البدوي ، حتى أحست بنهاية أمرها ، حيث وجدت ما لديها من حال أمام أحوال بطل الرجال ، لا يعدو أن يكون ذرة بجوار هذا الجبل الشامخ من الصلابة

والإيمان . ولقد آمنت فاطمة بنت برى بولاية السيد البدوي وصلاحه . ويقال إنها بعد لقائها بالبدوي عدلت عن خطتها ، والتزمت جانب الحق ، واتبعت طريق الشرع ، وقالت أمام جمع كبير من قوما :

« إشهدوا علىّ يا جميع من حضر ، انى ماعدت اتعرض لأحد من الرجال ، وانا استغفر الله بداية ونهاية ، وفرضا عن كفايته » .

هذه القصة لها معان ودلالات عميقة لكل من يدرس تاريخ الفكر الصوفي ، وتاريخ أقطاب التصوف . فـ « فاطمة بنت برى » كما أرى .. تمثل الدنيا وزخرفها .. في طريق الفقير ، أو المتصوف الحق ، فالمريد الذي يضعف أمامها .. لا يصلح أن يكون مريدا ، فما بالك بأقطاب الصوفي ..

وقصة « فاطمة » هذه أيضا ترمز في حد ذاتها الى أن قطبانية التصوف عقد لواؤها لسيدى « أحمد الرفاعى » ، القطب الكبير في التصوف .. فمن يجيزه في الطريق .. فقد انضم الى الطريق ، وصار من الفقراء ، بمعنى أن الولاية هنا في « أم عبيدة » .. أو أن « أم عبيدة » إن جاز التعبير ، هى الجامعة الجامعة للتصوف . وأن سيدى « أحمد الرفاعى » عبيدها ..

كذلك فإن المريد الذى يريد أن ينضم للطريق .. فلا بد له من مجاهدات ومجالات ، ولابد له أن يتغلب على اغراءات الدنيا الزائفة .. وأن يسير بتؤدة وصدق في طريق الله . وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أم غير ذلك ، فهى بلاشك أعطت سيدى « أحمد البدوي » القطبانية .. كما أكدت ودعمت « الرفاعية » كطريقة للفقراء تنبع من الكتاب والسنة ..

والواقع أن التصوف قد بدأ كرد فعل عنيف لما حدث في أوساط أبناء الامم من غير العرب التى دخلت الاسلام .. حول ماحدث لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد وفاة الرسول .. ما حدث « لعلى بن أبى طالب » . وماحدث لآل البيت بعده من اغتصاب بنى أمية للخلافة ، واستشهاد الامام « الحسين » وكوكبة من آل البيت في « كربلاء » .. ثم ماحدث بعد ذلك من اضطهاد لهم وتعقبهم ..

اقول ذلك .. وإن كان لا ينفى أن غالبية أقطاب التصوف كانوا من العرب .. أو هم كانوا - وهذه حقيقة - ينتسبون الى آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم بشكل أو بآخر .. ويكون هذا من من أهم شروط جوازات مرورهم الى القطبانية .

ويبدو أن أرض العراق كانت المنطقة الخصبة للتصوف .. ربما لقربها أو لالتفاف جمع من المسلمين غير العرب حولها .. ولأنها تتوسطها بغداد ، وكانت مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية ، بل هي مركزها . ولذلك فمن يدس تاريخ أقطاب التصوف لابد له أن يذهب إلى هناك .. ولابد أن يمتحن هناك ، وأن يجاز في امتحانه . ويؤكد ما أقوله .. أنه ليس التصوف فقط كان مركزه هناك ، بل إن أقطاب العلوم الإسلامية أيضاً محط أنظارهم بغداد بالذات . وحتى الفقهاء ، ومنهم الإمام « الشافعي » ، رضى الله عنه ، قبل أن يتبلور مذهبه ، فقد ذهب ثلاث مرات إلى « العراق » ويقابل الفقهاء ويفيدهم ويفيدونه .

ومن يدرس الإمام « أبا الحسن الشاذلي » يجد أنه في بداية البحث عن القطب الذي سيبدله على الطريق ، سافر من المغرب إلى بغداد أولاً ليجتث عنه هناك . ورغم أنه لم يجده ، فلقد دلوه على القطب في بلاده .. المغرب . وكما حدث لسيدى « أبى الحسن الشاذلي » .. حدث أيضاً لسيدى « إبراهيم الدسوقي » ، ذهب إلى هناك .. فمكان أقطاب المتصوفة المفضل ومركز الثقل لهم - وليريد بهم بالتالى - العراق .

وقبل أن نتحدث عن سيدى « الإمام الرفاعي » رضى الله عنه .. من المفيد هنا أن نتحدث عن التصوف والصوفية بتحديد أكثر .. وهو حديث مستمر منذ قرون وقرون .. ومن المفيد هنا أن نورد ما يقوله شيخ الاسلام « ابن تيمية » في « فتاواه » في تحديد معنى الصوفى . فهو يرى في الصوفى نوعاً من الصديقين . فهو الصديق الذى اختص بالزهد والعبادة ، باتباعه وتأسيسه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمسكه بالكتاب والسنة ..

وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية : « والصوفيون قد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صديقى زمانهم . والصديق في العصر الاول أكمل منهم . والصديقون درجات وأنواع » .. وهل يوصف بالصديقية الا صفوة المتبعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أقواله وأفعاله .

ويرى د . « الحسينى هاشم » ، في بحث له نشر بعضه ، أن رأى « ابن تيمية » ، في مقاييس الناس ، بالنسبة للصوفية والتصوف رأى سديد لا إفراط فيه ولا تفريط .

فهو رأى يرفض ويذم المغالين الذين يرون أنهم أفضل الخلق وأكملهم .. كما يرفض ويذم رأى المعتنقين المنتطعين ، الذين يرون أنهم غير متبعين وغير سلفيين ، بل إنهم مبتدعون وخارجون عن السنة ..

وهذا ما نبه إليه في الواقع فضيلة الإمام الأكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » في مقدمته لكتاب الإمام الغزالي « المخلص من الضلال » .. حيث يبين أن ميدان التصوف ككل ميدان ، فيه الادعاء ، كميذان السياسة والكتابة ، وسائر الميادين الأخرى . وهذا رأى يتفق مع ما ارتآه الإمام «ابن تيمية» حيث يقول :

ولأجل ماوقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم . فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة .. وطائفة غالت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء . وكلا طريقي هذه الأمور دميم . والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين . وفي كل من الصنفين من قد يجتهد ويخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لايتوب .

ورأينا الذي يأتي بعد دراسات طويلة وقراءات مستأنية في التصوف والمتصوفة .. أن التصوف طريق إلى الله ، وهو طريق ذو هدف نقي . إنه طريق عهد بين المرید وشيخه على أن يتوب عن المعاصي ، وأن يكون طاهر الروح والجسد معا ، والصوفي الحق والمرید الحق هو الباحث عن العلم العالی ، وعن الحقيقة . هو الذي مع الله دون الخلق ، فكل الخلق في نظره سواء ، لا يملكون ولايقدرُونَ ولكن المالك والقادر هو الله جل شأنه وجلت قدرته . وهذا الوصف ينطبق على جميع طرائق المتصوفة . هدفهم سام . هو ينابيع طاقات روحية معتمدة على الكتاب والسنة ، يشوه وجهها الصبوح هؤلاء الادعاء ، الذين ينسبون أنفسهم الى الصوفية والتصوف وهو منهم براء .. ويدخلون عليه بدعا ليست هي من الدين في شيء .. ومن هؤلاء بعض الكتاب الذين يسمون كتاب « المناقب » .. فأغلبهم ليس على درجة عالية من العلم والوعى .. فهؤلاء ينسبون لأقطاب التصوف أشياء هم منها براء . وهؤلاء المبتدعون ثلاثة أصناف ، كما يصنفهم البعض :

فالصنف الأول : مجموعة الجهال التي أخطأت في الأصول لعدم تمكنها من دراسة الشريعة الإسلامية الحق وأصولها .

الصنف الثاني : هم جماعة من الذين يخطئون في فروع التصوف ، وهى الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال .. هم الذين لم يستطيعوا أن يطهروا أنفسهم ويتبعوا المنهج الذى يؤدى بهم الى التصوف الحق .

أما الصنف الثالث : فهم الذين يخطئون من خلال هفوات .. فإذا تبين خلطهم يعودون الى الطريق القويم ، ويذعنون للحق .

وهذا التصنيف صاحبه الإمام « الطوسى » .. مع بعض التخفيف والواقع أن القارئ الدارس المنتبِع لأحوال أقطاب الولاية .. يرفض ما يلصق بالتصوف الحق .. من اتهامات .. وهذه بعض الامثلة ، فالتصوف الحق هو القائم على الكتاب والسنة ..

فسيدي « أحمد البدوى » - مثلا - كان يردد دائما : « إن طريقنا قائمة على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وما خالف ذلك فهو مدسوس » .. وكان يقول لتلميذه « عبد العال » - وهو موجه لكل مرديه بالطبع - « لا تتعلق بالدنيا - وراع الاحسان فى العمل ، وابعد النفس عن الشج بالعطاء ، واستمر فى ذكر الله ، ولا تغفل عن القيام بالليل ، ولا تكن ساء الخلق فى المعاملة واصبر على تحمل الاذى ولازم الصدق دائما ، وكن صافى القلب حسن الوفاء حافظا للعهود » .

وماقاله سيدي « أحمد البدوى » .. كان يقوله سيدي «أبو الحسن الشاذلى» وخليفته سيدي «أبو العباس المرسى» . وماقاله هؤلاء قاله أيضا سيدي «إبراهيم الدسوقي» .. ومما يقوله « الدسوقي » : « يلودى . إلزم أولا طريق نفسك على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا عملت بهما انتقدح لك منهما علم الحقائق والأسرار .. ولا يكون فقيرا - أى صوفيا - حتى يكون حمالا للآذى من جميع الخلائق ، فلا يؤذى من يؤذيه ، ولا يتحدث فيما لا يعنيه ، ولا يشمت بمصيبة أحد ، ولا يذكر أحدا بغيبة ، ويكون ورعا عن المحرمات ، موقوفا عن الشبهات ، إذا بلى صبر . وإذا قدر غفر . غضيض الطرف . يعمر الأرض بجسده والسماء بقلبه .. طريقه الكظم والبذل والإيثار والعفو والصفح ، والاحتمال لكل من يتحدث فيه بما لا يرضيه .. ومن لم يكن متشرا متحقيقا نظيفا عفيفا شريفا فليس من أولادى ، ولو كان ابنى لصلى . وكل من كان ملازما للمشرية والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع والتقوى .. فهو ولدى وإن كان من أقصى البلاد » .

والواقع أن مقاله هؤلاء الذين ذكرناهم .. قالوه على هدى أسلافهم الذين سبقوهم بإيمان في الزهد الحق والتصوف الحق .. ومنهم بالطبع الطريقة الرفاعية .

* * *

هذا الذى قلناه .. كان لابد أن نقوله كمدخل الى رحاب سيدى « أحمد الرفاعى » ، قطب أقطاب التصوف .. أو القطب الكبير .. كما يصفه « أبو بكر بن عبد الله العيذاروس » صاحب كتاب « النجم الساعى فى مناقب القطب الكبير الرفاعى » .. والذى قام بتحقيقه بالتبويب والشرح والتعليق عليه الدكتور « على حسن العريض » ، مفتش الوعظ بالقاهرة .

والذى ذكرناه حول التصوف والمتصوفة ، كان لابد من ذكره ونحن نتحدث عن هذا القطب الكبير ، الذى نسب الى طريقته الكثير من الدجالين ، الذين أساءوا الى طريقة سيدى « أحمد الرفاعى » بصفة خاصة والطرق الصوفية بصفة عامة . خاصة وأن طريقة سيدى « أحمد الرفاعى » بلغ عدد مريديها فى حياته - كما تذكر الكتب عنه - حوالى مائة ألف ، والبعض قال إن عددهم وصل مائة وثمانين ألفا .. وصار مريدو هذه الطريقة يعدون الآن بالملايين .

ولاشك أن الإمام « الرفاعى » واحد من الذين أرسوا قواعد التصوف الحق .. ووضع لها عبر التاريخ أدايا وتقاليد سامية .. لو أحسن الناس الأخذ بها ، ماكانت هناك أوجه من النقد لبعض المفكرين والكتاب يوجهونها الى الصوفية عموما ، والرفاعية منهم بوجه خاص .

وقبل أن نتحدث عن فكر سيدى « أحمد الرفاعى » ، وفكر تلامذته ومريديه الأصلاء العلماء ، نتحدث عن ملامح شخصية هذا القطب الصوفى ..

فهو أبو العباس أحمد بن أبى الحسن على بن أبى العباس أحمد المعروف بأحمد الرفاعى . وهو علوى النسب رضى الله عنه . فأبوه حسينى ، ينتهى نسبه الى سيد الشهداء الحسين بن على بن أبى طالب ، وأمه حسنية ، ينتهى نسبها الى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم . ومن أجل ذلك كنى سيدى أحمد الرفاعى « بابى العلمين » .

وينتسب سيدى « أحمد الرفاعى » الى جده السابع « رفاعه » ، الذى هاجر إلى المغرب هربا من اضطهاد العباسيين للعلويين فى المشرق . وقد استقر « رفاعه »

باشبيلية ، حيث تزوج وأنجب عددا كبيرا من الابناء . وقد سافر حفيده « يحيى » الى الحجاز لتادية فريضة الحج . وبعد إقامة ليست طويلة في مكة المكرمة ، رحل الى البصرة ، حيث تزوج ، واستقر به المقام في العراق ، وأنجب ولديه « الحسن الرفاعي » ، و « احمد الرفاعي » .

ولقد ولد سيدى « احمد الرفاعي » في « أم عبيدة » .. وهى جزيرة قرب واصل من محافظة البصرة بالعراق سنة ٥١٢ هجرية .. في العصر العباسى الثانى ، أى في عهد الخليفة « المستظهر بالله » . وكانت ولادته بعد وفاة أبيه . إذ تولى أبوه وهو نى بطن أمه .. فكفله خاله .

ولقد عاش سيدى « احمد الرفاعي » ستين عاما حافلة .. فقد حفظ أبو العلمين سيدى « احمد الرفاعي » القرآن الكريم ولما يكمل السابعة من عمره ، وكان طفلا متزنا نجيبا . ثم تلقى علوم العربية ، من خلال التردد على حلقات العلم المزدهرة في بلاده .

ويقول إنه اتخذ شيخين أساسيين تتلمذ عليهما ، وهما خاله « منصور البطائحي » ، ثم الشيخ « على القارى الواسطى » .. هذا فضلا عن الإمام « الخرنوبى » .. والآخر كان سيدى « احمد الرفاعي » يقيم عنده كل عام فترة من الزمن ، يلزم فيها مجلسه ، ويتعلم منه ، ويستمتع الى وصاياه وتوجيهاته .. حتى تفقه واتسعت دائرة معارفه ، وأتم دراسته .

وعلى غير العادة بالنسبة لأقطاب التصوف الاسلامى .. فلقد حفظ لنا التاريخ الكثير عن فكر سيدى « احمد الرفاعي » ، والكثير من علومه وأدابه ونصائحه وأشعاره وأذكاره وأوراده وكلماته .. وهذا أمر لم يحظ به الكثيرون من أئمة التصوف وأقطابه .. والذين كانوا يعتبرون كتبهم أصحابهم ومريديهم . فلقد ترك سيدى « احمد الرفاعي » مؤلفات جمة في الفقه والتوحيد والتفسير .. والحديث وفى التصوف .. أكثر من خمسة وثلاثين مؤلفا .

ثم إن سيدى « احمد الرفاعي » لم يكن يخلو الى نفسه الا قليلا .. أو هو كان يلقى الناس في كل يوم في قريته « أم عبيدة » .. والتي كانت بمثابة خلوة كبيرة له ولمريديه . وكان يلقى الدروس على مريديه ، ويؤمهم في الصلاة ، ويتدارس معهم مشاكلهم ويعمل على حلها .. فكان مريدوه « خلقا عظيما .. ولعلمه أحسنوا الاعتقاد فيه ، وتبعوه » .

يقول الامام « الشعراني » في « طبقاته » : « .. إليه انتهت الرئاسة في علم الطريق ، وشرح احوال القوم ، وكشف مشكلات منازلهم ، وتلمذ له خلائق لايحصون ، وهو أحد من قهر احواله ، وملك أسرارهم . ولقد أصبحت « أم عبيدة » في حياة سيدي « احمد الرفاعي » ملتقى المؤمنين من المتصوفة ووفد عليها الكثيرون من الباحثين عن القطبانية ، ومن أبناء التصوف الاسلامي .

وقد تولى الإمام « الرفاعي » في سنة ٥٧٨ هجرية .. بعد مرض لم يمض طويلا .. ودفن حيث ولد في قرية « أم عبيدة » ، وحيث هي قراره ..

والواقع ان سيدي « احمد الرفاعي » ، قد عاش حياته يردد دائما ، وصية أستاذه الامام « الواسطي » ، والتي تقول : « من لم يعرف من نفسه نقصانا ، فكل وقته نقصان » .. كما كان يردد دائما أيضا : « طريقنا الكتاب والسنة ، ومن انحرف ضل الطريق » . وكان يدعو به دائما : « اللهم عاملنا بما أنت اهل .. ولا تعاملنا بما نحن اهل .. انك اهل التقوى واهل المغفرة » .

ويقول سيدي « احمد الرفاعي » : « طريقى دين بلا دعة ، وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء ، وقلب بلا شغل ، ونفس بلا شهوة .. وطريقنا طريق تقى واخلص . فمن ادخل في عمله الرياء والفجور ، فقد بعد عنا وخرج منا » ..

ومثل هذه الكلمات الصريحة والواضحة .. تدعونا كما تقول دكتورة « سعاد ماهر » في كتابها « مساجد مصر » الى أن نعرض لما ينسب الى الرفاعية من كرامة مسك الثعابين ، واختراق جسد الانسان بمواد صلبة ، مثل السبخ والشوكة والسيف .. من غير إحداث جرح وإراقة دماء .. لكننا لم نعثر في ترجمة الامام احمد ارفاعي على ذكر او إشارة من قريب أو بعيد ، الى أنه أتى بمثل هذه الكرامات ، غير ما جاء من أتباعه ..

يقول ابن خلكان في « وفيات الاعيان » : « ولأتباعه أحوال عجيبة ، من أكل الحيات وهى حية ، والنزول في التنانير تتضرم بالنار ، فيطفئونها .. »

ويعلق محمد فريد وجدي . على ذلك بقوله : « أما مايرى عن أتباع الرفاعي من أكل النار والجلوس عليها ، وغير ذلك فيظهر أنه صحيح .. وهو حين يدخل الانسان في حالة غير اعتيادية سواء اكانت بالذكر أو بالتنويم المغناطيسى » .

وتعلق دكتورة سعد ماهر على هذه الآراء ، فتقول : على أننا اذا رجعنا للديانات الهندية القديمة ، لوجدنا في الديانة « الجينية » .. التي تجعل الجسد في خدمة الروح ، ما يفسر بعض ما يأتيه الذين ينتسبون الى الرفاعية من اعمال غريبة .

والحقيقة ان حياة سيدي « أحمد الرفاعي » الحافلة العريضة ، هي التي جعلت الكثيرين يخوضون في بحارها. المتلاطمة المترامية الاطراف . فقد خاض بحارها المفسرون والمؤرخون والعلماء . فمنهم من افرد لسيدي « أحمد الرفاعي » بالتأليف مثل الشيخ « برهان الدين الحلبي » في كتابه « البرهان المؤيد » . كما ذكره السيد « أحمد القليوبي » في كتابه « تحفة الراغب » .. والامام « عبد الوهاب الشعراني » في « الطبقات الوسطى » . كما تناول ترجمة كذلك « الفيروز بادي » صاحب « القاموس المحيط » ، والشيخ « الكازروني » في كتابه « شفاء الاسقام في سيرة غوث الانام » .. الذي ترجم من الفارسية الى العربية . كما افرد لترجمته العلامة الشيخ « المنلاوي » في « كواكبه الدرية » ..

ونورد هنا ما يذكره الامام المنلاوي عن سيدي أحمد الرفاعي ، فيقول : « هو أحمد بن علي بن يحيى بن ثابت بن حازم بن رفاعه ، الشيخ الزاهد الكبير ، أحد الاولياء المشاهير . أبو العباس الرفاعي المغربي ، شريف يعنى ، غاض روض شرفه ، وهمل على العالم غوث سلفه . كان سيدا جليلا ، وصوفيا عظيما نبيلًا . قدم أبوه العراق وسكن « أم عبيدة » بأرض البطائح وولد بها صاحب الترجمة .. ونشأ بها ، وتلقه على مذهب الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه ، وكتب كتابه « التنبيه » ثم تصوف فجاهد نفسه حتى قهرها ، وأعرض عما في ايدي الخليفة ، وأقبل على اشتغاله بالحقيقة .. ومهر واشتهر وانتهت اليه الرياسة في علوم القوم . »

وعن اتباع سيدي « أحمد الرفاعي » ومريديه يقول « ابن خلكان » : « وهم الطريقة الرفاعية ، ويقال لهم الاحمدية ، والبطائحية » .. نسبة الى أحمد الرفاعي ، ونسبة الى البطائح في العراق .

والواقع ان الكتب التي تناولت سيدي أحمد الرفاعي لاتحصى .. ونضيف الى ما سبق ان ذكرنا كتابا يتحدث عن مناقب « الامام الرفاعي » ، وهو كتاب « ربيع العاشقين في مناقب سيدنا الامام الرفاعي سلطان العارفين » ، للحداد الشافعي ، .. وهو كتاب جدير بأن يقرأ بجانب كتاب الشيخ « العيداروس » بعنوان

« النجم الساعى فى مناقب القطب الكبير الرفاعى » .. هذا فضلا عما كتبه الحافظ الذهبى ، والامام العينى ، وابن حجر العسقلانى .. وغيره وغيره كثير .

الامام « احمد الرفاعى » فى حياته .. كان واحدا .. ويقولون انه كان صديقا « لابی الليث الحرانى » الذى كان معروفا بالصلاح والتقوى بين الناس . وكان والده امير حران .. ولقد ترك « ابو الليث الحرانى » طريق الامارة حين قابل سيدى « احمد الرفاعى » ، وتبع طريق الفقر ورضى بها . وفى طفولته ، كان سيدى « احمد الرفاعى » ، يتعلم القرآن والنحو والصرف عند احد المشايخ . وهذا الشيخ ذكرته الكتب الكثير عنه وعن تلميذه سيدى احمد ومن هذا الذى ذكر ، ان الاستاذ قال له مرة ان يعرب « ضرب زيد عمرا » فقال سيدى « احمد الرفاعى » : يا استاذ : لاى شىء ضرب زيد عمرا ؟ فقال المعلم : يولدى هو ماضربه حقيقة . ولكن هذا اصطلاح فى العربية . فقال له سيدى احمد الرفاعى : ايش بى اتعلم مالى الكتاب ، ولا حاجة لى بذلك ولا اقروءه . وخرج من عند الاستاذ ، ولم يعد اليه بعد ذلك .

ويقال ان استاذته الذى كان اول من اثر فيه هو الشيخ « على القارى الواسطى » ، وهو الذى أخذ عليه العهد الوثيق :. والذى - كما يقال - انكشفت لسيدى « احمد الرفاعى » معه ، بإذن الله ، علوم الحقائق وعلوم الظاهر والباطن .. وهى علوم المتصوفة .. وان كان البعض يرى ان خاله « الامام منصور » كان استاذته الاول الذى رباه ، والذى فطمه على الصلاح والعبادة وبدأ معه اول الطريق . كما يقال ان سيدى « احمد » أخذ من الفقيه « الواسطى » علوم الشريعة وتفنن بها ..

ومن علامات نجابة سيدى « احمد الرفاعى » ، يروى صاحب كتاب « النجم الساعى » .. انه كان لخاله منصور البطائعى ولدان .. ولكنه اهتم بابن اخته الرفاعى اكثر من ولديه . ولأن خاله منصور كان شيخ زمانه ، فقد اراد أن يخلفه ابن اخته ، وليس احد من ولديه ، على السجادة ، فيكون شيخ الشيوخ . فلما قال له اولاده : ان ميراث الاب لا يكون الا للابن ، وليس لابن الاخت .. لم يسمع اليهم .. وقد برهن على ان سيدى « احمد الرفاعى » يستحق هذه العناية ..

ولقد اورد « كتاب المناقب » بعض الامثلة على سبق سيدى « احمد » على ولدى خاله امام جمع كبير من الناس ، ليشاهدوا ، فقد جمع الشيخ « منصور البطائعى » ولديه وسيدى « احمد » معهما ، واعطى لكل منهم دجاجة وسكينا ، وقال لهم ، كل

منكم يذهب بدجاجته وسكينه الى محل خال ، ما فيه احد ، ثم يذبح دجاجته ،
ويأتى بها مذبوحة ..!

وانتظر الجمع الكبير ماذا سيفعلون بالدجاج : وقد فوجيء هذا الجمع ، بأن كلا
الولدين جاء بدجاجته مذبوحة فيما عدا سيدى « احمد الرفاعى » . فسأله :
لماذا ؟ . فقال : قد اشترطتم على خلو المكان . فكل مكان كنت اذهب اليه ، لاجده
خاليا ، بل مشغولا بالله سبحانه وتعالى ، وهو فيه حاضر ناظر . ولما ار مكانا
خاليا قط لم اذبحها ..

وقف الجميع مشدوهين بما قاله سيدى « احمد الرفاعى » .

وايدوا الشيخ « منصور » .. على اهتمامه بولد أخته .. وانه سيكون له شأن ..

وهكذا .. ذاع صيت سيدى « احمد » فى « ام عبيدة » .. واتسع ليزييعه فى
بغداد .. لدرجة انه وكما يقول صاحب « النجم الساعى » : « وفى مدة قليلة شاع
شرف اخباره فى العالم ، وسار اليه من البلاد والاقطار خلق كثير ، ولزموا خدمة
اعتابه .. وصار سيدى احمد فى مرتبته اظهر من كل شيخ كان له سجادة فى هذا
العصر » .

ولنهرقه بدأت الانظار تتجه اليه .

وكا لا بد ان يخرج من « ام عبيدة » لتتأكد شهرته وليزييع صيته بين علماء
بغداد ..

وقيل انه لما طلع الى بغداد ، اجتمع عليه علماءها ، وفضلاؤها ، وهياؤها له أسئلة
كثيرة للامتحان ، وسأله أسئلة مشككة ، منها من اى شيء خلق الله ملكوت
السموات ؟

قال : خلقه الله تعالى من النور ، ولكنه خلق العرش أولا من خالص نوره ومن نوره
خلق أربعة ملائكة : جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل .. عليهم السلام ، وخلق
حملة العرش من نور حضرة القدس ، وخلق الكرسي والعرش من نور المصطفى ..

ثم سأله : مم خلق الله تعالى نور محمد صلى الله عليه وسلم ؟
فقال : خلقه من نور الالهية ..

وأستلة كثيرة ذكرها صاحب « النجم الساعى » ..
ويقول أنه بعد أجاباته عن كل ما وجه اليه من أسئلة .. « فلما سمع القوم من
الرفاعى هذه العلوم ، وهذه الأجوبة المحررة ، قالوا جميعا : صدقت يا قطب
العارفين ، ولقب بذلك بينهم .. »

من أهم ما يميز به سيدى « احمد الرفاعى » من سجايه بجانب علمه
وقطبانيته .. شففته على عباد الله تعالى ، خاصة الفقراء والمساكين ..

والكثير من سجايه يذكرها كتاب « ترياق المحبين » للشيخ « تقى الدين
الواسطى » ..

ومن سجايه أنه كان على كمال الاستغناء عن الدنيا ، ولا أحب شيئا منها مدة
عمره ، وكان يقول : يا فقراء إعملوا أن فى اطراف الانسان عرقا متصلا بالقلب ،
فمتى ما اعتاد الانسان قبض الدنيا بيده وكفه تعلق قلبه بها ، فاذا اراد أن يقطع
ذلك التعلق ، لعسر عليه ذلك .

وكان سيدى « احمد الرفاعى » مع الايتام فى مقام الوالد . وكان يحنو على
الارامل ، ويميل الى طائفة المساكين . كما كان عليما للغاية ، عظيم التواضع ، كتاما
للاسرار . واذا تعدى عليه أحد ، عفا عنه وسامحه . وكان يقول للفقراء : يا فقراء
إعلموا أن كل من يعمل منكم سوءا يكن عاصيا بعيدا من الله ، ومن يعمل حسنة يكن
تالبا وقريبا الى الله .

وكان سيدى « احمد الرفاعى » يملا القرب ، ويحملها على ظهره ، وعلى كتفه ،
ويوصلها الى منازل النساء والارامل ، كما كان يجمع الحطب ويوزعه ... بل إن أهل « ام
عبيدة » كانوا يقولون عنه « إنه رجل بعشرة آلاف رجل » ، لأنه كان يقول : « إن
نجاتى خدمة الارامل واليتامى . واحب أن اشهد نفسى فى خدمتهم دائما ، واذا رايت
يتيما يبكى تهتز مفاصل وترتعد اعضائى حنانا له وشفقة عليه ، واخاف من
بكائه » .

ويحكمون عن سيدى « احمد الرفاعى » : أنه كان إذا حضرت الصلاة لا يقدم
شيئا من أمور الدنيا . واتفق فى يوم من الايام أن عطش فطلب أن يشرب ، فاذن

المؤذن ، فقال : امر الصلاة اوجب واحق بالتقديم على كل شيء . فترك الشرب واشتغل بالصلاة ، ثم لما فرغ من صلاته قال : إن شرب الماء من حفظ النفس وشهواتها ، والصلوات من شئون الذات العلية واعتباراتها .

ويقولون إن سيدى « احمد الرفاعى » ، كان اذا شرع فى الصلاة ، يصفر لونه . واذا فرغ من صلاة الصبح ، يستمر فى مكانه جالسا بالذلة والمسكنة يقرأ الاوراد الى صحوه النهار العالية ، واذا فرغ من ذلك صلى صلاة الاشراف وصلاته الضمى . ثم يتوجه الى « أم عبدة » يجاهد نفسه على العبادة ، وكان دائما يرى فى الخلوة واقفا على قدميه يجاهد نفسه ، وينشد هذا البيت من الشعر :

والله لو علمت روحى بمن علقت

قامت على رأسها فضلا عن القدم

كما كان رضى الله عنه يكره أن يتشبه بالعظماء ، أو أن يقوم له الناس كلما حضر أو انصرف . بل إنه رضى أن يتخذ خادما يعينه فى حاجاته ، لأنه كان يقول لكل من يسأله أن يستريح ويتفرغ للتدريس والعلم وتوجيه مريديه : ومن أين لى أجر الخادم الذى يعيننى ودخلى محدود . فلما كان تلاميذه يعربون عن استعدادهم لمعاونته ، كان رده الدائم : « إن العلم الذى اعطيه .. لا أجر عليه . وكل من يستغل تلاميذه ومحبيه من أجل ائراء أو جاه دنيوى ، فقد خسر الدنيا والآخرة » .

والإمام « الرفاعى » كان يرى أن الصولى الحق ، هو الذى يواجه الحاكم إن أخطأ أو جانبه الصواب . لا طمعا فى جاه دنيوى ، ولا رغبة فى مال أو دنيا .. وإنما لله وحده .. ويشتهر عنه أنه كتب للخليفة العباسى « المستنجد بالله » يقول له :

« يا أمير المؤمنين ، إن أنت نفذت أحكام الله تعالى فى نفسك ، نفذت أحكام كتبه فى ملكك ، وإن عظمت أمرا .. عظم الله أعمالك وولاه الأمور من قبلك . ثم زن يا أمير المؤمنين كل ما يصل الى خويصة نفسك فى هذه الدنيا من طعام تأكله وشراب تشربه ، ورداء ترتديه ، واجعل الشره على الدنيا بقدر ذلك .. فان رداك ما ستترك ، وطعامك ما أشبعك ، ومالك ما لك منه شيء .

« وعليك بالعقل والدين ، وإياك وأرباب القسوة بالغدر والضلالة ، فهم أعداؤك .
وإذا أحببت فحكم الأنصاف في عملك ، وإذا كرهت فاذكر الله .. والنحط في العفو خير من
الخطأ في العقوبة ، وسأوبين الناس برا وفاجرا ، مؤمنا وكافرا » .

وهذا هو طريق التصوف الذي اتخذه سيدي « أحمد الرفاعي » .. فهو كما يقول :
الفقر والتصوف مبنيان على خصائص متعددة ، منها أن يتجرد العبد لله تعالى ،
ويعلم الله علما يقينا ، ويقول بالوحدانية في أفعاله وصفاته وذاته ، وأنه ليس
كمثله شيء سبحانه وتعالى . ومجلس الصوفية ، كما يراه سيدي « أحمد الرفاعي » ،
مجلس الغم والعزاء .. فإن الفقير إذا جلس به يستمر متأسفا متحسرا على زمانه الذي مضى
وفاته ، وما فعل به شيئا مما كان ينفعه ، ويقول : « في أي سبيل ماضى من عمري وأنا
غافل ، ما عملت به عملا صالحا » ..

ومن وصية سيدي « أحمد الرفاعي » إلى الشيخ « يعقوب » :
« يا شيخ يعقوب ، لا تنظر إلى عيوب الخلق ، فإن نظرت إلى عيوبهم اظهر الله
فيك جميع العيوب » . وقال لـ « إبراهيم الأعزب » :

يا إبراهيم ، كل من أراد أن يكون لك شيئا ، فكن أنت مريدا له . وكل من تقدم
عليك ، فقدمه وعظمه . إيك والتقرب من أهل الدنيا ، فإن القرب منهم يعشى القلب ،
والتواضع لهم موجب لغضب الرب ، وتعظيمهم يزيد في الذنوب ، ولو عرف العالم
كله رب الفقراء حق المعرفة ، مثلما عرفه الفقراء ، لانقطعوا عن معاش الدنيا
وأحوالها بالكلية .

وكان يقول : حق الفقير أن يكون قبلة وإماما للناس يقتدون به . واللازم على الفقير أن
تكون أقواله مطابقة للشرع الشريف المحمدي ، حتى لا يخرط في سلك من اتخذهم الناس
رؤساء جهالا ، فضلوا وأضلوا .

ويدعو سيدي « أحمد » دائما إلى الحب . وكان يقول : تعلموا العشق من الشمع
المحترق ، فإن لونه أصفر ، وعينه ملآنان بالدموع ، وبدنه دائما في احتراق
وانمحلاق وذبول ، وأعلم أن العشق له ثلاثة أحوال محمودة : الأكل القليل ، والنوم
القليل ، والكلام القليل . فنتيجة الأول النوم القليل . ونتيجة الثاني العقل
والفراصة . ونتيجة الثالث الحكمة .

وكان سيدى « احمد » يحض أتباعه ويشجعهم على النهل من ينابيع العلم . وطلب العلم لا يقتصر على مكان واحد . ولهذا كان يذهب الى حلقات العلم فى كل مكان يسمع عنه ، ويرحل الى كل عالم جليل يصل الى خبره . حتى انه يروى أن نصائح معلمه « الخرنبوى » ، والذي كان سيدى « احمد الرفاعى » يذهب اليه فترة من كل عام ، ظلت عالقة فى ذهنه ، وكان يرويها لمريديه .. ومنها : « اى متلفت لا يصل .. وكل متسلل لا يلح . ومن لا يعرف - فى العلم - نقصانا ، فكل وقته نقصان » ..

وكان سيدى « احمد » يرفض أن يحضر مجلسه عاطل ، فكان يلزم كل دارس أن تكون له حرفة يقتات منها .. « فمن ليس له عمل فليأتنا فى الغد لنبحث له عن عمل هنا أو هناك » .. ولقد كان الرفاعى يعمل فى الرعى ، كما عمل شفاء وحطابا ..

ولقد توقف الامام مرة عن الكلام ، وأطال السكوت .. أثناء إلقاء دروسه . وطال صمته حتى خاف عليه تلاميذه . ثم قال لهم : لا تسبونى من بعدى . قالوا : وكيف نسبك وانت إمامنا ؟ . قال : تقولون قولاً لم آله ، وتعملون شيئاً لم أعمله ، فإراكم الناس ويسمعونكم ، فيقولون لولا انهم راوا شيخهم ، ولولا انهم سمعوا شيخهم ، ما قالوا ، وما فعلوا ، فيسبونى . إعلموا أن كل شيء خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ، فليس منى .

والواقع أن سيدى « احمد الرفاعى » كان شيئاً آخر غير الذى يحاول المدعون أن ينسبوه اليه .. كان مؤمناً ، عالماً ، إماماً ، وفيلسوفاً .



للامام « احمد الرفاعى » كتاب قيم بعنوان « حالة اهل الحقيقة مع الله » ، هذا الكتاب من الكتب العميقة التى تلقى الاضواء على فكر الرفاعية من خلال قطبها ، وهذا الكتاب من الكتب النادرة التى توجد فى مكتبات بعض قدامى الصالحين ، الذين ورثوها جيلاً عن جيل .. كما يقول « صلاح عزام » ، محقق هذا الكتاب ، وكتاب آخر للرفاعى هو : « البرهان المؤيد » .

والكتاب نموذج مشرف لتعاليم الرفاعى .. حتى يجد فيه المهتم بالصوفية المنهج والدعوة - وهو نموذج حى للدروس التى يجب أن يقتدى بها تلاميذ الرفاعى ومحبيه وسالكو طريقه . وقد بدأ الامام الرفاعى هذه الدروس يوم الخميس الاول من رجب عام ٥٤٩ الهجرى ، وكان عمره يومئذ سبعة وثلاثين عاماً هجرى فقط ، واستمر كل يوم

خميس ، على مدى أربعين أسبوعا . واختار له عنوانا متكاملا وهو : « حالة اهل الحقيقة مع الله » . وقد قام بجمع مادته أبو شجاع بن منجج الشافعي الواسطي .. وكتب مقدمة له ..

وستجتزئ هنا بعض ما قيل في هذه الجلسات العلمية لسيدى « احمد الرفاعي » التي كانت تعقد في « رواق أم عبيدة » .. وهي جلسات للتفسير والتوحيد والتفقه في الدين .. من يقرؤها يشعر بمدى ما كان عليه الامام « الرفاعي » من علم ومعرفة بأمور دينه .. وهذا بعض مما كان يدور في هذه الجلسات :

مثلا في الحديث الثاني .. أو الخميس الثاني ذكر انه قيل « للواسطي » « أي الطعام أشهى ؟ »

قال : لقمة من ذكر الله تعالى ، ترفع بيد اليقين من مائدة الخلد عند حسن الظن بالله تعالى .

قال « الفساج » : يخرج أكثر اهل الدنيا من الدنيا ، ولم يدقوا طيباتها المقصودة .. قيل : وما هي ؟ قال : سرور المعرفة ، وحلاوة المنة ، ولذات القربة ، وأنس المحبة .

وقال محمد بن واسع : حق لمن أعزه الله بمعرفته أن لا يذل نفسه لغيره وحق لمن والاه الله بولايته أن يقوم بحقه ، وحق لمن أكرمه الله بصحبته أن لا يميل الى غيره ، ولا يعمل بهوى نفسه .

وقال أبو يزيد : ان في الليل شرابا لقلوب العارفين ، تطير به قلوبهم حبا لله وشوقا اليه . الا أن الناظرين اليه ، لا الى غيره ، ذهبوا بصفوة الدنيا والآخرة . أقول : وهذا الشراب هو الخير ، وهو على ضربين : تحير وحشة وتحير دهشة . فتحير الوحشة للمطرودين ، وتحير الدهشة للعارفين المشتاقين ... يادلل المتحيرين زدي تحيرا .



وفي الحديث الرابع ، يعرف سيدى احمد الرفاعي باهل المعرفة ، ويقول أنهم ثلاثة اصناف : صنف يمشون على قدم الافتقار والاضطرار . وصنف يمشون على قدم الاعتبار والانكسار ، وصنف يمشون على قدم الافتخار والاستبشار . قال تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ، الآية » .

والفاس في مشهد المعرفة على مرتبتين : إما في يقظة المعرفة فهم في تربية الولاية ينتظرون الكرامة .. وإما في أرحم الراحمين ، فسبحان من خص من عبده من شاء ، بأعظام ثم دعاهم الى نفسه بفضله حيث قال : « وانىبوا الى ربكم » . فاجابوه

وانابوا اليه . فهم على أصناف شتى . فالتائبون يمشون برجل الندامة على قدم الحياء ، والزاهدون يمشون برجل التوكل على قدم الرضاء ، والخائفون يمشون برجل الهيبة على قدم الوفاء ، والمحبون يمشون برجل الشوق على قدم الصفاء ، والعارفون يمشون برجل المشاهدة على قدم الفناء .

فالمعرفة طعام أطعمه الله من شاء من عباده ، فمنهم من يذوقه ذوقا ، ومنهم من يأكل منه بلاغا ، ومنهم من يأكل منه كفافا ، ومنهم من يأكل منه شبعاً .

والناس في المعرفة على منازل ، فمنهم من يكون منزله منها كشمس ، ومنهم من يكون كغرفة ، ومنهم من يكون كمصر ، ومنهم من يكون منزله منها كالدينا والآخرة .

وفي الحديث الخامس قال سيدى احمد الرفاعى لجلسائه :

أى سادة .. للعارف أربعة أجنحة : الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والشوق . فلا هو بجناح الخوف يستريح من الهرب ، ولا بجناح الرجاء يستريح من الطلب ، ولا بجناح المحبة يستريح من الطرب . ولا بجناح الشوق يستريح من الشغب .

والله تعالى بين في كتابه نعمتهم « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » . وقوله تعالى : « لا تلهيهم تجارة » . الآية . وذلك لأن عمل العارف خالص للمولى ، وقوله مستأنس بالذكرى ، ونفسه صابرة في البلوى وسره دائم النجوى ، وفكره بالافق الأعلى . فمرة يتفكر في نعم ربه ، ومرة يجول حول سرادقات فحينئذ يصير حرا عبدا ، وعبدا حرا ، وغنيا فقيرا وفقيرا غنيا .

هكذا يعد ما أمكنه طردا وعكسا من الألفاظ ، مثل : الموجود والمعروف والعزیز ، والمسرور ، والقريب ، والمحمود ، والناطق والساكت . والمقبول والخائف ، والمشاهد والغائب . والباكي والضاحك . وذلك لأن ضحكك وسروره في حزنه . وحزنه في سروره . وعزه مختلط بذله . وذله مختلط بعزه . وخوفه ممزوج برجائه ، ورجاءه ممزوج بخوفه .. لا خوف يذهب برجائه ، ولا رجاء يذهب بخوفه . وهو بنفسه يعيش مع الناس معاملة قلبه مع الله تعالى . عزيز ذليل ، فقير غنى . كما قال « أبو يزيد » رضى الله عنه في مناجلاته :

كلما قلت قد دنا حل قيدي

قيدونى وأوثقوا المسمارا

وكان يسيل الدمع من عينيه عند هذه الكلمة ، وليس كل من يرى عليه أثر الزهد فهو زاهد ، وكذلك أثر الرغبة والحماقة والخيون والبطالة والغفلة .

ان الله تعالى كلما نظر الى قلب عبد من عبيده بالفضل والرحمة كشف عنه حجاب الغفلة ، وأظهر له لطائف القدرة ، فعند ذلك لا بد له من إحدى ثلاث : إما أن يصير حكيماً يتصل به الخلق الى الله . وإما أن يكل لسانه فيصير مدهوشاً مبهوراً . وإما أن يصير مستوراً في حجه محفوظاً في قبضته حتى لا يراه غيره لشدة غيظه عليه . فتسبحان من حجب أهل معرفته عن جميع خلقه ، حجبهم عن أبناء الدنيا بأستار الآخرة . وعن الآخرة بأستار الدنيا ، وذلك أن أهل المعرفة عرائس الله تعالى في أرضه ، والله محرمهم ، لا محرم لهم غيره ، فهم عند الله مخدرون .



والجليلة السابعة .. يقول من بين مايقوله لتلاميذه ومريديه :

أى سادة : إن الله تعالى عباداً اصطفاهم لمعرفة ، وخصهم بمحبته ، واختارهم لصحبته ، واجتباهم لمؤانسته ، وقربهم لمناجاته ، وحرصهم على ذكره ، وانطقهم من كاس محبته . وفضلهم على جميع خلقه حتى لم يريدوا به بدلاً ، ولا سواه كفيلاً ، ولادونه ناصراً ومعيناً ووكيلاً .

ولقد سبقوا من دونهم سبقاً ، لا بكثرة الاعمال ، ولكن بصحة الإرادات وحسن اليقين ، مع دقائق الورع والانقطاع بالقلب اليه ، وتصفية السر عن كل مادون الحق ، فإذا أقمهم الله طعم لباب معرفته ، وأنزلهم في حظيرة قدسه ، لا يصبرون عن ذكره ، ولا يشبعون من بركه ، ولا يستريحون لغيره .

فيأطوبى لهم . هم الأقلون عدداً ، والأعظمون خطراً ، بهم يحفظ الله محبته حتى يؤدونها الى نظرائهم ، فيأطوبى لهم . هم الزاهدون فيما رغب فيه الغافلون ، والمستأنسون فيما استوحش منه الجاهلون ، والمشتاقون الى ماهرب عنه الساهون . هم الذين نظروا بأعين القلوب الى حجب الغيب ، وجالت أرواحهم في الملكوت ، فهُمَّتْهُمْ في سرهم ، وسرهم عند ربهم ، به يستمعون وبه ينظرون وبه يريدون ، وبه يتحركون .. قلوبهم بحبها مستأنسة بأنسها .

لله قوم مصطفون لنفسه

إختارهم من سالف الازمان

إختارهم من قبل فطرة خلقهم

فيهم ودائع حكمة وبيان

وحول أهل المعرفة يقول سيدى احمد الرفاعى فى الجلسة التاسعة :

أى سادة .. من أراد أن يتكلم بلسان أهل المعرفة ، فينبغى أن يحفظ أدب كلامه ، فلا يكشف دقائقه الا عند أهله ، وأن لا يحمل المريد فوق طاقته ، ولا يمنع كلامه من كان من أهله ، ويكون كلامه مع أهل المعرفة بلسان المعرفة ، ومع أهل الصفاء بلسان المحبة ، ومع أهل الزهد بلسانهم : ومع كل صنف على قدر مراتبهم ومنازلهم وقدر عقولهم . فان الله تعالى جعل للعارف هذه اللسان . نعم كلها تتلاشى عند ظهور سلطان الحق ، وينبغى الا يتحدث بحديث لا يبلغ عقل المستمع اليه ، فيكون ذلك فتنة . فإن أكثر الناس جاهلون ، اشتغلوا بعلوم الظواهر ، وتركوا علم تصحيح الضمائر ، فلا يحتفلون دقائق كلام العارفين . لأن كلماتهم لاهوتية وإشاراتهم قدسية وعباراتهم أزلية . فلذلك ينبغى للمستمع أن يكون معه السراج الأزل والنور الديمومى ، ويقال : لسان الحال أفصح من لسان المقال . فمن رضى بالحال دون ولى الحال صار مخذولا ومحجوبا عن ذى الجلال . وأى دهشة أشد من دهشة العارف ؟ .. أن تكلم عن حاله هلك ، وأن سكت احترق . فمن ورد قلبه الحضرة كَلَّ لسانه ، ومن غاب قلبه عن الحضرة كثر كلامه .

بين المحبين سر ليس يفشيهِ

خطر ولا قلم عنه فيحكيهِ

نار تقابله ، انس يمازجه

نور يخبره عن بعض مافيه

شوقى اليه ولا ابغى له بدلا هذى سرائر كتمان تفاجيه

وقد كان سيدى د احمد الرفاعى ، يطلب من تلامذته ومريديه دائما ان يسالوه .. وكان رحمه الله مستعدا دائما ، جاهزا دائما .. وهذا ما حدث فى الحديث الثانى عشر ، حيث يقول :

أى بنى .. أعلم ان لكل شىء مفتاحا ، ومفتاح العلم السؤال . فان قدر المريد على أن يجالس أهل المعرفة فيقتبس من علمهم وتحقيق رمزهم ولطائف إشاراتهم ، فيخ بى ، فإن شرف العلماء الربانيين أكبر من أن يدركه أحد غير الله ، لأنهم أجباء الله . وأبناء سره . فليفتنم حرمتهم ، ويحرك خواطرهم بحسن السؤال . فإن أمواج خواطر العارفين لا تقنى عجائبها ، وكفى للمرء جهلا إمساكه عن التعليم ، واستكفاؤه بما عنده ، وقد قال الله تعالى :

« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون » . وقال النبى ﷺ « جالسوا الكبراء وسألوا العلماء » ..

ويواصل سيدى د احمد الرفاعى ، فى الحديث الثالث عشر ما بدأه فى الحديث قبله . فيقول :

أى بنى .. أعلم ان العارف بأسرار المريدين على همم العارفين ، كلف العباد وفاء صدق العبودية ، ثم بين لهم تحقيق شرائطها ، كيلا يتجاوزوا حد العبودية الى حد الربوبية ، وحد الفقر الى حد الغنى ، قال تعالى : « ياأيها الناس انتم الفقراء الى الله » . الآية . وجعل لكل شىء سببا . فجعل المخرج من عبودية المخلوقين القيام بصدق قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » .. من عبودية سواء ، ويرزقه المؤانسة والمحبة ، والشوق اليه من حيث لا يحتسب . ومعنى آخر : ومن يتق الله بحفظ السر عن أفات الالتفات إلى ما سواه يجعل له مخرجا من حجب الإبعاد ، ويرزقه المشاعدة والوصلة من حيث لا يحتسب .

وقال الإمام الرفاعي في الحديث الخامس عشر ، مضيافا :

أى بنى . أعلم أن معرفة النفس أحد أصول العبودية . وقل من يعرفها ، وعز وجود من يتمنى عرفانها . وما خلق الله تعالى في الدارين سجنا أضيق على العارف ولا أوحش ولا أنتق من النفس ، فمن عرفها على التحقيق وخالف أمرها ، فكل أرض له ثغروطرسوس . ومن غفل عن معرفتها ، فهو على خطر عظيم ، ولا يسلم من شرها . فإن من لا يعرفها كيف يقوم بمخالفتها . قال « أحمد بن حرب » إنى اشتهد أن أموت ، ولو ساعة ، حتى أعرف نفسى وأخالفها .



ومن نماذج تفسير الأحاديث في جلسات سيدي « أحمد الرفاعي » « بام عبيدة » .. ما قاله في الحديث التاسع عشر .. وهو تفسير في الواقع ينحو الى السلاسة ، وفي نفس الوقت الى العقلانية .. في الحديث النبوى الذى يقول : « إن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، الحسنة بعشر أمثالها ، فكانك صمت الدهر كله » .. يقول سيدي « أحمد الرفاعي » تفسيراً له :

في هذا الحديث الشريف أسرار ، منها البشارة بتواصل نور الأعمال بنور الأعمال من دون انقطاع ، وإن تباعدت الأوقات . ومنها مضاعفة ثواب العمل لهذه الامة .. الحسنة بعشر أمثالها ، لتنشط قلوبهم لعمل الخير . ومنها الأمر بعدم التكليف الى أن يفضى بالعبد الى السام والمثل . ومنها لزوم التذكرة لأنظم القلب الغفلة ، ومنها الايمان القطعى بوعد الله وحسن كرمه .. كل هذه الخصال ، خصال العارفين الذين انقطعوا عن كل الهموم الدنيوية والاخروية ، وصار همهم ربهم ، ومن كان همه ربه فلا هم له .



وحديث نبوى آخر يقول : « لاتحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسسوا وكونوا إخوانا كما أمركم الله تعالى »

ويفسر سيدي « أحمد الرفاعي » هذا الحديث فيقول : هذا الحديث الشريف تضمن من أسرار المعرفة بالله العجائب ، فإنه أمر بالتخلي عن الصفة الابليسية . وهى الحسد . ثم بالتجرد من الصفة النفسانية ، وهى البغض لغير الله تعالى . وبالترفع عن الصفة السافلة الهوائية وهى التجسس . ثم بعد أن أكمل درجات التنقية أمر برؤية عدم الفرقية بين المرء وبين إخوانه ، وأن هذا أمر من الله تعالى . وإذا كملت للعبد هذه الخصال

فقد أحكم شأن المعرفة بالله ، ومن هذا السر قول سيدنا « علي » كرم الله وجهه ورضي عنه عن عرف نفسه ، فقد عرف ربه .

أي بنى ، أعلم أن العبد بين الله وخلقه إن التفت عنه إلى الخلق تجرد عن الحق ، وصار متروكا محروما مخذولا . وإن التفت إلى الله عن الخلق ، قربه منه وحب له ، ولم يحتمل منه الالتفات إلى شيء سواه ، فإنه لن ينظر إلى شيء سواه ، عذبه الله بذلك الشيء ، وجعله وبالا عليه . أما ترى أن إبليس لعنه الله نظر إلى نفسه ، وقال عن آدم : أنا خير منه فلعنه ، وقارون نظر إلى ملكه وقال : إنما أوتيته على علم عندي فحسب الله به ويداره الأرض . وكذلك الملائكة نظروا إلى تسييحهم وتقديسهم ، حيث قالوا : ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . فابتلاهم الله تعالى بالسجدة إلى آدم . وكذلك كل من قال : أنا ، يقول الله تعالى : لا بل أنا ، ثم يرده إلى أسفل السافلين ، وكل من يقول : أنت الله يرفعه إلى أعلى عليين .

والالتفات على وجهين : إلتفات العين وللتفات القلب . فالتفات العين مثل ما قال الله تعالى « لمحمد » محبيه عليه الصلاة والسلام « لا تعدن عينيك إلى ما تعنه أبه » الآية . ثم من عليه لما عصمه ، حيث قال تعالى « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » . ثم مدحه بترك الالتفات إلى ما سواه في قوله تعالى : « عزّاز البصر وما طغى » .. ثم ثورته تلك الترك الكلي بأن رفع له الحجاب حتى رأى ما رأى .. بخلاف ما حدث لسيدنا موسى كما جاء في قوله تعالى : « قال رب أنظر إليك » ، قال أنظر إلى الجيل وإن تراني .. بعد أن نظرت إلى غيري .



وفي الحديث الشريف « المرء مع من أحب » .. كانت الجلسة السابعة والعشرون في « أم عبيدة » وحوله يقول الإمام الرفاعي :

في هذا الحديث الشريف من الإلزام بمحبة أحبب الله ورسول الله ﷺ ما فيه من بلاغ للموقنين وهدى للمتقين ونور للعارفين . فإن من تيسر سره المعية ، التي أقصم بها النص الأشرف ، أتمسك إلا من محبة الله تعالى . ومحبة من أحبه الله وأحب الله ، وكذلك العارفين رضي الله عنهم . ومن العارفين من هم أهل القلوب المنيرة ، أصحاب صفاء السريرة والعمدة على القلوب .



ويقسم سيدي أحمد الرفاعي الحديث القدسي : « كلمة لا اله الا الله حصني فمن قالها دخل حصني ، ومن دخل حصني أمن من عذابي » .. بقوله : هذا الحديث القدسي ، الذي وصل الينا بالسند النبوي فيه من إعظام شأن كلمة التوحيد ما يزيد العبد ايمانا ، ويملؤه عرفانا ، ويلزمه بالمداومة على الذكر بهذه الكلمة التي هي روح التوحيد ، وما على قائلها بعد الايمان بعبادتها ﷺ من بأس ، وكونها أخذة بالعبد الى الاقتدار الى الله تعالى ، والانتهاز تحت عظمة قدره إنيته ، فلذلك صارت حصنا للعبد بين الله سبحانه وتعالى ..

وحول الحديث النبوي : « إذا راح احدكم الى الجمعة فليغتسل » .. يقول سيدي الامام « الرفاعي » من درسه لو حديثه الثلاثين : هذا الحديث الشريف فيه من إعظام مناجاة الله القلبية . فان العبد اذا صلى تلجى ربه ، سيما في الجمعة ومشهدا فينه من أعظم مشاهد الحضرة ، والاعتسال عبارة عن غسل القلب والقلب من الموجودات .. هذا مع ما فيه من فضيلة التطهر الشرعي . وهذا سر من أسرار الاعتسال . ولم يكن من حكم شرعي الا وفيه من الاسرار الباطنة والظاهرة ما تحيرت له العقول .

وحديث آخر للرسول ﷺ يقول : « من ولد له مولود فسماه محمدا تبركابه كثر هو ومولوده في الجنة » . يقول الامام « الرفاعي » في الجلسة الرابعة والثلاثين : في الحديث الشريف من سر الحب له ﷺ ، ما يفهمه أهل الخصوصية ، فإنهم يذكر اسمه المباح ترتاح همهم للتخلق بأخلاقه الزكية ، وللتشبه بأقواله ، فتراه لا تنف همهم في طريق متابعته وبقية المشغول بالدنيا ، بل هم منتبهون خاشعون ، ومن الله خائفون ، ولشبههم متبعون ، ويستنته عاملون ، وأولئك هم العارفون .

هذا هو بعض فكر سيدي « أحمد الرفاعي » .. وما كان يحدث فيه مع مريديه . ولا شك أن هذا الفكر لا يتفق مع من ينتسبون الى طريق سيدي « أحمد الرفاعي » ، أو ينسبون هم أنفسهم اليه .. وهم جهلاء ورجالون . إن طريق سيدي « أحمد الرفاعي » طريق الله .. طريق التصوف الحقيقي ، طريق الفقراء الى الله . وهو طريق من يقول عنه « الامام الشعراي » في طبقاته : « .. اليه انتهت الرياسة في علوم الطريق ، وشرح أحوال القوم ، وكشف مشكلة منازلهم ، وتمتلك له خلق لا يحصون ، وهو أحد من قهر أحواله ، وملك أسرارهم » . ولقد صدق الامام الشعراي رضي الله عنه ..

ويبقى بعد ذلك أن نقول بعدما أوردنا أن سيدي « أحمد الرفاعي » مدفون بقبرية « أم عبيدة » في العراق ، ومقامه الشريف هناك ... فماذا عن مسجد سيدي أحمد الرفاعي في حى القلعة ؟ !

الواقع أن هذا المسجد يعتبر من أروع الآثار في مصر الإسلامية . وقد أنشئ عام ١٢٨٦ الهجرى ، واستغرق بناؤه عشرين عاما .. وتربو مساحته على عشرة آلاف متر مربع .. ويضم المسجد ضريحين .. ضريح الشيخ على أبى الشباك وقد وفد والده الى مصر عام ٦٨٢ الهجرى . وبالإضافة الى ضريح سيدي على أبى الشباك ، فيضم المسجد أيضا ضريح الشيخ يحيى الأنصارى ... وهو أيضا ينتسب الى سيدي الامام الرفاعي .

وتقول الدكتورة سعاد ماهر : إن والد أبى الشباك تزوج حفيدة الملك الأفضل ، أحد أمراء المماليك في عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، فأنجب منها ولده « عليا » . وقد رحل أحمد الصياد ، حفيد الامام أحمد الرفاعي عن مصر قبل أن يولد ابنه على ، فبقى في كنف أمه وأهلها في مصر واتخذ طريقة جده ..

وتضيف الدكتورة سعاد ماهر : على أن سيدي على أبا الشباك ، حفيد الامام أحمد الرفاعي ، لم يكن هو أول من دعا إلى الرفاعية في مصر ، فقد سبقه الى ذلك الشيخ أبو الفتح الواسطى ، الذى وفد الى مصر ، من العراق في أوائل القرن السابع الهجرى ..



سیدی ابو الحسن الشاذلی

کلام هذا الرجل
قريب العهد من الله



شيخ مهيب الطلعة .. كفن كلشباب علما وحياة .
 نحيف الجسم من طول التهجذ والتعبد والمنالجة .
 طويل القامة ، خفيف العارضين ، طويل اصابع اليدين بشكل ملحوظ .
 في لسانه فصاحة .. وفي حديثه عنوية .
 وهذا الشيخ كفن دائم الاهتمام بزيئته وهندامه .
 وعلى غير العادة ، لم يكن يتعمد قط ان ياكل الخليقة من الطعام ، او يلبس
 الخشن من الثياب .

تعجب الكثيرون حينما قال لاحد مرئيه : يعنى برد الماء ، فلك اذا شربت
 الماء السخن ، فقلت الحمد لله ، تقولها بكزارة .

واذا شربت الماء للبارد فقلت الحمد لله .. استجاب كل عضو منك بالحمد
 لله ..

كن يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفلور من الدواب .. ويتخذ الخيل
 الجيد . واذا ركب في المواسم ، يعشى اكبر القراء واكبر الدنيا حوله . وتنتشر
 الاعلام والبيارق فوق راسه وتضرب الكسكسات بين يديه .



مذهب هذا الرجل كان صرخة جديدة غيرت المقاميم ، او هي اعلنتها الى
 اصولها . دعا الى طريق متجدد .. طريق الله ، واصبح شيخه وقطبه . وكان
 طريقه كما وصفه ، ليس بالرهيبانية وياكل الشعير والتخالة ، ولا ببقيقة
 الصناعة .. وانما هو بالصور على الاوامر ، واليقين في الهداية ..

ساح في دنيا الاسلام في القرن السابع الهجرى . ولم تكن سياحته من اجل
 تغيير هواء ، او مغامرات للتسلية .. كانت تلك السياحات هجرة الى الله . ليرى
 الرجل ، ويتزود بالزاد .

وفي سياحته ، سكن للغارات وتسلق الجبال وخاضر الصحراوات وكل
 العشب والحشائش ، كما اكل طيب الثمار .

حين زار مصر ، إهتزت الدنيا لزيارته .. وحين استقر بها في مختتم حياته ..
سكن أحد أبراج سور الاسكندرية .. وكان المريدون يتزاحمون حوله .. وحين كان
يجلس في الاسكندرية في جامع العطارين ، او يجلس في القاهرة في المدرسة
الكاملية .. يتكوب على مجلسه اكابر العلماء ، لازمين الادب والصمت ،
مصيخين السمع فاتحين العقول والقلوب .. لانهم تأكدوا بان كلامه « قريب
العهد من الله »

ثلاثة وستون عاما عاشها هذا الرجل بين ولادته في المغرب ، وموته على
ساحل البحر الاحمر .. وداخله نفس صافية ، أمنت بالله وتعمقت الايمان .

كان كما وصفوه في العلم في الغاية ، وفي الزهد في النهاية .
وكان يقول لتلاميذه ومريديه : « إنزم بابا واحدا ، تفتح لك الابواب ..
واخضع لسيد واحد ، تخضع لك الرقاب »

وحين كف بصره في اخريات حياته .. لم يعقه هذا .. لانه كما قال : قد
انعكس بصره في بصيرته ، فصار كله مبصرا .

إختارته العناية الالهية ليدعو الى الله على هدى الكتاب والسنة ويحرص
على كل مظاهر الدين القويم ، المثبت بسياج الشرع المكين الرجل هو الشريف ،
المالكي المذهب ، والقطب الغوث ، ابو الحسن الشاذلي رضى الله عنه ، مؤسس
الطريق الذي نسب اليه ، والذي تفرعت عنه عشرات الطرق .

ود الشاذلي ، معناه الحرقي هو : المفرد لخدمتي ومحبتى .



الرحلة .. طويلة ومثيرة ، كلها مجاهدة .. منذ ولد هذا القطب

في قرية صغيرة بالمغرب الاقصى اسمها « غمارة » .. القرية من سبته ، في عام
٥٩٣ الهجرى « ١١٩٦ الميلادى » .. وحتى لاقى وجه ربه في « خميثر » او
« خميثره » على ساحل البحر الاحمر بين « قنا » و « القصير » عام ٦٥٦ الهجرى
« ١٢٥٨ الميلادى »

وخلال هذه السنوات - ٦٣ عاما - كتب التاريخ دقائق حياة هذا الشريف المسلم ،
أحد أحفاد الامام الحسن بن الامام على بن ابي طالب .. رضى الله عنهم جميعا . لهث
التاريخ وراء سيرته العطرة في غمارة ، وبغداد ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وشاذله
، وتونس ، والاسكندرية ، والقاهرة . كما لهث التاريخ وراءه أيضا في الصحارى
وداخل القرى والمدن ، وفي بطون المغارات ، وعلى سفوح الجبال وقممها ، وعلى
شواطئ البحار .. وبين هذى وتلك تجمع سفر على اقيم ما يكون يضم صولات الرجل
وجولاته .. حين عقدت له الولاية والقطبانية .. وصور مجالسه العلماء والسلطين ،
وعلاقاته بالفقراء كما صور لقطات كثيرة من مجالسه في العلم والمناظرات والمناجيات .

وبقى من هذا الولي الصالح بعد موته في « خميثر » .. مريدون كتبوا شذرات
من سيرته وحياته وصلت اليها .. أهمها ماكتبه « ابن عطاء الله السكندري » تلميذ
تلميذه « ابي العباس المرسى » ..

له مقام في تونس .. كذكرى فوق جبال « زغوان »

وقبته التي تظلل جسده الطاهر في « خميثر » على شاطئ البحر الاحمر
بالاضافة الى انه ايضا له مملكة وسلطان داخل وجدان وقلوب ملايين المؤمنين
والمريدين ، والخلفاء ، والاتباع .

سيدى « ابو الحسن الشاذلى » ، رضى الله عنه وأرضاه ، ينتمى الى قبيلة
« عمران » في المغرب ، وهى ذات القبيلة التى ينتمى اليها سيدى « عبد الرحيم
القنائى » المدفون في صعيد مصر ، وهو من اسرة شريفة علوية .. هاجرت مع من
هاجروا من المشرق الى المغرب بعد مأساة كربلاء التى استشهد فيها سبط الرسول ،
عليه السلام .. الامام « الحسين بن على » في عام ٦١ للهجرة . وهذا يتضح من شجرة نسبه
التي اوردها - بعد تحقيقها - « ابن عطاء الله السكندري » في كتابه « لطفاء المن »
فهو ابو الحسن الشاذلى الحسنى : على بن عبد الله عبد الجبار بن تميم بن هرم بن
حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن احمد بن عيسى بن محمد بن
الحسن بن على بن ابي طالب . هذا من ناحية ابيه .. اما من ناحية أمه فهى تنسب الى
الامام الحسين بن على بن ابي طالب .

في قرية « غملرة » نشأ في رحلب الایملن ، ولأخذ يدرس العلوم الدينية ، وسائل وغليات - وفتح الله عليه فبرع في هذه العلوم بزيادة كبيرة ، شددت اليه - وهو حدث صغير - الانهال ..

لكنه لم يكتف بهذه العلوم - فقد أيقن ان العلوم للظاهرة ، مهما بلغت بها الدقة ، ومهما بلغ بها العمق ، لا تقضي بالنفوس الطموح الى التطلع الى عالم الغيب ، واستشراف الآله وتوابعه . والنفوس الطموح ، كلما ازدادت علما ازدادت شعورا بالنقص ، وهذا يجعلها تبحث اكثر فأكثر .. حتى ان الاجسام تتعب في مرادها ..

كانت نفس « ابي الحسن » رضى الله عنه سبلة طموح شعر بالرغبة الملحة في القرب من الله ، ولأن يستضيء قلبه بانوار المعرفة غير الموجودة في علوم الظاهر .. وصولا الى الشفائية ، واسرار الباطن .

وتسائل في نفسه : من اجل ان يتحقق هذا الهدف ، ما هي وسائله ؟

والجواب : انه لا بد ان يبدأ طريقه من خلال استئذان خير في هذا العلم الرباني . وفكر - وانتهى به التفكير الى عزمه على السفر الى « بغداد » ، محط انتظار طلاب المعرفة في وقتها لأنها تضم كبار الفقهاء ، واعلام الحنابلة ، والقسم العالية من الصوفية . كما تضم كبار الساسة والقادة للمسلمين .



وكان سيدي « ابو الحسن الشاذلي » ، قد استقر رأيه على اختيار طريق التصوف والتبصر فيه ..

وبالفعل انتهى الشاب القادم من المغرب - غرب عالم الاسلام - في « بغداد » بمجموعة من الاولياء ، وعلى رأسهم الامام « ابي الفتح الواسطي » ، امام زمانه وعلم وقته ، والذي شهد له « ابو الحسن الشاذلي » ، بتبحره حين قال : « لما دخلت للعراق ، اجتمعت بالشيخ الصالح ابي الفتح الواسطي . فما رأيت بالعراق مثله » ..

تصور هذا الشاب القادم من الغرب بقلته الطويلة ، وهو يتردد على « ابي الفتح الواسطي » ، وغره من علماء بغداد في مدارسهم وبصوالعهم وهو يبحث ويبحث ، ويفتح لفنيه لكل كلمة تقال . لقد شاهد كثيراً من الانوار على وجوه علماء بغداد ،

والصلاح يرتسم على سيمائهم .. لكته ظل قلنا في بغداد وسط هذا البحر الزاخر . تلها
في عاصمة العلم والعلماء .. ما هو السبب ؟ !

السبب - كما يقول فضيلة الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود ، في كتابه
« ابو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعرف بالله » انه لم يجد مطلبه الذي
جاء من اجله .. لم يجد القطب الذي يمكن ان يثير له « الطريق » ويلتزم بيده ..
ويبدو ان « ابا الفتح القواسمي » لاحظ عليه هذا التوتر .. ولهذا كما يقول « ابن
الصباغ » في كتابه « نورة الاسرار » قال له هذا العالم ذات مرة : « يبدو انك تبحث
عن القطب بالعراق - معني ان القطب ببلاذك .. ارجع إلى بلادك تجده » !!

هنا تنفجر أسارير الشلب ، ويذهب عنه التوتر ، ويعد لعدة لرحلة العودة إلى
بلده .. بعد ان لم يوفق في اختيار مكان للقطب ، الذي جعل معه الكبير ان يلتقي به .

ويعود الشاب من حيث أتى .. حيث يجد الرجل . والرجل هو الشيخ
« عبدالسلام بن مشيش » يسكن في مقبرة على رأس جبل ، معه تلميذه الجنيدي .

يصف « ابو الحسن » اللقاء بينه وبين « ابن مشيش » ، فيقول : « اغتسلت
باسفل الجبل ، وخرجت من علمي وعلمي . وطلعت إليه فقيرا ، ولذا به هبط
علي ، وعليه مرقعة - وعلى رأسه الكنسوة من خوص - فقال لي : مرحبا بعلي بن
عبد الجبار . وذكر نسبي إلى رسول الله ﷺ . ثم قال : يا علي .. طلعت علينا فقيرا
من علمك ومن عمالك ، فالتفت منا غني الدنيا والآخرة .. فالتفتني منه الدهش ،
فالتفت عنده اباما ، إلى أن فتح الله علي بصيرتي » .

كانت هذه هي البداية الاصطفائية : كما تقول الصوفية ، لسيدى « ابي الحسن
الشاذلي » . فقد التقى الوارث مع الورث ، أو المرید مع شيخه .

وعلى حد وصف « ابن عيناك » صاحب « المقادير العلية » . فقد كان مقام ابن
مشيش في المغرب ، كمقام الامام الشافعي في مصر .

لقد كان « ابن مشيش » - كما يقول علي سالم عمار في كتابه « ابو الحسن
الشاذلي » - متمسكا بالكتاب والسنة ، علملا بهما ، ملتزما لهما ، وهو القائل : الفضل
الاعمل أربعة بعد أربعة : المحبة لله ، والرضا بقضاء الله ، والزهد في الدنيا

والتوكل على الله . هذه أربعة . أما الأربعة الأخرى فهي : القيام بفرائض الله ، والاجتناب لمحارم الله ، والصبر عما لا يعنى ، والورع من كل شيء يلهى .

وكما يصفه صاحب « الدرر البهية » ، كان ابن مشيش الذى التقى به أبو الحسن : هو القطب الأكبر ، والعلم الأشهر ، والطود العالى السنام ، وهو البدر الطالع الواضح البرهان ، الغنى عن التعريف والبيان ، المشتهر فى الدنيا قدره ، والذى لا يختلف على « غوثيته » اثنان . فقد قضى عمره فى العبادة ، وقصد للانتفاع به أهل السعادة .

لكن .. ماذا قال « ابن مشيش » ، « للشاذلى » فى المغارة ، لكى يفتح الله عليه بصيرته ؟

من كلام « أبى الحسن الشاذلى » ، نعرف أن وصية استاذہ الاول ، تقتلخص ، فيما قال له : حدد بصر الايمان تجد الله فى كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وفوق كل شيء ، وقريبا من كل شيء ، ومحيطا بكل شيء ، بقرب هو وضعه ، وباحاطة هى نعمته . بعد عن الظرفية والحدود ، وعن الاماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب بالمسافات ، وعن الدور بال مخلوقات .. وامحق الكل بوصفه : الاول والاخر والظاهر والباطن .. كان الله ولا شيء معه .. » .

و الواقع أن المرید إنبهر بشيخه . إنبهر بعلمه المشيد على الكتاب والسنة ، وانبهر بولايته وكراماته . لقد رسم « ابن مشيش » « لأبى الحسن » الطريق ، فيما يستقبله من أيام ، ووضع فيه البذرة التى نمت وترعرعت .

وحين اغترف « أبو الحسن » من استاذہ كل ما استطاع ان يغترف .. قال له الاستاذ : يا على ، ارتحل الى افريقية ، واسكن بها بلدا تسمى « شاذله » ، فان الله عز وجل يسميك « الشاذلى » . وبعد ذلك تنقل فى مدينة « تونس » ويؤتى عليك بها من قبل السلطة ، وبعدها تنتقل الى أرض المشرق : وبها ترث القطابه .

وقد كانت آخر وصايا « ابن مشيش » لمریده ، لما حان موعد الفراق ، هى :

« يا على .. الله الله .. والنفس الناس . نزه لسانك عن ذكرهم ، وقلبك عن التمايل من قبلهم . وعليك بحفظ الجوارح واداء الفرائض . وقد تمت ولاية الله عندك . ولا تذكرهم الا بواجب حق الله عليك ، وقد تم درعك » .

وهنا يفترق « أبو الحسن » عن استاذة ، ويسير في طريقه المرسوم .. حتى ليقول مؤرخوه ، ان كل ما قاله « ابن مشيش » « لأبي الحسن » وكل ما توقعه قد تحقق .

حث « أبو الحسن » الخطى الى « شاذله » .. وصعد هناك الى جبل « زغوان » .. وصعود الجبل هنا - كما أراه - يرمز الى بداية علومقدار سيدى « أبى الحسن » . أى أنه بدأ الطريق المتصاعد .

وقد وافق « أبا الحسن » في صعود الجبل ، « أبو محمد عبدالله بن سلامة الحبيبي » ، من اهل « شاذله » ، وكان رجلا تقيا صالحا .

ويفسر د . « عبدالحليم محمود » هذه الرحلة الى الجبل .. ويعود بها الى فائدتين بالنسبة لأبى الحسن الشاذلى :

الفائدة الاولى : هى اتاحة الفرصة لتفرغه للعبادة . ولابد من هذا التفرغ مادام الانسان لم يأت الاذن بالدعوة . لابد من التفرغ ، لاستكمال نقص ، او للبعد عن الفتنة او للتغلب على آثار هوى . ولابد من هذا التفرغ استجماما روحيا ، وعلاجاً نفسيا ، وبعثا لكوامن الفضائل ، ولابد للتفرغ ليرقى مدارج السالكين ، وليحقق العروج فى مدارج القدس ، وليسرع الخطى متدرجا فى منازل الارواح ، ولابد من التفرغ ، فرارا الى الله « ففروا الى الله » و .. « وعجلت إليك رب لترضى » .

اما الفائدة الثانية : من الذهاب الى جبل زغوان ، فانها منع اللاهين المتطفلين من الجلوس على مائدة الشيخ الروحية . ذلك انه سوف لا يذهب الى جبل زغوان لرؤيته الا محب للمعرفة ، جاد فى طلبها .

والواقع ان سيدى « أبا الحسن » أخذ يتعبد فى الجبل فترة طويلة ، وكان الوحيد معه فى هذه الفترة ، الشيخ الصالح « أبو محمد الحبيبي » .

وكانت حياتهما فى الجبل على نبات الأرض وأعشابها ، حتى انه كثيرا ما كانت اشداق « الحبيبي » تتقرح ، فيشفق عليه « أبو الحسن » ويهبط من الجبل الى « شاذله » ليجد له الغذاء الذى لايفريه . ويقال ان سيدى « الحبيبي » قد شهد فوق الجبل من استاذة احوالا ومقامات كثيرة .

وحياة كهذه ، كما يرى د . « عبدالحميد محمود » ، لا بد لها من أن تتم . لا بد لها من ثمارها من الكرامات ، ومن شفافية النفس ، ومن القرب من الله ومن رضوانه سبحانه ، ويقال إن الله سبحانه أتبع لسيدى « أبى الحسن » وسيدى « الحبيبي » في الجبل عينا تجرى بماء عذب ليشرها منها .. وهذا ليس بغريب في مثل هذه الحالة .

إن المريدين الصادقين ، في أول طريقهم إلى الله - كما يرى الإمام « الغزالي » في « المنقذ من الضلال » ، تتبدى لهم المكشفات والمشاهدات ، حتى أنهم لا يفتقدون إشهادون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منها أصواتا ، ويقتبسون منها فوائد .. وهذا وأكثر منه حدث « لأبى الحسن » .. روى سيدى « أبو محمد الحبيبي » .



وتنتهى فترة العزلة ، فترة التدريب والصقل الروحي ، لينزل « الشاذلي » من جبل زغوان إلى تونس ، حين سمع النداء : « يا علي : اهبط إلى الناس ، ينتفعوا بك » . وفي « تونس » سكن « الشاذلي » في مسجد « البساط » دارا تفتح للقبلة .

والحقيقة التاريخية ، أنه بمجرد أن دخل « تونس » ، التف حوله جماعة من الفضلاء ، ومنهم الشيخ أبو الحسن علي بن مخلوف الصقلي ، وأبو عبد الله الصابوني ، وأبو محمد عبدالعزيز الزيتوني ، وأبو عبد الله البجائي الخياط ، وأبو عبد الله الجارحي . هؤلاء كلهم ، ومن بينهم الشيخ ماضي أبو العزائم تلميذ الشيخ وخادمه - كما وصفهم ابن الصباغ - أصحاب كرامات ومكاشفات .

ويوما بعد يوم كثر المريدين حتى اجتمع على أبى الحسن خلق كثير ...

وفي « تونس » أيضا .. دخل أبو الحسن علي « أبى سعيد الباجي » ، رحمه الله ، فأخبره بحاله قبل أن يبديه « أبو الحسن » وتكلم عن سره .. حتى أن « أبا الحسن » وصف هذا الشيخ بقوله : « فعلمت أنه ولي الله تعالى ، فلازمته وانتفعت به كثيرا » .

لكن كثرة المريدین أوغرت صدر قاضی قضاء تونس « ابن البراء » ، مما جعله يحقد علی « ابي الحسن » ، ويعلم الحرب علیه ويكيد له . وكان « ابن البراء » فی تونس فقیها ، ويعتبر نفسه زعیما بلا منازع فی عهد السلطان « ابي زكريا » . كان يتخیل ان له شعبية ، مع ماله من منصب رسمي . وصوره خیاله المریض ، ان « ابا الحسن » إنما جاء « تونس » لينتزع منه جاهه وزعامته .

وقال « ابن البراء » للسلطان : - ان ملكك فی خطر من هذا الرجل . ويبدو ان « ابا زكريا » اراد ان يتحقق من كلام قاضی القضاء ، فجمع كوكبة من الفقهاء فی « القصبة » وجلس هو خلف حجاب يسمع ما يقوله « ابو الحسن » وما يقولونه له . وقد خرج « ابو الحسن » من هذا الامتحان شیخا مهیا ، وان كان لا يزال فی شرح الشباب والفتوة . شعر السلطان - ومعه الفقهاء - فی كلام « ابي الحسن » ، نضجا فی العلم والتفكير ، وروحانية فی الحديث ، وشفافية فی البصيرة . ولذلك قال « لابن البراء » : هذا رجل من اكبر الاولیاء ، وملك به طاقة .

لكن « ابن البراء » لا يستسلم ، ويلوح للسلطان بالخطر علی عرشه من « ابي الحسن » ، ويقول له : « والله لئن خرج فی هذه الساعة ، ليدخلن عليك اهل تونس ، ويخرجونك من بین اقلهم ، فهم مجتمعون علی بابك » .

ويخاف السلطان ، فيستبقى « ابا الحسن » ، ويأتين للفقهاء بالخروج . هنا يجلس « ابو الحسن » ساكنا هادئا ، ويطلب ماء وسجادة ، فيتوضأ ويصلي .

لكن تحدث أشياء فی قصر السلطان . تموت جاريته للفضلة لديه . ثم بينما هو يسير فی جنازتها تحرق النار كل مال قصر السلطان . وهنا - كما يقول الدكتور « عبدالحمید محمود » - يدرك السلطان انه لصیب من قبل هذا اللوی .

وفي رواية أخرى ، يقولون ان السلطان حين ابقى « ابا الحسن الشاذلي » جاءه أحد طلابه يبكي ، فقال له « ابو الحسن » : والله لولا انی اتأدب مع الشرع ، لخرجت من هنا ومن هنا . وأشار بيده . وكلما أشار إلى جهة انشق الحائط . ثم قال لمريده : إئتني بإبريق وسجادة ، وسلم علی أصحابی ، وقل لهم ما نقيب عنكم الا اليوم ، وما نصلی المغرب الا معكم ، ثم تأتي بقية القصة التي ذكرناها ...

ومن عجب أن أخا السلطان ، وكان من مريدي « أبى الحسن » كان قد خرج إلى أطراف المدينة لقضاء بعض الوقت ، فلما عرف بما حدث للشيخ غضب على أخيه السلطان ، وأخذته إلى « أبى الحسن » ، ليسترضيه .

لكن ماذا عن « ابن البراء » ؟ . يقولون أنه في أخريات حياته منى بالكثير ، ولم يختم له بخير . إذ أن « ابن البراء » لم يكف عن الإيذاء ، حتى كان « أبو الحسن » يقابله ويلقى إليه السلام فلا يرد عليه .. وكان « أبو الحسن » أيضا يقابل الإساءة بالمعروف والصنفح ..

عزم « أبو الحسن » على أداء مريضة الحج ، فأمر أصحابه بالنقلة إلى المشرق قبل موعد الحج بزمان طويل لنتاح له فرصة يمكث فيها بمصر فترة ، قبل الذهاب إلى الديار المقدسة . ولما علم السلطان « أبو زكريا » بعزم « أبى الحسن » على الرحيل ، ذهب يرجوه العودة بعد الحج . وقد وعده « أبو الحسن » ، وقال له : ماخرجت إلا بنية الحج أن شاء الله ، ولكن إذا قضى الله حاجتي أعود أن شاء الله . ونهضت تونس تودع الشيخ وركبه .

لكن قبل أن يدخل « أبو الحسن » وأصحابه « الاسكندرية » ، كان قد سبقه عقد من « ابن البراء » إلى سلطان مصر ، يقول فيه إن القادم اليكم شوش علينا بلادنا ، وكذلك يفعل في بلادكم . وهذا العقد موقع عليه من شهود ولذلك فبمجرد أن نزل « أبو الحسن » الاسكندرية ، حددوا إقامته هناك .

على أن « أبى الحسن » لم يعبأ بذلك ، حتى أنه حين أتى إليه بعض العربان يشكون له جور السلطان ، وعدهم خيرا . وقد خرج « أبو الحسن » من « باب سدره » يقصد السلطان بالقاهرة ، أمام جند الحراسة .. دون أن يشعروا به وبرجاله . وفي القاهرة ذهب « أبو الحسن » إلى القلعة ليلتقى بالسلطان .. الذى قال له : جئت تشفع في القبائل .. اشفع في نفسك ؟ وأطلعته على خطاب « ابن البراء » إليه .

وتقول الرواية أن أبى الحسن رد على السلطان بقوله : « أنا وانت والقبائل في قبضة الله » . ثم قام ومشى قدر العشرين خطوة . فلما حركوا السلطان لم يتحرك أو ينطق .. فهرولوا على الشيخ يقبلون يده ويطلبون الصنفح . فرجع إلى السلطان وحركه فتحرك . وهنا ينزل السلطان من على كرسیه معتذرا لأبى الحسن ، ويكتب لوالیه على الاسكندرية أن يرفع الغبن عن القبائل ، ويرد اليهم جميع ما أخذ منهم .

لم يمكث « أبو الحسن » كثيرا بالقاهرة .. وانما واصل الرحلة الى الحج حيث ادى الفريضة ، وقام بزيارة رسول الله ﷺ ، ويقول « ابن الصباغ » ، إن « أبا الحسن » حين قدم الى المدينة ، وقف على باب الحرم من أول النهار الى نصفه عريان الرأس حافي القدمين ، يستأذن رسول الله ﷺ . فسئل لماذا ؟ فقال : حتى يؤذن لي . ثم سمع النداء فدخل . ووقف خاشعا أمام الروضة الشريفة يصلي ويسلم على رسول الله .. كما يصلي ويسلم على أبي بكر وعمر ...



وبعد رحلة الحج عاد الى تونس .. حيث لم تهدأ فيها ثورة « ابن البراء » عليه بل انها - كما يقول الدكتور « عبدالحليم محمود » - زادت بنسبة زيادة انوار الشيخ ، وزيادة اتباعه !

وفي تونس هذه المرة التقى بـ « أبي العباس المرسى » . وحينما رآه قال قولته الشهيرة : « ما ردفني إلى تونس الا هذا الشاب » .. يعنى هذا أنه كان زاهدا في العودة . ولذلك فبعد ان عثر على خليفته .. استمر الشيخ لايبالي بمكانه « ابن البراء » حتى اذن له بالسفر الى الديار المصرية .. بعد أن رأى النبی ﷺ في المنام يقول له : « يا علي انتقل الى الديار المصرية ، تربي فيها اربعين صديقا » .

في الاسكندرية اقام الشيخ ببرج من أبراج السور ، حبسه السلطان عليه وعلى ذريته تبركا ، وقد تزوج الشيخ من الاسكندرية ، وانجب ذرية صالحة . وقد عاش في الاسكندرية ، هادئ النفس منقطعا لعبادته ودعوته . وفي خطاب بعثه إلى بعض أصحابه يصف « أبو الحسن » مقامه في الاسكندرية ، يقول : « الكتاب اليكم من الثغر حرسه الله ، ونحن في سوايغ نعم الله نقلاب .. واما الاهل والاولاد والاصهار والاحباب ، ففي سوايغ نعم الله يتقلبون ، وبإحسانه ظاهرا وباطنا مغفورون » .

لقد كانت اقامة « أبو الحسن » في مصر ، مصداقا لما نودى به حين دخلها : يا علي ، ذهب ايام المحن ، واقبلت ايام المنن . عشر بعشر ، اقتداء بجدك ﷺ .

وكانت مصر تعتر حينئذ بمجموعة من أكرم العلماء ، وأفضلهم علما وخلقا وصلحا ، مجموعة وهبت نفسها لله وأسلمت قيادها له ، فأحاطها الله بعنايته وتكفلها برعايته . وقد استقبلت هذه المجموعة « أبا الحسن » أجمل استقبال ، ورافقته متملذة عليه ومتأخية .. وتيسرت السبل ليقوم « أبو الحسن » بدعوته في الكثير من مدن مصر . وكان يحضر مجلسه اكابر العلماء من أهل مصر ، ويرافقونه في جولاته ،

مثل العز بن عبدالسلام وبقى الدين ابن دقيق العيد ، وعبدالعظيم المنذرى ، وابن الصلاح ، وابن الحاجب ، وجمال الدين بن عصفور . ونبيه الدين بن عوف .. وغيرهم .. وهؤلاء كانوا - على الأخص - يواظبون على حضور درسه بالمدرسة الكاملية بالقاهرة ملازمين الادب ، مصيخين له ، متلمذين عليه .

كانت اقامة الشيخ في مصر .. فترة خصبة من حيث الدعوة ، ومن حيث الرجال . وفي اخريات حياته إمتحنه الله بكف بصره ، ولكنه استقبل الدنيا بالرضا والتقبل . وصور ذلك بصورة رائعة حين قال لتلميذه أبى العباس المرسى : « لقد انعكس بصرى في بصيرتى ، فصرت كلى مبصرا » .

وقبل أن يلقي ربه .. كان يخرج الى الحج في كل عام . وفي طريقه الى الحج آخر مرة ، وعند قنا ، قال لخادمه : استصحب قاسا وقفه وحظوظا ، وما يجهز به الميت ، وفي خميثرًا سوف ترى . ولما أحس الشيخ بدنو أجله : أوصى أصحابه بأشياء ، كما أوصاهم بحزب البر ، وقال لهم : « حفظوه لأولادكم ، فإن فيه اسم الله الأعظم » .

وفي ليلة وفاته .. أعطى القطبانية « لأبى العباس المرسى » ، ولم يعطها لواحد من ابنائه . ثم بات ليلته متوجها الى الله تعالى ذاكرا .. وكان أصحابه يسمعون وهو يردد « الهى .. الهى » .. فلما كان السحر سكن ، ولفظ أنفاسه . فجاء « أبو العباس » ، وغسله وكفنه ، وصلى الجميع عليه .. ثم استأنفوا رحلة الحج بتنفيذ الوصية ..

وفي موت الشيخ .. حدث حادث جلل في بلاد الإسلام ، فقد هجم « القتار » على عاصمة الخلافة الإسلامية .. بغداد .. وقتلوا الخليفة وذبحوا المسلمين ، وحرقوا مكتبة بغداد الزاهرة ، وألقوا بكتبتها في نهر « دجلة » وكانت محنة في عالم الاسلام .

.. فهل هناك خيط يربط بين صعود روح أبى الحسن الشاذلى الى الملأ الأعلى ، وبين حادث بغداد ؟ .. ربما ، وهذا يحتاج لتعليل .

دخل على « أبى الحسن » فقير « صوفى » ، وعليه لباس من شعر . وأمسك الاعرابى بملابس « أبى الحسن » ، وقال له : « ياسيدى .. ما عبد الله بمثل هذا

اللباس عليك . - يقصد لماذا لا يلبس « أبو الحسن » الخشن من الثياب . ولا عبد الله
بمثل هذا اللباس عليك ، لئلا يقول : أنا غني عنكم فلا تعطوني . ولباسك يقول :
أنا فقير اليكم فاعطوني .

وكما يعقب « ابن عطاء الله السكندري » في « لطائف المنن » على هذه الواقعة
فيقول : وهكذا طريق الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضى الله عنهما ، وطريقة
أصحابهما . الإعراض عن ليس زى ينادى على سر اللباس بالإفشاء ، ويفصح عن طريقه
بالإبداء ، ومن لبس الزى فقد ادعى .

وليس معنى ذلك أن الشاذلية تنتقد أزياء الفقراء ، وإنما لاحرج على هذا الزى « ما
على المحسنين من سبيل » .

وفي إحدى المرات أراد « أبو العباس المرسى » ، أن يأكل الخشن ويلبس الخشن .
فقال له شيخه أبو الحسن : « أعرف الله وكن كما شئت .. ومن عرف الله فلا عليه أيضا
إن أكل هنيئًا وشرب مريضًا » .

ومن كلام « أبي الحسن » المشهور عنه : يا بني برد الماء .
وفلسفة أبي الحسن من أخذ من الطيبات تتضح فيما يقوله لريده : « يا بني برد
الماء ، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله ، تقولها بكزارة . وإذا شربت الماء
البارد فقلت الحمد لله ، استجلب كل عضو منك بكحمد الله » .

وهذه الفلسفة ، في الواقع ، تهدف إلى إتاحة الأسباب لكل مسلم إلى أن يؤدي حق الله
تأدية على أكمل وجه .

ولذلك يقول الأستاذ « سالم عمار » في كتابه : « كان الشاذلي يلبس الفاخر من
الثياب ، ويركب الفاره من الجياد ، ويتخذ الخيل الجياد » . « والله جميل يحب
الجمال » .. ويجب أيضا أن تظهر نعمته عليكم .

والمهم أن مذهب « الشاذلية » ، لكل من يتعمق ويتقصى في تتبعه ، هو الاعتدال .. ولا
اسراف . ويقول « أبو الحسن » : « لا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها ، أو تنحل
أعضائك لها فتخرج لمعانقتها بعد الخروج منها بالهمة أو بالفكرة أو بالإرادة أو
بالحركة » .

وكان لهم الأكبر « أبي الحسن » ، كما يرى سيدي « عبد الوهاب الشعراني »
في « طبقاته » أنه جهد جهادا شاقا .. من أجل الفناء في اختياره مع الله .. ومن أجل

الوصول الى هذه المرتبة ، التى لايتأتى أن ينالها فى بدء حياته السائرة الى الله . وانما يأتيتها بعد المجالدة ، وتواصل الجهد والاجتهاد .

ولقد كان الجانب العلمى من العناصر الأولى ، التى حددت شخصية « ابو الحسن » وفى نفس الوقت ، فان مجموع جهوده فى هذا المجال تدلل على ما ذكرناه . لقد بدأ الدراسة والتحصيل صغيرا . تتقف على الطريق العادى فحفظ القرآن ودرس السنة كما درس العلوم الدينية . وتدرج فى هذه العلوم سلما وراء آخر .. ثم أخذ يختار الكتب التى يدرسها ويشرحها وينصح بقراءتها لمن يريد أن يصل .

ومن الكتب التى كان « ابو الحسن » يعيش معها وفيها ويهتم بها كما يقول د . عبد الحليم محمود :

١ - كتاب « ختم الاولياء » للحكيم الترمذى . وهو الكتاب الذى اقام الجو الثقافى عند صدره ، وكان سببا فى صعوبات كثيرة واجهها مؤلفه ، بسبب الآراء التى احتوى عليها . وقد بلغ هذا الكتاب فى اهميته ، حتى أن محبى الدين بن عربى ، افرد له كتابا خاصا ، وصفحات آخر فى كتابه « الفتوحات » ... حاول فيها أن يجيب عما ورد فيه من أسئلة وقضايا وكان « ابو العباس المرسى » لاهمية هذا الكتاب بالنسبة اليه خاصة ، والصوفية بعامة .. يحرص على حضور دروس « الشاذلى » وتفسيراته فى موضوع هذا الكتاب .

٢ - كتاب « المواقف والمخاطبات » للنفرى . وهو كتاب فريد فى بابيه . فهو يعبر عن حالات روحية عالية .. لايتأتى لغير ذوى الاذواق العالية فهم الكثير منها . ولهذا كان أبو الحسن دائما يحاول التيسير على تلاميذه .. بفتح مغاليق هذا الكتاب ، لكل من يعزم على استشراف عالم الحكمة .

٣ - كتاب « قوت القلوب » لابن المكى . وهو الكتاب الذى وصفه أبو الحسن وصفا يدل عليه ، اذ قال عنه انه « يورث النور » .

٤ - ومثله كتاب « الإحياء » .. للامام الغزالى .. وهو يورث العلم .

٥ - الرسالة القشيرية .. وفيها ما فيها من أبواب ، مثل الجهاد والحرية وكل ما يهم المسلم الصحيح .

٦ - وكتاب « الشفاء » للقاضى عياض .. وهو الكتاب البلسم .

٧ - وكتاب « المحرر الوجيز » لابن عطية .. ويعرفه أغلب الصوفية .

كان العلم عند « أبى الحسن » من عناصر شخصيته .. لدرجة أنه اعتبر الجهل به ، والرضا بهذا الجهل من الكبائر ، لهذا فمن المحاذير عند الشاذلية « لاكبرية عندنا أكبر من اثنين .. حب الدنيا بالإيثار ، والمقام على الجهل بالرضا » .. لأن حب الدنيا أساس كل خطيئة ، والمقام على الجهل أصل كل معصية .

لقد أفاض المؤرخون والكتاب والأدباء والشعراء في علم « أبى الحسن الشاذلى » وسياحاته ومجاهداته ، بل مجالداته في تحصيله من كل مصادره وأشادوا أيضا بأصالته « أبى الحسن » وعمقه . فان « ابن عطاء الله السكندرى » يصف « أبا الحسن » بأنه في علوم المعارف الإلهية كان قطب رحاها وشمس ضحاها ، كما كان عالما عارفا بالعلوم الظاهرة . جامعا لدقائق فنونها ، ومقتضا لأبكار المعانى .. !

« ابن عباد » صاحب المفاخر العلية يصفه بأنه هو صاحب الإشارات العلية والعبارات السنية . جاء في طريق القوم بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب الذى جمع بين العلم والحال أو الهمة والمقال . وتخرج بصحبته جماعة من الأكابر ، مثل أبى العباس المرسى ، وأبى العزائم ماضى .. وغيرهما .

والامام « البوصيرى » يصف « أبا الحسن » بأنه « بحر العلم » وقال فيه قصيدة تعبر عن ذلك ، نجتزئ منها هذه الأبيات التى تقول :

أما الامام الشاذلى طريقه
في الفضل واضحة لعين المهتدى
قطب الزمان وغوثة وإمامه
عين الوجود لسان سر الموجد
ساد الرجال فقصرت عن شأوه
همم المآب للعلا والسؤدد
أوما مررت على مكان ضريحه
وشممت ريح الند من قرب ندى
ووجدت نعظيما بقلبك لو سرى
في جلمد سجد الورى للجلمد
فقل السلام عليك يا بحر الندى
الطامى وبحر العلم ، بل والمرشد

الصوفية ، ليست انعزالا ، وليست خوفا من الموت . وهي ليست كسلا وتواكلا ، كما يحاول أعداء الإسلام أن يشيعوا عنها ذلك . إنها ببساطة عكوف على العبادة الأصلية تستهدف مرضاة الله ، ومرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إنها المعرفة والتوحيد .

وكما يرى « ابن خلدون » في التصوف ، فهو يقول : وأصله العكوف على العبادة والانتقطاع الى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والافتراء عن الخلق للعبادة . كان ذلك عاما في الصحابة والسلف .. ولما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده . وجنح الناس الى مخالطة الدنيا ، إختص المقلبون على العبادة باسم الصوفية ..

ويقول الدكتور محمد مصطفى حلمي ، رحمه الله : إن التصوف علم الاخلاق وعلم النفس كذلك .. كما كان الإمام الغزالي يقول عن التصوف : إنه يؤدي الى السعادة ، التي وعد الله المتقين بها ، وهي المعرفة والتوحيد .

ويقول احمد توفيق عياد في كتابه « التصوف الإسلامي » : إنه فلسفة الإسلام الدينية ، وهو أقوى للحركات الروحية في تاريخ التمدن الإسلامي وتطور العقلية الإسلامية .

فالصوفية إذن عمل ، وعمل دائم ومتواصل ..

وهي كفاح وصبر وجهاد . كما أنها عزة نفس

وهي هجرة دائمة الى الله

وهي كذلك تدريب النفس على العبودية ، وردها لاحكام الربوبية ، كما يقول

« الشاذلي » .

وحياة « أبي الحسن » وعلمه .. قد ظهرت ، وكأنها معول يهدم ما بينه أعداء التصوف من شبهات حوله . ويستدل « عبد الحليم محمود » على ذلك بما حدث أيام جاء « أبو الحسن الشاذلي » ليقيم في مصر . لقد كان وجود أبي الحسن في مصر ، في منتصف القرن السابع الهجري ، عاملا هاما في تصحيح المفاهيم الخاطئة التي رسخت عن الصوفية والطريق ، ويأتي الاستدلال على ذلك .. مما قاله الشيخ مكي الدين الأسمر ، بعد أن شاهد أبا الحسن وجلس اليه واستوعب فكره ورسالته ، يقول الشيخ مكي الدين الأسمر : « مكثت أربعين سنة يشكك على الأمر في طريق القوم ، فلا أجد من يتكلم عنه ، أو يزيل عني إشكاليه .. حتى ورد الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، فأزال عني كل شيء أشكك على .. أنهم يدعون الى باب الله . وأبو الحسن يدخلهم على الله تعالى ،

لقد جاء « أبو الحسن » بالصحيح ، وغير المفاهيم النخاطنة عن الصوفية والطريق .



ولقد عاصر « أبو الحسن » عصر « الظاهر بيبرس » ، وهو عصر تهددت فيه مصر بجيوش الصليبيين في أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري . وكانت حملة الصليبيين بقيادة « لويس التاسع » ملك فرنسا ، قد احتلت مدينة دمياط ، وتعد العدة لاحتلال المنصورة في الطريق إلى القاهرة . وهبت مصر تستعد لدفع الخطر الصليبي ، وتجهز الجيوش للملاقاة .. في المعركة الفاصلة التي أعد لها الظاهر بيبرس ، الذي لم يكن يغمض له جفن ، ولا يذوق النوم إلا غرارا .

.. وقد كان جند المسلمين في المنصورة على روح معنوية عالية ينتظر ملاقاته جيوش أوروبا الصليبية . والروح المعنوية التي علت ، لم تأت فقط لأن الجنود كانوا يشعرون أنهم تحت قيادة قائد همام ... وإنما جاءت كذلك بفضل طريق آخر هو « التعبئة المعنوية » ، مفهوم العصر الحديث . والتعبئة المعنوية من اختصاص الطعام والأولياء ورجال الله . وكانت مصر وقتها تضيء بشعوس الكثيرين منهم ، وعلى رأسهم العزيز عبد السلام ، ومجد الدين القشيري ، ومحيى الدين بن سراقه ، ومجد الدين الأحمي .. وأبو الحسن الشاذلي بالطبع .. وغيرهم كثير .

هؤلاء العلماء لم يقعدوا في بيعة وصوامعهم بعيدا عن الخطر ، وإنما هبوا للجهاد في سبيل الله . هاجروا إلى قلب المعركة ، إلى المنصورة ، ليكونوا وسط الجنود . ومع أن أبا الحسن الشاذلي كان قد كف بصره ، وإيمانه بأن الإسلام دين كفاح وجهاد - كما يقول على سالم عامر - فقد ظل مع قرنته من العلماء يسرون بالفتح وسط الجند بسمتهم الملائكي ، يحثونهم على الجهاد ويبيرونهم بإحدى الحسنيين : النصر أو الجنة .

هذا في أوقات النهار ..

أما في الليل فقد كان لهؤلاء العلماء الأفاضل عمل آخر . كانوا يجتمعون في مجلس بإحدى الخيام ، يتعبدون ويتجهون إلى الله بدعائهم وصلواتهم يلتمسون منه النصر ، فإذا ما فرغوا ظلوا يتدارسون الكتب .. كانوا في الواقع جندا بالنهار وجيشا بالليل .

وفي إحدى الليالي وكانوا يتدارسون « الرسالة القشيرية » .. وفيها ما فيها من أبواب ، مثل باب الحرية ، وباب الفتوة .. وهم مشغولون بالمعركة إذ يقص عليهم

« أبو الحسن » رؤيا شاهدها حول حالة المسلمين في المنصورة وملخص هذه الرؤيا ، أنه رأى « فسطاطا » لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن الرسول عليه الصلاة والسلام قال له : لا تهتم كل هذا الهم من أجل ثغر دمياط .. وطمانه بأن النصر حليف المسلمين ..

وبالفعل كان نصر المسلمين المؤزر في معركة المنصورة . وتم أسر « لويس التاسع » وكبار قادة الحملة الصليبية . وقد وضع « لويس » أسيرا مكبلا بالقيود في دار « ابن لقمان » - الشهيرة - بالمنصورة ، التي خلدها الشاعر « ابن مطروح » بقصيدته العصماء .

والمواقع أن الصوفية كان لهم دور كبير في معارك الجهاد الإسلامي .. كانوا دائما يعلنون بقدرسية الجهاد في ساحات القتال .. لأن الجهاد من الفضائل الكبرى . وصديق « أبو الحسن الشاذلي » حين قال : « من ثبتت ولايته من الله ، لا يكره الموت » . وبالفعل فإن الصوفي الحق هو الذي يستشهد في سبيل عقيدة الاسلام ، وفي سبيل رفع راية الاسلام عالية خفاقة ..

ومثل الكفاح في الحروب .. يتوازى الكفاح في العمل . كان شيوخ الصوفية يكرهون المريد المتعطل ، والمريد الذي يسأل الناس .. وكانوا يحثون على طريق ابواب العمل .. فالمؤمن المجاهد ، خير من المؤمن القاعد .. ولهذا كانت حياة « أبو الحسن » نموذجا لمريديه . فقد كان يعمل بالزراعة على نطاق واسع في ثلاثة مواقع .. وكان يربى حيوانات الحرث والدرس . وكان دائما يقول لمريديه : « عليكم بالسبب ، وليجعل احدكم مكوكه سبحته » .. أى عليكم بالعمل والسعى وراء الرزق ، وليجعل احدكم تحريك اصابعه في الخياطة أو الضفر سبحته ..

ومع العمل كانت عزة نفس المؤمن : « وله العزة ولسوله وللمؤمنين » . ومن هنا ما أثير عن « أبي الحسن » - كما جاء في كتاب علي سالم عمار - من أنه كان يلبس فاخر الثياب ويركب فاره الدواب ، ويقتنى الخيل الجياد . فلباس الفقري نادى على صاحبه بالفقر ، كأنه يقول للناس اعطوني . وواجب الصوفي أن يكون عزيز النفس بالله ..

والصوفية ليست رهبنة إنعزالية .. يقول « أبو الحسن » : « ليس هذا الطريق بالرهبانية ، ولا باكل الشعير والنخالة .. وإنما هو بالصبر على الاوامر واليقين في الهداية » .

ولقد أضاف « الشاذلي » للصوفية شيئا آخر .. هو ضرورة السعى في مصالح الناس . ولهذا لم يكن يتورع أو يقعد عن نجدة مظلوم . ومن أجل ذلك كثرت شفاعات « أبي

الحسن « عند الأمراء والسلاطين للذين لاجاه لهم وللضعفاء وذوى الحاجات على مختلف ألوانهم ، وحتى الطلبة منهم . صار هولهم محاميا وشافعا ومدافعا . حتى أنه من كثرة شفاعاته ومدافعاته - كما يقول « ابن دقيق العيد » - جهل ولاية الأمور بقدر الشيخ .. »

وكان أبو الحسن - كما روى عنه - قبل أن يتشفع في مظلوم أو فقير ، ويمشى في شفاعته يردد دائما : « اللهم اجعل مشيى اليه - الى من عنده الشفاعة - تواضعا لوجهك وابتغاء لفضائلك ونصرة لك ولرسولك ، وزيني بزينة الفقراء المهاجرين ، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون »

وطريقة التشفع هذه عند « أبي الحسن » .. يمكن أن يكتب عنها كتاب للشفاعات فهي شفاعات الصدق . فهو مثلا حين يقول « وزيني بزينة الفقراء المهاجرين » .. يطلب من الله أن يكون في حالة المتشفع ، وهو سائر الى الشفاعة .. حتى يحس بإحساسه وتكون شفاعته على أكمل وجه .. وهكذا .

وهو يطلب من الله أن يكون متواضعا هادئا في عرض الشفاعة .. حتى لا تنقلب الشفاعة الى ضدها فيتخذ السلطان من الفقير موقفا أقسى مما اتخذ .

وهو كذلك ... حينما يسير الى الشفاعة .. يسير الى نصرة الحق ...

ومن واجب كل مسلم أن يهب لهذه النصرة .. والاصر متقاسما عن واجب ، وهذا ليس من الخلق الاسلامي في شيء ..

ولا يعتقدن أحد .. أن أبا الحسن - على كثرة ما قام به من شفاعات ... أنه قام بها للسمعة وللشهرة .. فهم يقولون إنه قبل أن يتشفع كان يتحرى الدقة ويدرس قضية المتشفع .. ويرصد الأحوال ، ويختار الحال المناسب ... وهكذا .

يخصص الإمام الأكبر ، الدكتور « عبد الحليم محمود » في كتابه عن أبي الحسن ، فصلا عن « جو » أبي الحسن الروحي .. حاول أن يعطى فيه للقارئ صورة تعب هو في رسم أطرها لقلّة المصادر عن أبي الحسن . فقد كان أبو الحسن عندما يسأل : أين كتبك ؟ .. يجيب : « كتبى أصحابى » . لكن الصحاب يعيشون حياة ، والحياة تنتهى والتاريخ لا يسجل الا المكتوب بين الصحائف ...

ومما يذكر الدكتور « عبد الحليم محمود » عن « أجواء » أو « اشارات » سيدي
« ابي الحسن الشاذلي » ، اليك بعضاً منها ، وهي بالاضافة الى انها تقترب من فكر ابي
الحسن وحياته ، فهي ايضا تعتبر هاديا ومرشدا للمسلمين في جميع العصور . ومن
هذه « الاجواء » .. او « الاشارات » :

● سئل ابو الحسن ، رضى الله عنه عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » .. فقال
« النقص لما انبرم » .

●● قال ابو الحسن :

- أن أردت الصدق في القول ، فأكثر من قراءة « انا انزلناه في ليلة القدر » .
- وأن أردت الاخلاص في جميع أحوالك ، فأكثر من قراءة « قل هو الله أحد » .
- وأن أردت تيسير الرزق ، فأكثر من قراءة « قل أعوذ برب الفلق » .
- وأن أردت السلامة من الشر ، فأكثر من قراءة « قل أعوذ برب الناس » .
- إذا كثرت عليك الخواطر والوساوس ، فقل : سبحان الملك الخلاق « أن يشأ
بذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما لك على الله بعزيز » .

● إذا أثقل الذكر على لسانك ، وكثر اللغو في مقالك ، وانبسجت الجوارح في شهواتك ،
وانسد باب الفكرة في مصالحتك ، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك ، أو لكون إرادة التفائق في
قلبك . وليس لك طريق إلا التوبة والاصلاح والاعتصام بالله ، والاخلاص في دين الله تعالى ،
الم تسمع قوله تعالى : « إلا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله ، وخلصوا دينهم
له ، فأولئك مع المؤمنين » .

● اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم ، فإن شرهم يصيبك في بدتك وخيرهم
يصيبك في قلبك ، ولأن تصب في بدتك خير من أن تصاب في قلبك .

● من سوء الظن بالله ، أن يستنصر بغير الله من الخلق . قال تعالى : « من كان يظن
أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع ، فلينتظر هل
يذهبن كيده ما يغيث » .

● من التفلق : التظاهر بفعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك .

● ومن الشرك بالله : اتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله .

قال الله تعالى : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ألا تتذكرون » .

● مراكز النفس اربعة :

مركز للشهوة في المخالفات

ومركز للشهوة في الطاعات

ومركز في الميل الى الراحة

ومركز في العجز عن أداء المفروضات

« فاقبلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة فخلو سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » .

● العارف ، من عرف شدائد الزمان في اللطف الجارية من الله عليه ، وعرف إسائة نفسه في إحسان الله اليه : « فاذكروا الله لعلكم تفلحون » .

● إلق بنفسك على باب الرضا ، وانخلع عن عزائمك وارادتك حتى عن توبتك بتوبته . قال الله تعالى : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » .

● إن أردت أن تتظر ببصر الايمان والايقان دائما ، فكن لنعم الله شاكرا ويقضائه راضيا « ولبيكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجارون » .

● العلوم التي وقع الثناء على أهلها وإن جلت فهي ظلمة في علوم ذوي التحقيق ، وهم الذين غرقوا في تيار بحر الذات ، وغموض الصفات . فكانوا هناك بلا هم ، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الانبياء والرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، في أحرالهم .. فلهم فيها نصيب على قدر إرثهم من مورثهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الانبياء » ، عليهم الصلاة والسلام ، أي يقومون مقامهم على سبيل العلم والحكمة ، لأعلى سبيل التحقيق بالمقام والحال . فإن مقامات الانبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، قد جلت أن يلمح حقائقها غيرهم .

● الكاملون : حاملون لأوصاف الحق ، وحاملون لأوصاف الخلق . فإن رأيته من حيث الخلق ، رأيت أوصاف البشر ، وإن رأيته من حيث الحق ، رأيت الأوصاف التي زينهم بها . فظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى ، تخلقوا بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : « ووجدك عاقلا فاغنى » . اقتراه أغناه بالمال ؟ . وقد شد الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وأطعم الجيش كله من صاع ، وخرج - عليه الصلاة والسلام - من مكة على قدميه ، ليس معه شيء يأكله نوكدب إلا شيء يواريه ابطلال .

● أهل الله وخاصته . هم قوم جذبهم عن الشر وأصوله ، واستعملهم بالخير وفروعه . وحبب اليهم الخلوات ، وفتح لهم سبيل المناجاة ، فتعرف اليهم فقره ، وتحبب اليهم

فأحبوه ، وهداهم السبيل اليه فسلكوه ، فهم به وله ، لا يدعهم لغيره ، ولا يحجبون عنه . بل هم محبوبون به عن غيره . ولا يعرفون سواه ، ولا يحجبون الا اياه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولئ الألباب .

● الصوفي فيه أربعة أوصاف :

الخلق بأخلاق الله عز وجل
والمجاورة لأوامر الله
وترك الانتصار للنفس حياء من الله
وملازمة البساط بصدق البقاء مع الله



ونختتم الحديث عن سيدي « ابي الحسن الشاذلي » .. حول أدعيته وأذكاره وأحزابه .. ولأهمية الذكر والدعاء في الاسلام .. كان « ابا الحسن » يستقيض في الذكر وفي الدعاء . وكانت طريقته في أكثر الاحيان ان يمزج الذكر بالدعاء . وما روى عن « ابي الحسن » في هذا الباب كثير ، سواء منه ما يتعلق بالأحزاب ، أو بغيرها من ابواب الذكر والدعاء .

ولأبي الحسن في ذلك « الحزب الكبير حزب البر » .. الذي وصفه بقوله ، « من قرأه كان له مالنا وعليه ما علينا » .

و « الشاذلي » له أكثر من حزب .. لكنها كلها تجمع بين إفادة العلم ، وأداب التوحيد ، وتعريف الطريقة ، وتلويح الحقيقة ، وذكر جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه . وذكر حقارة النفس وخستها ، والتنبية على خدعها وغوايتها .

وفي الأحزاب أيضا الإشارة لوصف الدنيا والخلق ، وطريق الفرار من ذلك ووجه حصوله . والتذكير بالذنوب والعيوب والتنصل منها .. مع الدلالة على خصائص التوحيد . فالأحزاب إذن تعليم في قالب التوجيه ، وتوجيه في قالب التعليم .

ويقول « أبو الحسن » ناصحا الذاكرين والداعين ، الذين يرجون قبول الله لدعائهم :

« إذا أردت أن يستجاب لك أسرع من لمح البصر ، فعليك بخمسة أشياء هي :
الامتثال للأمر ، والاجتناب للنهي . وتطهير السر . وجمع الهمة ، والاضطرار . »

ومن أحزاب الشيخ « أبى الحسن الشاذلى » . « الحزب البر » أو « الحزب الكبير » .
وحزب الفتح ، وحزب البحر ، وحزب الآيات .. وهناك حزب يسمى « حزب الشيخ أبى
الحسن » وهذا الحزب الأخير وضعه أبى الحسن ، ولم يضع له عنوانا .

وهذه الأحزاب كما يصفها « ابن عباد » فى « المفخر العلية » : « وأحزاب اهل
الكمال ممزوجة بأحوالهم ، مؤيدة بعلومهم ، مسددة بإلهامهم ، مصحوبة
بكراماتهم » .

ولـ « أبى الحسن » كثير من الادعية والاذكار .. موجودة فى المصادر عنه .
وكما يقول د . « عبد الحليم محمود » ، فإن الدعاء يصح فى كل وقت ، بيد أن هناك
أوقاتا وأماكن أرجى فى الدعاء من غيرها .. مثل « جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات
المكتوبة » .. وكذلك أثناء السجود . ومن الأماكن الأرجى فى استجابة الدعاء الأماكن
الطاهرة ، وأشرفها بالطبع الحرم المكى والحرم المدنى .

وأخيرا نقول مع « أبى الحسن » فى دعائه المشهور وحزبه الكبير المعروف : « اللهم
إننا نسالك لسانا رطبا بذكرك ، وقلبا منعما بشكرك ، وبدنا هينا لينا بطاعتك . واعطنا
من ذلك مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . واغننا بلا سبب ،
واجعلنا سبب الغنى لأوليانك ، وبرزخا بينهم وبين أعدائك ، انك على كل شىء قدير ..

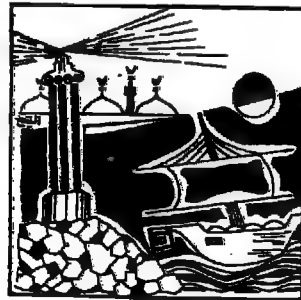
« اللهم انا نسالك ايمانا دائما ، ونسالك قلبا خاشعا ، ونسالك علما نافعا ،
ونسالك يقينا صادقا ، ونسالك ديننا قيما ، ونسالك العافية من كل بلية ، ونسالك تمام
العافية ، ونسالك دوام العافية ، ونسالك الشكر على العافية ، ونسالك الغنى عن
الناس ...

« لا إله الا انت سبحانك إني كنت من الظالمين »



سيسى أبو المباس المرسى

حارس الاسكندرية
وقطبها « الفوث »



●● الاسكندرية بالذات - فضلا عن القاهرة - من ارض الاسلام المباركة
تعلو على ارضها القباب ، وتتعانق المآذن .. وتتناثر - كالجواهر - داخل ثراها
كثير من اجساد اولياء الله تعالى .. او جند الله ..

لكن لماذا الاسكندرية بالذات ؟

الواقع ان هذه المدينة المصرية ، او العاصمة الثانية لمصر .. كانت تشاهد
الكثير من الاجانب القادمين من الساحل الاوربي او الاسيوى للبحر المتوسط ،
الذى يقابل الساحل الافريقى ... ولذلك ما اكثر الجاليات الاجنبية التى جاءت
الى الاسكندرية ، ومكثت فيها بعض وقت او استوطنتها الى الابد .. وهى ايضا
كميناء .. تفرغ البواخر فيه كل يوم مختلف الجنسيات . ثم انها كمعبر لاهل
المغرب الى بلاد الحجاز .. شاهدت على طول تاريخها الكثير من المؤمنين
وعلمائهم .. منذ ان بدأت دولة الاسلام فى الاندلس ، فى اواخر القرن الاول
الهجرى ..

ولقد افاض كثير من المؤرخين فى ذكر الاحاديث الواردة فى فضل الاسكندرية ،
والمرابطة فيها .. حتى يقال ان من رابط فيها اربعين يوما كتب الله له براءة من
النار وامن العذاب . وقيل حول اهل الاسكندرية ، ان خيار اهلها افضل من خيار
اهل غيرها ، وشرار اهلها خير من شرار اهل غيرها . وان المرابط فى سبيل الله عز
وجل على ساحل البحر ، له فى كل يوم دعوة مستجابة .. وغير هذا كثير مما
اشتملت عليه الكتب المؤلفة فى فضل المرابطة فيها ..

العلامة « ابن خزيمة » ، الذى رابط فى الاسكندرية اربعين يوما ابتداء من
سنة ٥٦٠ هـ « ١١٦٤ م » يقول عنها : « اهلها للخير فاعلون ، لا تبطل القراءة
منها وطلب العلم ليلا ونهارا ، ايمان ساطع ، ونور لامع ، بها اولياء اسرارهم
واضحة وكراماتهم باهرة ، وبها مائة وثمانون مدرسة لتعليم العلم ومائة
وتسعون مسجدا للجماعة » .

ويصفها القاضى الفاضل .. بانها الثغر المحروس حماء الله ، الرفيع المقدار ،
الذى هو قرة العين للاسلام ، ومحل مما تتطامن له معاقل التوحيد وحصونه ،

وهو مشتمل على الفقهاء والصلحاء والمرابطين وأهل الدين .. ولذلك - وكما يقول الأثرى حسن عبدالوهاب رحمه الله - إن الاسكندرية منذ سكنها الإمام السلفي سنة ٥١١ هجرية (١١٧ ميلادية) كانت من أهم مراكز التحصيل ، كعبة المستفيدين ، يحج إليها العلماء من أقطار الأرض ، واتخذها عدد كبير من الأندلسيين والمغاربة وطناً لهم



الاسكندرية أذن مملكة إيمان .. سلطانها المشهور القطب الصوفي سيدي « أبو العباس المرسى » ، أو « المرسى أبو العباس » ، كما يشتهر بذلك بين أهل بحرى . وإذا كان أبو العباس المرسى رضى الله عنه سلطان الاسكندرية .. فهو سلطان له مكانة في قلوب المصريين - حتى أقصى الصعيد . يدل على ذلك اسم « مرسى » .. الذى تسمى به عشرات بل مئات الألوف من أبناء مصر تبركا بهذا القطب الصوفي .. ولذلك لم اتعجب حين سمعت في الصعيد مرة أغنية شعبية تعيش في وجدان الشعب منذ سنين وسنين ، تقول هذه الأغنية :

خاين يا زمانى	وديت حبيبى فين
ولا جواب جانى	وبعت له جوابين
سوده وعجبانى	عيون حبيبى يا ناس
يابو مقام عالى	مرسى يا أبو العباس

« أبو العباس المرسى » .. أو « المرسى أبو العباس » سيظل علم الاسكندرية وسلطانها وحارسها .. كما ستظل الاسكندرية أرض أولياء الله .. حتى ليقال انه مدفون في أرضها عشرات الاسماء الطاهرة ، وإن حول مسجد أى العباس وحده مدفون أكثر من خمسين ولياً من أولياء الله ومن أئمة التصوف .

و « أبو العباس المرسى » ، هذا القطب الكبير ، صاحب الطريقة .. هو تلميذ « أبى الحسن الشاذلى » رضى الله عنهما ، وخليفته الاوحد من بعده .. وهو من العرب الذين عاشوا في الاندلس ، واسمه هو « شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن على الخزرجى الانصارى » . ويتصل نسبه بالانصار ، الذين أخبر رسول الله ﷺ ، ان حبه من علامات الايمان . ونسبه يتصل لسعد بن معاذ ، سيد الخزرج .

ولقد ولد سيدى « أبو العباس » فى « مرسية » ونشأ بها ، حيث كان والده يعمل فى التجارة . وكما يقول الامام الاكبر الدكتور « عبد الحلیم محمود » فى كتابه « العارف بالله أبو العباس المرسى » .. إنه يبدو ان حالة والده كانت من اليسر بحيث مكنته من ارسال ابنه الى مؤدب لتعلم القرآن الكريم ، والتفقه فى امور الدين ..

ولقد بان فى أبى العباس خصائل اللماحية والذكاء غير العادى ، والمهارة والفهم منذ سنواته الاولى .. حتى لقد كان ما فيه ، لا يوجد فى اطفال المكاتب . كما ان كل من شاهده صغيرا كان يتوسم فيه الاتجاه الى الصلاح والتقوى منذ هذه السن المبكرة .

وهناك قصة تدل على ذلك يحكيها « أبو العباس » ، حيث يقول : « كنت وأنا صبى عند المؤدب ، جاء رجل فوجدنى اكتب فى لوح ، فقال : الصوفى لا يسود بياضا . فقلت : ليس الامر كما زعمت ، ولكن لا يسود الصحائف بسود الذنوب » . كما ان هناك بعض الاضواء عن هذه الفترة من حياة أبى العباس فى المسرحية التى كتبها الاستاذ « محمود يوسف » ونشر حلقاتها فى جريدة الجمهورية عام ١٩٦٨ .. وهى تفاصيل لاشك فيها جهد .. لكن فيها اجتهاد .

لقد كانت نشأة هذا القطب على الصلاح والتقوى فى هذه السن المبكرة ، او بتعبير أدق ، فان هذا المؤدب الفاضل صقل فطرته الصافية ، وثبتتها على الصلاح والتقوى . ويحكى « أبو العباس » عن هذا المؤدب الفاضل قائلا : عمل الى جانب دارنا خيال الستار ، وأنا ذاك صبى ، فحضرتة ، فلما أصبحت أتيت الى المؤدب ، وكان من أولياء الله تعالى ، فأنشد حين رآنى :

يا ناظرا صور الخيال تعجبا

وهو الخيال بعينه لو ابصرا

وقد خجل « أبو العباس » ، وعزم في نفسه ان يأخذ في حياته مسلك الجد .
ويقولون إن « أبا العباس » حين بلغ الشباب ، ودرجة الاستقلال بنفسه في التفقه
والدراسة ، أخذ في معاونته والده في الاعمال التجارية ، فكان التاجر الصدوق . لكن حياته
منذ الشباب « في مرسية » الى ان التقى بشيخه « أبي الحسن الشاذلي » في زاوية
« زغوان » يلفها الغموض ، الامن شذرات قليلة لا تشفى الغلة . وهذا يعود الى ان « أبا
العباس » - كما يقول مؤرخوه - لم يكن معنيا بالحديث عن نفسه ، ولم يكن مهتما
بالتاريخ لحياته . انه لم يتحدث عن أسرته ، ولم يتحدث عن نفسه ، ولم يشد بأفعاله .
إنه - كما يرى الدكتور عبد الحليم محمود : « قد فنى في أبي الحسن ، فلم يكن في أفاته
« فراغ » للحديث عن نفسه ، ثم فنى في الدعوة الى الله بعد أبي الحسن ، وما فناءه في
الدعوة الا فناء في الله ورسوله وفي حبهما ، وفي العمل جاهدا على مرضاتهما .. ومن كان
كذلك لا يهتم بالحديث عن نفسه .

ان المعلومات قليلة عن « أبي العباس » قبل عام ٦٤٠ الهجري .. وفي هذا العام ،
كما أثر ، حزم والده أمره ، ورتب شئونه على ان يقوم بالحج الى بيت الله الحرام ، وأخذ
الاسرة معه ، وركبوا البحر - وكان عمر أبي العباس ٢٣ سنة - لكن شاعت إرادة الله
سبحانه وتعالى ، ان تهب عليهم عاصفة بالقرب من شاطئ « بونة » فاستشهد والده
ووالدته غرقا في البحر ، ونجا هو وأخوه « محمد » ، فيمما شطر « تونس » . اما أخوه
فاتجه نحو الاعمال التجارية على غرار والده . اما هو فلم يكن حنينه الى التجارة ، وانما كان
حنينه الى مهنة المؤدب ، الذي كان من أولياء الله ، وكان هواه هو تعليم القرآن الكريم ،
والاغتراف من انوار القرآن . فاتخذ - في تونس - من زاوية الفقيه « محرز بن خلف » ،
مكانا يعلم فيه القراءة والكتابة ، ومبادئ الدين والقرآن الكريم .

لقد جاء « أبو العباس » من « مرسية » الى « تونس » وهو متسلح بالعلم ..
ومتسلح ايضا بما مارسه مع ابيه في التجارة ، من الاخذ والعطاء بحيث اطلع عمليا على
فنون المعاملات ووسائل التفاهم مع خلق الله ، مما اطلعه على معرفة الاتجاهات الانسانية
ووقفه على كوامن النفس البشرية .

في « تونس » كان اللقاء .
لقاء بين « أبي الحسن الشاذلي » وبين « أبي العباس المرسى » رضى الله عنهما .
هذا تعبر عنه صورة رمزية لطيفة ، جاءت في « لطائف المنن » وتعبر في عمق عن مكانة

العارف بالله سيدى « أبى العباس المرسى » من شيخه « أبى الحسن الشاذلى » .. ونقلها الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » فى كتابه .

تقول هذه الصورة :

« وأخبرنى بعض أصحابنا قال : رأى إنسان من أهل العلم والخير ، كأنه بالقرافة الصغرى والناس مجتمعون يتطلعون الى السماء ، وقائل يقول : الشيخ أبى الحسن الشاذلى ينزل من السماء ، والشيخ أبى العباس مرتقب لنزوله ، متأهب له . »

« فرأيت الشيخ أبى الحسن قد نزل من السماء ، وعليه ثياب بيض . فلما رآه الشيخ أبى العباس .. ثبت رجله فى الأرض وتهيا لنزوله عليه . فنزل الشيخ أبى الحسن عليه - أى على أبى العباس - ودخل من رأسه حتى غاب فيه .. ثم استيقظت . »

هذا الرمز يوضح الصلة التى ستبدأ فى تونس ، بين الشاذلى وأبى العباس . وهذا الرمز أيضا يشير الى الاتحاد بين الشاذلى وأبى العباس فى المنهج والفكر والسلوك ، يجاريه ويسير فى نسق واحد .

ويدلل على ذلك ابن عطاء الله السكندرى - المصدر الوحيد تقريبا عن حياة أبى العباس - بقصة يرويها ويقول فيها : « من المشهود بين أصحاب الشيخ أبى الحسن وغيرهم ، ان الشيخ كان يوما فى القاهرة فى دار الزكى السراج ، وكتاب « المواظف » للنفرى يقرأ عليه . فقال الشيخ أبى الحسن : أين أبى العباس ؟ »

فلما جاء أبى العباس ، قال : يا بنى تكلم ، بارك الله فىك ، تكلم ولن تسكت بعدها أبدا . فقال الشيخ أبى العباس : « فأعطيت فى ذلك الوقت لسان الشيخ » .

ويجارى ذلك ويتطابق معه ، ما قاله سيدى « أبى الحسن الشاذلى » ، لتلميذه وخليفته أبى العباس ، حيث قال له : يا أبى العباس ، ما صحبتك الا لتكون انت انما ، وأنا انت .

وقد بلغ من بعض الصوفية .. انهم قالوا حين مات « الشاذلى » ، انه لم يمض حين مات ، وانما غاب فى أبى العباس ، اوبقى فى « أبى العباس » .. لقد كان « أبى العباس » امتدادا « للشاذلى » ، فقد غاب الأخير فيه ، وكان لسانه ، بل كان هو هو . كان « الشاذلى » هو الحلقات الاولى فى الطريق ، وأخذت هذه الحلقات تتسلسل متجددة لالاءة

على مر الزمن ، فكانت مدرسة بداها « أبو الحسن الشاذلي » في قوة ، وتابعه وترسم خطاه على هدى وبصيرة من تبعه ، وكان على رأس التابعين « أبو العباس » .

لقد كان « الشاذلي » يحب « أبا العباس » ، كما يحب الانسان صورة لنفسه ، أو كما يحب أثرا من آثاره ، أو كما يحب إبتنا من أبنائه .

لقد وجد « أبو الحسن الشاذلي » في « أبي العباس » مرآة ذاته وأهلية خلافته ، والرجل الثاني في قطبانيته ، فاختصه بأسراره ، وأفضى اليه بما وهبه الله من علوم ومعارف ..

لكن كيف كان اللقاء الأول بين « أبي الحسن » و « أبي العباس » في تونس ؟

يقص أبو العباس كيفية اتصاله بشيخه ، فيقول :

« لما نزلت بتونس وكنت أتيت من مرسية ، وأنا اذ ذاك شاب ، سمعت بذكر الشيخ أبي الحسن الشاذلي . فقال لي رجل : تمضي بنا اليه . فقلت : حتى استخير الله . فذمت تلك الليلة ، فرأيت كائني اصعد الى رأس جبل . فلما علوت فوقه ، رأيت هنالك رجلا عليه « برنس » اخضر . وهو جالس . وعن يمينه رجل ، وعن يساره رجل . فنظرت اليه ، فقال : عثرت على خليفة الزمان . قال - أي أبو العباس - فانتبهت .

« فلما كان بعد صلاة الصبح ، جاعنى الرجل الذى دعانى الى زيارة الشيخ فسرت معه ، فلما دخلنا عليه ، رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل ، فدهشت . »
« فقال لي : عثرت على خليفة الزمان .. ما اسمك ؟ فذكرت له اسمى ونسبى . فقال لي : رفعت لي منذ عشرين سنين . » .

والواقع ان « الشاذلي » قد بهر « أبا العباس » بحديثه المنطلق ، والهاماته المتدفقة ، وسلوكه الزباني .. فلأزمه « أبو العباس » ملازمة المريد الصادق لشيخه العارف . وقد رأى « الشاذلي » في « أبي العباس » فطرة طاهرة ونفسا خيرة ، واستعدادا طيبا للإقبال عليه ، فمحنه وده ، وغمره بعنايته وأخذ في تربيته تربية تؤهله ليكون خليفة من بعده .

ولقد استمر « أبو العباس » مع « الشاذلي » يسير في ضوء تربيته ، وينهج طريقه ، لا يحيد عنه قيد شعرة ، الى ان كانت وفاة « الشاذلي » . وقبل أن يموت « الشاذلي » ، خلا بأبى « العباس المرسى » وحده ، وأوصاه بأشياء ، واختصه بما اختصه الله به من

البركات . وقال لأصحابه : « اذا انامت فعليكم بابى العباس المرسى ، فإنه الخليفة من بعدى وسيكون له بينكم مقام عظيم ، وهو باب من ابواب الله سبحانه وتعالى » .

الشاذلية من الطرق المعروفة في عالمنا الاسلامى ..

وأريابها من أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن رجال الأزهد في الدنيا ، وطلاب الحلال من كل وجه . وهم كما يرى « محمد محمود زيتون » في كتابه عن « أبى العباس المرسى » ممن يزهدون في التقرب الى السلطان بل ممن لا يستكفون من المواجهة الصريحة معه لدرء ضرر عام أو جلب نفع عام .

وأهم ما يميز الشاذلية كما أرى علمهم الغزير ، حتى أن أحدهم وصف « أبا العباس المرسى » بأنه بحر لاساحل له ، ووصفه « ابن عطاء الله السكندري » في مؤلفه « لطائف المنن في مناقب العباس وشيخه أبى الحسن » « كنت لا تتحدث في علم من العلوم ، الا تحدث معك فيه ، حتى يظن السامع أنه لا يحسن إلا هذا العلم ، لاسيما علمي الحديث والتفسير ، فقد كانت آراؤه سديدة في تفسير القرآن العزيز » . ومع هذا العلم الغزير ، لم يؤلف أبو العباس كتابا ، وكان يقول « كتبى اصحابى » .. بمعنى أن « أبا العباس » كان صاحب دعوة ومريدين ، يأخذون عنه وينشرون ما يأخذونه على عباد الله وكان « أبو العباس » يردد ويقول دائما : « علوم هذه الطائفة علوم تحقيق وعلوم التحقيق لا تحملها عقول عموم الخلق » . و « أبو العباس » هو الذى قال : « جميع ما كتبه القوم عبرات دموع من سواحل بحر التحقيق » .

ولأن إيمان الشاذلية بالعلم كطريق موصل جيد ، فإنه وكما يقول سيدى « على الخواص » : « كانت القاعدة عند الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، والشيخ أبى العباس المرسى ، ومريديهما مثل ابن عطاء الله ، والشيخ ياقوت العرش ، في قبول الطلاب .. » الا يدخل أحد الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة والائتها .. بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة ، فلذا لم يتبحر كذلك ، لا يأخذون عليه العهد » .

فالعلم .. كما يراه « أبو العباس المرسى » - ومن قبله استاذ « أبو الحسن » - هو زاد رحلة البحث عن الحقيقة . والعلم أولا ، هو أن يعرف الانسان نفسه أو يجد في محاولة معرفتها . فكما يقول : « من عرف نفسه ، عرف ربه . ومن عرف نفسه بذلها وعجزها عرف ربه بعزه وقدرته » .

يقول « ابن عطاء الله السكندري » عن علم « أبي العباس » : « هو الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائر .. مشرق شمس المعارف بعد غروبها ، ومبدي أسرار اللطائف بعد غروبها » .. وكان أبو العباس - كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود - « من كبار العلماء في علوم الظاهر ، ومن كبار الملهمين في علوم الباطن » .

وتحت عنوان « العالم » يقول الشيخ عبد الحليم في كتابه عن « أبي العباس » إن رجال المدرسة الشاذلية يعرفون أنه رضى الله عنه هو الذى بث علوم الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه ، ونشر أنوارها ، وأبدى أسرارها .. وكان لأبي العباس من العلوم الظاهرة كتب معينة ، يؤثرها ويدوم مذاكرتها وتدارسها .

● ففى أصول الدين : كان كتابه « الإرشاد » وهو كتاب فى التوحيد والجدل والنقاش ، والانتصار لمذهب الإشاعة وأهل السنة ، لايسهل تناوله على العاديين من الناس ، بل ولاعلى الكثير من المثقفين لأنه يحتاج الى ممارسة طويلة فى علم الكلام والجدل .

● وكان كتابه فى الحديث « المصابيح » وهو كتاب على غرار كتاب « الترغيب والترهيب » .

● أما فى الفقه فكان يعنى بكتابه « التهذيب » .. و « الرسالة » .. وهما فى الفقه مشهوران .

● وكتابه فى التفسير هو كتاب « المحرر الوجيز » لابن عطية

● أما فى التصوف ، فقد كانت كتبه المفضلة هى : « الرسالة القشيرية » وكتاب « قوت القلوب » ، وكتاب « ختم الأولياء » للحكيم الترمذى ، وكتاب « الحقائق » للسلمى .

وبالإضافة الى علمه المتبحر ، فى علوم المعارف والأسرار وعلوم المعاملة ، كان « أبو العباس » شاعرا ، وشعره كما يوصف شعر معان ، وشعر تحليق فى سماء الروح ، ومن أمثله هذه القصيدة التى تعبر عن النفس وتعلقها بالبدن وتقيدها بالحظ وانبعائها بالشهوة :

إذا كنت سائلتنا عن خالص المنن
وعن تعلق ذات النفس بالبدن
وعن تشبثها بالحظ مذ الفت
أدراؤها فغدت تشكو من العطن

وعن تنزلها في حكمها ولها
علم يفرقها بالقبح والحسن
وعن بواعثها بالطبع ماثلة
تهوى بشهوتها في ظلمة الشجن
وعن حقيقتها في أصل معدنها
لاينثنى وصفها منها الى وثن
فاسمع هديت علوما عز سالكها
عن العيان ولايغرك ذو لسن

ومن قصيدة أخرى كتبها الى أبي « عبدالله جمال الدين » يحثه على التمسك
بالفضائل يقول فيها :

واذا اردت من السلوك أجله
فالزهد في الدنيا مع السميت الحسن
واعبد إلهك حيث كنت على الرضا
تحظى بما قد ناله اهل المفن
اهل الولاية والهداية والتقوى
هم سادتي منهم اصول على الزمن

وفي كتاب « ابن عطاء الله » قصيدة أكد انها وحدها بخط شيخه « ابي العباس
المرسی » يقول فيها هذه الابيات الرقيقة :

اعندك من ليلي حديث محرر
بايراده يحيا الرميم وينشر ؟
فعهدى بها العهد القديم وإننى
على كل حال في هواها مقصر
الى ان يقول :

ومن وجه ليلي طلعة الشمس تستضي
وفي الشمس ابصار الوري تتحير
وما احتجبت الا برفع حجابها
ومن عجب ان الظهور تستر !

لقد كان « ابوالعباس » رضى الله عنه عالما فى اللغة ، مادتها ونحوها وصرفها وعالما فى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الفقه ، وفى السيرة ، وفى التصوف وهذا ماينبغى ان يكون عليه الصوفى .. فشعاره « وقل رب زدنى علما » .



من « تونس » الى « الاسكندرية » ، كانت الرحلة المقدسة « لابى العباس » وشيخه « أبى الحسن » رضى الله عنهما وقداوس روحيهما ..

والرحلة .. دفعت اليها احداث نجملها .

وفى زاوية « زغوان » بتونس حيث كان يقيم « ابوالعباس » مع القطب الفوت « أبى الحسن الشاذلى » .. كان مقر الدعوة الى الله ، فكانت الحشود الهائلة من المريدين وطلاب الحقيقة على اختلاف مستوياتهم .. من علماء وتجار وعامة ، يفشون - كما يقول « جودة ابواليزيد الشاذلى » فى بحث له فى مجلة « منبر الاسلام » - مركز الاشعاع الشاذلى ، وينهلون من اقباسه زاد الحكمة والتوجه الى الله .

ويرتفع شأوالامام « أبى الحسن » ، وتعظم منزلته فى قلوب العامة والخاصة الى حد أثارحقداقضى القضاة « ابن البراء » ، وأقلقه على مركزه فى نفوس العامة ، اذ رأى ان منزلته بدأت تتهاوى امام عظمة الامام « أبى الحسن » . فلجأ الى الايقاع به لدى السلطان « أبى زكريا » ، سلطان « تونس » . وكانت النتيجة هى ارتحال الامام « الشاذلى » الى بلاد المشرق ، حيث توجه الى الاسكندرية ، ثم الى بيت الله الحرام ، ثم كانت العودة الى تونس ثانية .

ويجربى التساؤل عن سر العودة الى تونس مرة ثانية .

والاجابة على لسان الامام الشاذلى : « ماردنى الى تونس الا هذا الشاب » .. ويقصد به بالطبع « أبى العباس المرسى » .

ثم يعود « ابوالحسن » الى الاسكندرية مرة اخرى ، ومعه فى هذه المرة « ابوالعباس المرسى » وارثه ، ومجموعة من مريديه .

يقول « ابوالعباس » ، وهو فى الطريق من تونس الى الاسكندرية مع شيخه ويلقى اضواء على منهاج التربية التى كان يبتها فيه شيخه « ابوالحسن » : « كنت مع الشيخ فى السفر . ونحن قاصدون الاسكندرية ، حين مجيئنا من الغرب ، فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله . فأتيت الى الشيخ أبى الحسن ، فلما احس بى قال : أحمد . قلت : نعم ياسيدى . قال : « آدم خلقه الله بيده وأسجد

له ملائكته واسكنه جنته ، ثم نزل الى الارض . والله ما انزل الله آدم الى الارض لينقصه ، ولكن نزل به الى الارض ليكمل . ولقد انزله الى الارض قبل ان يخلقه بقوله : « انى جاعل فى الارض خليفة » ، ما قال فى السماء ولا فى الجنة ، فكان نزوله فى الارض نزول كرامة لانزول إهانة ، فانه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فأنزله الى الارض ليعبده بالتكليف فلما توفرت فيه العبوديتان إستحق ان يكون خليفته ، وانت ايضا لك قسط من آدم . كانت بدايتك فى سماء الروح ، فى جنة التعريف ، فأنزلت الى ارض النفس لتعبده بالتكليف ، فاذا توفرت فيك العبوديتان استحققت ان تكون خليفة .

هكذا اخذ سيدى « ابوالحسن » بيد سيدى « ابي العباس » ليوصله الى الله ، وليفرغ فيه سره الالهى ليكون خليفته من بعده ، ولقد توحدت روحاهما حتى صبح لكل منهما ان يقول للآخر : « يا انا » . ويغالى بعض الصوفية فيستوحون من الاتحاد الروحى بين الشيخ ومريده أولية سيدى « ابي العباس » فى تأسيس الطريقة الشاذلية ، ويدللون على ذلك بأن « ابا الحسن » كثيرا ما صرح لأصحابه بما بلغه « ابوالعباس » من منزلة سامقة فى الولاية . ويتحققه بأعلى المقامات . كان « ابوالحسن » يردد : « هذا ابوالعباس منذ نفذ الى الله لم يحجب عنه ، ولو طلب الحجاب لم يجده » إنها قمة الوصول وقمة الولايات وقمة التحقق .

وللتدليل على ذلك يذكرون ان ابا الحسن قال لمريده سيد زكى الدين الاسوانى :

« يازكى : عليك بأبى العباس ، فوالله انه لياتيه البدوى يبول على ساقيه فلا يمسى عليه المساء الا وقد وصله الى الله . يازكى : عليك بأبى العباس فوالله مامن ولى الله كان او هو كائن الا وقد أطلعه الله عليه . يازكى : ابوالعباس هو الرجل الكامل » . وقد وقع بين الشيخ « ماضى بن سلطان » وبين « ابي العباس » جدال . سمعه الشيخ « ابو الحسن » ، فقال للشيخ ماضى : الزم الادب مع أبى العباس ، فوالله إنه لأعرف بأزقة السماء أكثر مما تعرف انت أزقة الارض

ولقد ظل « ابو العباس » ملازما لاستاذه فى الاسكندرية منذ عام ٦٤٠ الهجرى ، وكان عمره حوالى ٢٤ عاما . وقد جلس « ابو الحسن » وتلميذه فى جامع العطارين .. وبين الفينة والفينة يسافران الى مدن مصر ، يشعان بعلمهما على اهل مصر ، ويحملان الحقيقة .

وفى ذات يوم من عام ٦٥٦ هجرية قررا الحج الى بيت الله الحرام .. واصطحب الشيخ مريده مع من اصطحبهم . وفى الطريق بمكان يسمى الحميثراء .. بصحراء عذاب على

ساحل البحر الاحمر ، تولى الله عبده « الشاذلى » دفنه مريده هناك .. ثم واصل رحلة الحج ، وعاد الى الاسكندرية .



حين عاد « ابو العباس » بعد وفاة شيخه ، جلس فى مسجد صغير داخل باب البحر وحوله تلاميذه واتباعه من المريدين .. وقد عمر المسجد بذكر الله وحسن بايمانهم .. حتى اطلق على المسجد « القلعة » وكان مجلس « ابي العباس » مجلسا بهيا ، وصف كثيرا فى مؤلفات مريديه « ما على وجه الارض مجلس فى الفقه ابهى من مجلس الشيخ عز الدين ابن عبدالسلام . وما على وجه الارض مجلس علم ابهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم المنذرى . وما على وجه الارض مجلس فى علم الحقائق ابهى من مجلس ابي العباس المرسى » .

كما كان « ابو العباس » يتفقد المريدين ، ويتتبع احوالهم بالهام من الله وفراسة المؤمن وبالسؤال عن احوالهم . ومن دقته فى مراعاة الكرامة الانسانية للمريدين ، انه كان يكره للاشيخ اذا جاءهم مريد ان يقولوا له قف ساعة ويقول : ان المريد يأتى الى الشيخ بهمة المتوقدة ، فاذا قيل له قف ساعة ، طفىء ما جاء به . وكان اذا رأى مريدا يفتخر بزهده فى الدنيا ، يقول : يا أخى لقد عظمت الدنيا حين رأيت لها وجودا ، حتى زهدت فيها ، فقدرها اصغر من ذلك .

وكان بعض المنتمين الى التصوف يحبون لبس المرقع ، وغلظ الطعام والشراب .. فماذا كان موقف ابي العباس ؟

يقول « ابن عطاء الله السكندرى » : طريقة الشيخ ابي العباس ، وشيخه ابي الحسن رضى الله عنهما ، وطريقة اصحابهما .. الاعراض عن لبس زى ينادى على سر اللابس بالافشاء ، ويفصح عن طريقه بالابداء ، ومن لبس الزى فقد ادعى .

ويقول ابو العباس : لن يصل الولي الى الله تعالى ، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله تعالى . كما يقول ابو الحسن : لن يصل الولي الى الله ، ومعه شهوة من شهواته ، او تدبير من تدبيراته ، او اختيار من اختياراته .

ويشرح ما سبق الامام « ابن عطاء الله السكندرى » : « انه لن يصل الولي الى الله ، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله ، اى انقطاع ادب لا انقطاع ملل »

وكن عبده والى القياد لحكمه
وايك تدبيراً فما هو نافع

اتحكم نديرا وغيرك حكم
 انت لاهكم الاله تنزع
 فمحو ارادات وكل مشيئة
 هو الغرض الاقصى فهل انت سامع؟
 كذلك سائر الاولون فادركوا
 على اثرهم فليمش من هو تابع

ولم ينس سيدى « ابو العباس » ان يوجه مريديه الى فضائل معينة يلتزمونها في
 انفسهم ، وتكون اساسا يرشدهم الى صداقة من يتحقق بها . ومن بين ما كان يقول للمريد :
 لا تصحب الا من تكون فيه اربع خصال : الجود من القلة ، والصفح عن المظلمة ،
 والصبر عند البلية ، والرضا بالقضية .

كان فكر « ابى العباس » ، ينحصر في اصلاح العبد في ثلاثة اشياء : معرفة الله
 ومعرفة النفس ومعرفة الدنيا . فمن عرف الله خاف منه . ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله
 . ومن عرف الدنيا زهد فيها . ويقول : ان الله تعالى جعل من العبد ثلاثة اجزاء : لسانه جزء
 ، وجوارحه جزء ، وقلبه جزء . وطلب من كل جزء وفاء .. فوفاء القلب الا يشتغل بهم الرزق .
 ولا مكر . ولا خديعة . ووفاء اللسان .. الا يغتاب ولا يكذب . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . ووفاء
 الجوارح الا يسارع بها قط الى معصية ، ولا يؤذى بها احدا من المسلمين . فمن وقع من قلبه
 فهو منافق . ومن وقع من لسانه فهو كافر . ومن وقع من جوارحه فهو عاص .

ولقد ظل « ابو العباس المرسى » في الجامع او « القلعة » يشع نور العلم والمعرفة
 ويرى طريقة الشاذلية ، ويبتعد عن اهل البدع . حتى كان يقول لاصحابه ويكرر دائما :
 « مخالطة اهل البدع تميم القلب . من كان فيه ادنى بدعة ، فاحذر مجالسته ، لئلا
 يعود عليك شؤمها بعد حين »

ومجلس « ابى العباس » في « القلعة » .. او الجامع كان مجلسا مهيبا . كان كما
 يقول ابن عطاء الله السكندري : « ما كنت تجلس بين يدى ابى العباس الا والرعب يملأ
 قلبك .. وكيف لا خاصة و « إن لله عبادا محق افعالهم بأفعاله ، واوصافهم بأوصافه
 ، وذاتهم بذاته .. وحملهم من اسراره ما يعجز عامة الاولياء عن سماعه »

كما يقول الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » في تاريخ تفسير القرآن ..
 فان الرسول ﷺ لم يمل تفسيرا للقرآن مطولا او مختصرا . وانما اثر عنه ﷺ كلمات

شريفة وجيزة عن هذه الآية أو تلك . وقد كان سلوك رسول الله ﷺ وقد قالت السيدة عائشة عن الرسول ﷺ « كان خلقه القرآن » وقال البعض ان الرسول ﷺ ، كان قرأنا يمشى على قدمين . فقد كانت حياته كلها ﷺ ، تترسم في تفاصيلها وفي إجمالها النهج القرآني ، وهي من هذه الوجهة تفسير للقرآن ..

ولقد سئل أحد المفكرين عن خير تفسير للقرآن ، فقال : « الزمن » .
ولقد كان للصوفية في مسألة تفسير القرآن إلهامات وإشراقات بتوفيق الله رائعة . وهم في هذا الميدان يسمون إلهاماتهم « إرشادات » . يعنون بذلك ان الآيات القرآنية لها تفسير . جاء فيما بعد - بحسب اللغة وأسباب النزول ، وحوادث التاريخ . وهو تفسير يتفاوت دقة وجمالاً ، ولكنه لا يستنفد كل ما تعطيه الآيات القرآنية من إرشادات ، وما يشع عنها من أنوار ، وما يتضوع منها من عبر طيب .

ومن أجل ذلك فإن إلهامات الصوفية في الآيات القرآنية فياضة دائماً ، سيالة باستمرار .

ولأبي العباس المرسى دقائق وإلهامات في استنباط أسرار القرآن الكريم ، لم تسمع إلا منه . ومن بين هذه التفسيرات التي نسبت لسيدى أبا العباس المرسى ، نجتزئ بعض النماذج :

يفسرافاتحة الكتاب فيقول :

« الحمد لله رب العالمين » : علم الله عجز خلقه عن حمده ، فحمد نفسه بنفسه في أزله ، فلما خلق الخلق إقتضى منهم ان يحمده بحمده ، فقال الحمد لله رب العالمين ، أى قولوا الحمد لله رب العالمين ، أى أن الحمد لله الذى حمد به نفسه بنفسه هوله لا ينبغي ان يكون لغيره ، فعلى هذا تكون الالف واللام للعهد .

ويقول « ابن عطاء الله » . سمعت « أبا العباس » يقول في قوله عز وجل « اياك نعبد واياك نستعين » .. اياك نعبد ، شريعة واياك نستعين ، حقيقة اياك نعبد اسلام . واياك نستعين ، احسان . اياك نعبد ، عبادة . واياك نستعين عبودية اياك نعبد فرق واياك نستعين جمع .

وإما « إهدنا الصراط المستقيم » - كما يقول « أبو العباس » - بالثبوت فيما هو حاصل ، والارشاد ليس بحاصل . عموم المؤمنين يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » .. أى بالثبوت فيما هو حاصل . والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم التوحيد . وفاتهم درجات الصالحين .

والصالحون يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » .. ومعناه نسألك
التثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم صلاح
وفاتهم درجات الشهداء .

والشهداء يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » .. أى التثبيت فيما هو حاصل ،
والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصديقين .
والصديقون يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » أى بالتثبيت فيما هو حاصل ،
والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم درجات الصديقية وفاتهم درجات
القطبية .

والقطب يقول : « إهدنا الصراط المستقيم » .. أى بالتثبيت فيما هو حاصل ،
والارشاد لما ليس بحاصل .. فإنه قد حصل له رتبة القطبانية ، وفاته علم اذا شاء الله
أن يطلع عليه ، أطلع

وفى قوله تعالى : « إن تعذبهم ، فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز
الحكيم » من سورة المائدة . سأل سائل الامام « ابا العباس » : لم قال عيسى عليه
السلام هذه الآية ، ولم يقل « الغفور الرحيم » بدل « العزيز الحكيم » ؟ .
وقد أجاب « ابو العباس » يقول : إنما عدل عن قوله « انك انت
الغفور الرحيم » الى قوله « فانك انت العزيز الحكيم » .. لانه لو قال « وإن تغفر
لهم فانك انت الغفور الرحيم » لكان شفاعا من عيسى عليه السلام لهم فى المغفرة .
ولا شفاعا فى كافر ، ولأنهم عبدوا من دون الله ، فاستحى من الشفاعا لهم عنده وقد
عبدوا غيره ،

ويفسر الآية الكريمة : « سبحانه الذى اسرى بعبده ليلا » من سورة الاسراء
فيقول : لم يقل الله جل شأنه : اسرى بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله وانما كان
كذلك ، لانه اراد ان يفتح باب السريان للاتباع ، فأعلمنا بأن الاسراء من بساط
العبودية . فالنبي ﷺ كان له كمال العبودية ، فكان له كمال الاسراء ، اسرى بروحه
وجسمه وظاهره وباطنه . فالاولياء لهم قسط من العبودية ، فلهم قسط من الاسراء ،
يسرى بأرواحهم .. لا بأشباحهم .

وبالاضافة لتفسير القرآن .. فقد وجدنا « لابی العباس » تفسيراً منفرداً
للأحاديث النبوية .

فمثلاً كان ابو العباس يفسر حديث الرسول « إنما انا رحمة مهداة » .. بقوله :

« إن الانبياء الى امهم عطية ، ونبينا ﷺ هدية . وفرق بين العطية والهدية ان العطية للمحتاجين ، اما الهدية فللمحبوبين . »
وفي قوله ﷺ « السلطان ظل الله في الارض » يقول « ابو العباس » : هذا اذا كان السلطان عادلا . اما اذا كان جائرا ، فهو ظل النفس والهوى ،
ويفسر « ابو العباس » قوله عليه الصلاة والسلام : « يسروا ولا تعسروا »
فيقول : اى دلوهم على الله ، ولا تدلوا على غيره : فان من ذلك على الدنيا فقد غرك ، ومن ذلك على الاعمال فقد اتعبك ، ومن ذلك على الله فقد نصحك .

كان « ابو العباس » يقول لتلاميذه : « إن لحوم الاولياء مسمومة ولو لم يؤاخذوك .. فاياك .. و ثم اياك » . وكان يقول ايضا : « اذا ضاق الولي هلك من يؤذيه في الوقت » . ولذلك فقد فرض هذا الولي القطب الغوث احترام الاولياء الصادقين على الناس .

ولقد اقام « ابو العباس » في الاسكندرية ثلاثا وأربعين سنة ينشر العلم ويهذب النفوس ، ويضرب المثل بورعه وتقواه الى ان انتقل الى جوارربه في الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ « ١٢٨٧ الميلادية » . ودفن بقبره خارج باب البحر في منطقة رأس التين . وقبره مشهور بإجابة الدعاء ، وقد قال احد المؤرخين ، إن قاضي الاسكندرية حدثه ، قال : « إن قبر سيدي ابي العباس المرسى عندنا ترياق مجرد ، ما قصد الله عنده احد في شيء الا استجاب له » .

مات القطب الذي كان يدفع مريديه الى العمل ، ويرى ان العمل هو عين التسبيح ، وانه كمال المجاهدة . وكان كثيرا ما يقول لمريديه « عليكم بالسبب .. وليجعل احدكم مكوكه سبحته ، او قادومه سبحته ، او تحريك اصابعه في الخياطة او الضفر سبحته » . وكان يدفع مريديه الى العمل ، ويقول : « فوالله ما رايت العز الا في رفع الهمة عن الخلق ، ولا السلامة في الدنيا الا بترك الطمع في المخلوقين » ، يقول المقرئ في « نفح الطيب » .. إن « ابا العباس » كان لا ينظر من الناس الا الى ما يبدو عليهم أو يصدر عنهم من تقوى وصلاح . فقد يدخل الى مجلسه رجل غير موصوف عند الناس بالصلاح والتقوى فيحتفى به . لأن الرجل الصالح ربما افضى الى هذا المجلس وعليه اثر مباهاة بعمله الصالح ، اما سواء من غيره الصلحاء ، فيدخل المجلس بكسر معصيته وذلل مخالفته ،

ولقد ظل قبر « ابي العباس » دون بناء عليه حتى عام ٦٠٧ هـ . حيث اقام عليه كبير تجار الاسكندرية الشيخ « زين الدين بن العطان » ضريحا وقبة ، وبنى بجواره مسجدا ، وحبس عليه بعض الاملاك .. بعد ان رأى رؤيا فى المنام فحققها .

وقد خضع المسجد لتطورات كثيرة بعد ذلك ، حيث اعاد بناءه الى الاسكندرية الامير « قجماش » فى اواخر القرن التاسع الهجرى ، وبنى لنفسه قبرا فيه . وفى عام ١٠٠٥ جدد بناءه الشيخ « ابو العباس السنفى » . ودفن فيه بعد وفاته . وفى سنة ١١٨٩ زار الاسكندرية الشيخ « ابو الحسن على بن عبد الله الخزرجى » ، وجدد معظم اجزاء المسجد ، ووسع بعض نواحيه ثم جدد فى عام ١٢٨٠ هـ « احمد الداخنى » شيخ طائفة التبنائين ، واقف عليه اوقافا كثيرة .

وكما تقول الدكتورة « سعاد ماهر » فى كتابها « مساجد مصر » .. وائل القرن العشرين اعادت وزارة الاوقاف بناء المسجد على مساحة تبلغ ٣٠٠٠ متر ، وبارتفاع ١٨ مترا . أما تصميم المسجد فهو يشبه الى حد كبير تصميم قبة الصخرة .. فهو يتكون من مثنى خارجى يبلغ طول كل ضلع من اضلاعه ٢٢ مترا ، بداخله مثنى آخر يكون من ثمان دعائم وستة عشر عمودا من الجرانيت ، وفى الوسط ثمانية اعمدة تقوم عليها قبة مثمثة يبلغ محيطها ٥١ مترا .

وللمسجد ثلاثة مداخل رئيسية كلها معلقة ، اذ يصعد اليها الصاعد بدرج ، احدها فى الجهة الشمالية فى مواجهة حائط القبلة التى تقع فى الضلع الجنوبى ، والاخر فى الجهة الشرقية ، والثالث وراء حائط القبلة .

كما اقيم فوق الاضحية قبتان : الغربية منها فوق ضريح ابي العباس رضى الله عنه وولديه . والشرقية تعلو ضريح ابن ابي شامة ، وابن الحاجب ، والفكهاى ، وابن اللبان . والامير قجماش . والخزرجى . وفى الضلع الجنوبى للمسجد توجد المئذنة التى يبلغ ارتفاعها ٧٣ مترا ، ولها اربعة طوابق .. وقد بلغت تكاليف انشاء المسجد ما يقرب من ربع مليون جنيه مصرى .

هذا المسجد الذى تسمق مئذنته العالية فى حى رأس التين بالاسكندرية ، له قصة مع المهندس الذى بناه ، والقصة تمتزج فيها البركات مع الكرامات مع المفارقات فى تلك البقعة الطاهرة المدفون فيها سيدى « ابو العباس المرسى » رضى الله عنه .. حارس الاسكندرية ، والذى يعشقه اهل مصر ، ويعتبرونه مضد خير ، خاصة التجار منهم .. وتجار الاسكندرية على وجه الخصوص ..

والقصة المذكورة في كتاب الدكتور « حسين مؤنس » بعنوان « احاديث منتصف الليل » وساذكرها بلا تعليق .. وإنما اتركه للقارئ الكريم :
في حوالى سنة ١٩٢٨ ، وفد على مصر مهندس إيطالى شاب إستدعته الحكومة المصرية للاستعانة به في اعمال تعمير المساجد ، الذى كانت تقوم به وزارة الاوقاف في ذلك الحين . كان اسمه « ماريو روسى » ، وكان مهندسا معماريا ، وعالما ، رغم صغر سنه .

كان « روسى » طرازاً موهوباً من الرجال ، وكان طويل الصمت والفكر مغرماً بالبحث في العمارة الماضية واكتشاف كنوزها ، وانشاء عمارة جديدة على اساسها .

والى جانب ماكانت وزارة الاوقاف تكلفه به من أعمال ترميم وبناء .. مضى « روسى » يزور المساجد والبيوت الاثرية التى كانت في مصر ، وينقل كل ما فيها من نقوش اسلامية على ورق . واستمر في ذلك العمل سنوات طويلة ، أنشأ فيها مجموعات هائلة من اللوحات .. وهذه اللوحات المحفوظة الآن في محفوظات وزارة الاوقاف المصرية أعظم ذخرفنى في العمارة الاسلامية في مصر .

وبينما كان « روسى » يقوم بهذا العمل .. طلبت اليه وزارة الاوقاف ان يعد مشروعا لاعادة بناء مسجد ولى الاسكندرية وحارسها ابى العباس المرسى .

ونهض « روسى » بالعمل .. فعمل مشروعا بديعا لبناء المسجد ، يعتمد على الاصول والنماذج الفنية التى درسها ، وابتكر في هذا المشروع عناصر معمارية جديدة تمثل العقد المذهب المستطيل الى أعلى .. وفوق البلاطة - اى المربع الذى يقوم امام المحراب - اقام « روسى » قبة رائعة رفعها على اعمدة من الرخام وعقود مستطيلة ، وتعتبر هذه القبة من اجمل قباب المساجد المصرية الحديثة و

وبعد ان انتهى المسجد تبين للناس ان « روسى » قام بأجمل عمل معمارى دينى في العالم الاسلامى منذ قرون طويلة .. وأصبح مسجد ابى العباس المرسى موضع إعجاب المعمارين جميعا ، واتخذوه أساسا لانشاء المساجد الاسلامية الجديدة في مصر والعالم العربى .

- في أثناء ذلك كان « ماريو روسى » يقترب من الاسلام شيئا فشيئا ، من دراسة الآثار الاسلامية ، تنقل الى دراسة الاسلام ، فلم يلبث ان مال قلبه اليه ، فقد وجد فيه راحة النفس التى كان ينشدها منذ زمن طويل ، فدرس العربية حتى اتقنها ، أخذ يقرأ القرآن فازداد حبا للاسلام وقربا منه .. وتمكن الاسلام من قلبه .

و ذات ليلة كان يتمشى على شاطئ البحر في الاسكندرية .. توجه الى مسجد ابي العباس ، وسأل عن شيخ المسجد فاتاه ، فقال له :
.. أريد ان اعتنق الاسلام .

ونظر الشيخ اليه في شيء من الدهشة ، ولكنه رأى في وجه هذا الايطالى ايمانا بالغاً .
فقال له : لابد لنا من شهود .. لنجعل ذلك بعد صلاة العشاء .
وانقضت صلاة العشاء .

فلما انصرف الناس ، اقبل شيخ المسجد ، ومعه صاحبان له ..
وفي صحن المسجد اعلن « روسى » إسلامه ، وقرأ القرآن ، ثم قام فصلى مع المشايخ صلاة شكره ، ثم قال لهم انه يريد ان يقضى بقية الليل في المسجد .
كان ذلك في منتصف ليلة من ليالى مايو ١٩٤٦ ..
قام « روسى » على قدميه ، فصلى لله ، ثم جثا على ركبتيه ودعا الله دعاء طويلاً .. وترحم على ابي العباس ولى الاسكندرية وحارسها

إنتهت قصة المهندس الذى شيد جامع ابي العباس .
لكن لاتنتهى قصة هذا المهندس ، الذى اسلم بعد بنائه جامع ابي العباس .. فللقصة في ذهن كل مفكر تساؤلات وتساؤلات .. لكن في ذهن « روسى » قد يكون لها اسباب .. هى التى دفعته الى ان يعلن اسلامه .. ربما شاهد الكثير من « كرامات » ولى الله ، ابي العباس المرسى ...



نختم هذا الفصل عن « ابي العباس المرسى » بايراد بعض فقرات من حزبه الذى ذكره الامام « تاج الدين بن عطاء الله السكندرى » ، في كتابه « لطائف المفنن » .
والحزب يبدأ بالفاتحة ، وبعض الآيات والصور ، ومنها سورة المدثر وسورة اقرأ ، وآية من سورة الرحمن ، والصمدية ... ثم ادعية منها :

« اللهم يا بديع السموات والارض ، يا قيوم الدارين ، ويا قيوم بكل شيء ، يا حي يا قيوم يا الهنا ، لا اله الا انت ، كن لنا ولياً ونصيراً وأميناً ، وأمناً بك من كل شيء حتى لا نخاف الا انت ، واجعلنا في جوارك ، واحببنا بالذى حبيب بك اوليائك ، فترى ولا يراك أحد من خلقك ، واصبب علينا من الخير اكمله واجمله ، واصرف عنا من الشر اصغره وأكبره ، طس ، حم ، عسق ، مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » .

« اللهم إنا نسألك الخوف منك ، والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق اليك . والانس بك ، والرضا عنك . والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك . ناظرين منك اليك ، وناطقين بك عنك ، لا اله الا انت سبحانك ربنا ظلمنا أنفسنا ، وقد تبنا اليك قولا وعقدا فتب علينا جودا وعطفا ، واستعملنا بعمل ترضاه ، واصلح لنا في ذرياتنا إنا تبنا اليك ، وإنا من المسلمين » .

« ياغفور ، ياودود ، يابر ، يارحيم ، اغفر لنا ذنوبنا وقربنا بودك ، وصلنا بتوحيدك . وأرحمنا بطاعتك . ولاتعاقبنا بالفترة . بالوقفة من كل شيء دونك واحملنا على سبيل القصد ، واعصمنا من جائرها ، إنك على كل شيء قدير .

وختام حزب ابي العباس المرسى هو :

« يا الله ، يا قدير ، يا مريد ، يا عزيز ، يا حكيم ، يا حميد .. إنا نسألك بالقدرة العظمى . وبالمشيئة العليا . وبالأيات والأسماء كلها . وبهذا العظيم منها . ان تسخر لنا هذا البحر . وكل بحر هولاك في الارض والسماء والملك والملكوت . كما سخرت البحر لموسى . وسخرت النار لابراهيم . وسخرت الجبال والحديد لداود . وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان . وسخرنا كل شيء . يامن بيده ملكوت كل شيء . وهو يجير ولا يجار عليه . يا عليم يا عظيم . يا حليم .. »

ونختتم الحديث عن سيدي ابي العباس ، ندعومه .. بعض ما كان يدعوه الله العلي القدير .

« يا الله ، يا نور يا حق يا مبین : أحى قلبى بنورك ، وأثمتنى بشهودك ، وعرفنى الطريق اليك . رب اغفر لى واجعلنى لك عبدا ذائب النفس بأنورك . مطموس الحس بجلالك ، واغفر لى وللمؤمنين والمؤمنات .

« اللهم اغفر لى واسترنى ولا تفضضى فى الدنيا والآخرة ، وعلمنى وذكرنى وارحمنى وفرحنى وبرنى وفرغنى من كل شيء الا من ذكرك وطاعتك ، وطاعة رسلك ، ومحابك ومحاب رسلك صلى الله عليه وسلم .

« اللهم كن بنا رعوفا ، وعلينا عطوفا ، وخذ بأيدينا اليك أخذ الكرام عليك ، اللهم قومنا اذا اعوججنا ، وأعنا اذا استقمنا ، وخذ بأيدينا اذا عثرنا وكن لنا حيث كنا » .

« يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع بينى وبين طاعتك على مساعدتك وفرق بينى وبين هم الدنيا وهم الآخرة ، ونب عنى فى امرهما ، واجعل همى انت ، واملا قلبى بمحبتك

وبهجة بأنوارك ، وخشع قلبي بسلطان عظمتك ، ولاتكنلى الى نفسى طرفة عين ولا اقل من ذلك ، .

ونقول مع ابي العباس ، ونردد .. آمين آمين ..

ونقول ايضا ان هذه الادعية وغيرها .. وكذلك « حزبه » نقلناها عن كتاب الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » .. وغفر الله لكل من أبان شيئا عن حياة حارس الاسكندرية ابي العباس المرسى رضى الله عنه .

ونختتم الحديث برواية للإمام الشاذلى قال فيها : لن تهلك طائفة فيها امام وولى وصديق وشيخ . ثم قال : فالامام .. ابو العباس .

ولن نتحدث عن الكرامات .. فهى ملموسة ومحسوسة ، ولكن نقول ونذكر ان ابا العباس كان يقول : « والله ماجلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتى » ..



البوصيرى

امام المادحين
وسلطان العاشقين



● ● كاننى المح هذا الرجل ، بعوده النحيل ، وقوامه الاقرب من القصر الى الطول وهو يسير فى شوارع القاهرة القديمة حول الجامع الازهر بالقرب من المشهد الحسينى .. او فى حى باب سدره القديم بالاسكندرية .. يخطو خطوات يظن من يلحظه انشاءها انه سيكبو ويتعثر .

لكن هذه المشية صارت عادية عند الكثيرين الذين يعرفونه .
انما الذى كان يثير الناس ، ويخطف ابصارهم ، ويجعل بعضهم يهرول اليه ، ليقبل يديه .. ما اشيع عنه من ان جسده ينثر عطرا من نوع خاص .. وان الشيب فى لحيته تنبعث منه شعاعات من نور .. وثغره ياخذ سمع الرضا والابتسام دائما لم يكن شيخ طريقة .. ولا صاحب نظرية فى التصوف .

هو مصرى متدين . كانت أمنيته ان تكون حياته خالصة للتصوف . مصرى يمثل خصائص البيئة المصرية الاصيلية ، بالايمان المتاصل فى النفس المصرية عموما حتى النخاع .. ومع الايمان « سخرية » انضجتها الايام والاحداث التى سبقت عصره بقرون وقرون ...

وهو فنان بمفهوم العصر الحديث ..
لكنه فنان ملتزم بعصره واحداثه . فنان مؤمن شديد الايمان ، عاش فى عصر كفىل بان تنبثق من احشائه عشرات مثله من الفنانين الصادقين الموهوبين .. او سمهم العباقرة ان شئت .

ولوحات هذا الفنان تتوزع بين غرضين .. الاحتجاج الساخر .. والتعبير الدينى الصادق .. لكن الغرض الاخير ، ولو انه استغرق فترة من حياته فقد عرف به واشتهر .. وصار من الائمة والاولياء .

ورغم ان اهل مصر ، وغير مصر ، صاروا يزدنون منه .. الا انه عاش انسانا عاديا بسيطا متصوفا على الكفاف ، يعانى شظف العيش وكثرة الاولاد .

وكان الامراء والولاة والسلاطين يعرفون قدره ويخطبون وده لكنه كان يحفظ عن ظهر قلب ما قاله قطب فى التصوف من ان « لحوم الاولياء مسمومة » .. فلم يكن

هو بالذى يسكن على ضيم او يغمض عينه على معصية ، او يتهاون فى حق وطنه .. من اجل اغراء الاصفر الرنان .

بلاده .. مصر افتقدت الامن والامان ، واستشرت فيها الانتهازية والمرقزة . ووطنه المسلم تهددته الحروب والكوارث والابوينة والمجاعات .. والانتهازية بدأت انيابها تبرز ومخالبها تنشبها فى كل من يقول كلمة حق .

لكنه بايمانه القوى لم يخف ، ولم ترتعد فرائصه ، بل خصص فنه وعبقريته لكشف هؤلاء ، ولتعقبهم فى كل مكان . وشجاعته هذه جلبت عليه الكثير من المسغبة وشظف العيش . حتى صار انسانا « مكافحته » واجبة .

لكنه ظل صامدا ، صابرا ، اصيلا رغم كثرة العيال ، ورغم ظروفه التى لم تقدر رسالته . فى عصر خلا من المبادئ والقيم والاخلاق لدرجة ان بعض الفقهاء والقضاة لم يراعوا حق الله .

وكمؤمن صلب . ظل على مبدئه مهما عيس الزمان وقطب فى وجهه .. اقتحم اسوار كل عمل شريف يأتى بلقمة حلال ولو جاع العيال .. ثم كانت « خبطته » الكبرى .. او ضربة العمر فى بحر البسيط .. قصيدته التى تخاطف ابياتها الناس ، وصارت هى محور الاهتمام والبركات ، و« مرفا » نفسيا .. فى بحر الحياة المتلاطم بامواجه ..

قلبت هذه القصيدة المفاهيم ، واثرت على الوجدان .. هذه القصيدة انتهت غزبته ، ورفعت اسمه وصيته فى كل مكان .. لقد صار بها هذا الرجل تاجا على رعوس المؤمنين من البسطاء وقطبيا « غوثيا » عند المؤمنين من المتصوفة .. وهو بين الشعراء صار اماما للمادحين وسلطانا للعاشقين للرسول ﷺ واهل بيته الكرام .. انه « البوصيرى » الشاعر القطب المؤمن .. الانسان المصرى المؤمن ..



شهدوا جميعا .. بانه امام المادحين للنور المهدى ..

وعقدوا له لواء امارة الشعر الدينى ..

فلقد جاءت قصيدته فى مدح رسول الله ﷺ آية فى البركات والنفحات مؤججة للوجدان الدينى .. كما ان فى القصيدة - التى تحوى مائة وستين بيتا - اشياء اخرى كثيرة .. حتى ان الدكتور « زكى مبارك » - او الدكاترة « زكى مبارك » ، والذى

لا يعرف قدره ابناء هذا الجيل ، كتب يقول : « والبوصيرى بهذه البردة هو الاستاذ الاعظم لجماهير المسلمين . ولقصيدته اثر في تعليمهم الادب والتاريخ والاخلاق . فعن البردة تلقى الناس طوائف من الالفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب . وعن البردة عرفوا ابوابا من السيرة النبوية . وعن البردة تلقوا ابلغ درس في كرم الشمائل والخلال . وكذلك استطاع البوصيرى ، بتصوفه ، ان يؤثر في الادب والاخلاق تأثيرا لا يدرك كنهه الا من رأى كيف تدور البردة على السنة العوام ، وكيف تهذب ماطبعوا عليه من عنجهية الخصال . وليس من القليل ان تنفذ هذه القصيدة بسحرها الاخاذ الى مختلف الاقطار الاسلامية ، وان يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب الى الله والرسول .. »

لقد انعم الله على الامام « البوصيرى » بهذه القصيدة .. بعد رحلة معاناة طويلة ومثيرة لحياته ، ظلت تعزف الشعر ، وتتناغم فيها الكلمات .. لفترة تربو على اكثر من نصف قرن من الزمان ، وفي حياة امتدت ثمانية وثمانين عاما . فجاءت البردة تاجا لشعره .. ونموذجا طيبا للشعراء العاشقين ، المادحين للرسول ﷺ ..

لقد قال « البوصيرى » في حياته الطويلة المثيرة شعرا كثيرا ..

وخاض « البوصيرى » كل اغراض الشعر .. كما خاض اغلب بحوره .. كانت حياته شعرا في شعر ، في كل مكان في مصر زاره او عمل فيه .. لكن « البردة » .. انست الناس جميع شعره .. وهى التى خلدت ذكره ، ورفعت صيته ، وجعلته على راس شعراء المديح المحبين العاشقين للرسول ، واهل بيته الكرام .. كما انها - القصيدة - التى رفعت من شأنه عند المتصوفة ، الذين رفعوه بهذه القصيدة الى مقام « القطبانية » .. و « الغوثية » ..

ورغم ان هذه القصيدة لم تكن اولى قصائد المديح لرسول الله ﷺ في الشعر العربى .. او هى القصيدة الوحيدة « للبوصيرى » .. كما لم تكن هى آخر قصائد المديح ايضا ، ولن تكون كذلك .. فان هذه القصيدة بظروف عصرها الذى قيلت فيه ، وبالوجدان المسلم التقى وبالملايسات والمناخ الذى ظهرت فيه .. كل ذلك جعلها « درة » شعر المديح النبوى ..

ولذلك ، فان امير الشعراء « احمد شوقى » ، رغم انه كتب « نهج البردة » ، والتى تعتبر من عيون الشعر العربى ، ومن اجود القصائد التى قيلت في المديح .. كما كتب الهمزية في مدح الرسول ﷺ ، وهى كما جاء في كتاب الدكتور « حسين مؤنس » « احاديث منتصف الليل » .. احلى واجود من همزية البوصيرى ، حين اعترف شوقى

بذلك .. وايداه الشاعر عبدالرحمن صدقى .. اقول رغم ذلك كله .. فلقد شهد شوقى نفسه للبوصيرى وبايه قاتلا جالامارة ، واعتذر له مؤكدا انه لم يكتب معارضا للبوصيرى :

الملاحون وارباب الهوى تبعوا
لصاحب البردة الفجاء فى القدم
مسيحه بك حب خلص وهوى
وصلى الحب بملى صلقى الكلم
الله يعلم انى لا اعرضه
من ذا يعارض سبيل العراض العرم
وانما انا بعض الغابطين ، ومن
يغبط ولبك لم يذمم ولم يلم
هذا مقام من الرحمن مقتبس
ترى مهلبته سحبان بالكلم

« شوقى » هنا يعترف « للبوصيرى » بأنه امام المادحين ، وامام الشعراء المجيدين فى مدح الرسول ﷺ . ويعترف له ايضا بأن كل الشعراء الذين خاضوا بحر المديح للرسول عليه الصلاة والسلام قبل « البوصيرى » ، وبعده ، هم « اتباع » لهذا الامام .. فهو - اى البوصيرى - كالسيل العرم ، وهو صادق ، وان هذا الصدق يأتى بصادق الكلام والشعور . او صدق « بردة البوصيرى » ..

وهذه الابيات التى قالها « شوقى » فى « البوصيرى » ، هى من قصيدته « نهج البردة » ، التى نظمها واهداها للخديو .. تكفيرا له عن هروبه من رحلة الحج الى بيت الله الحرام ..

فلقد كان الخديو ، قد اصدر فرمانه ، بأن يسافر شاعره معه فى هذه الرحلة المقدسة .. ووقع شوقى فى « مطب » كبير .. يبدو انه لم يكن مهيا نفسيا للحج الى بيت الله الحرام . لكنه بالفعل ركب القطار المسافر من القاهرة الى الاسماعيلية . وحين وصل الى هذه المدينة ونزل منه الخديو استعدادا لركوب السفينة .. تسرب الشاعر واختفى ، دون ان يراه او يدرى به احد .. وعاد للقاهرة . وفى الطريق الى رحلة الحج ووسط مياه البحر ، سأل الخديو عن شاعره ، وبحثوا عنه فلم يجده . فغضب الخديو على شوقى لمخالفة امره .. ووصل هذا الخبر الى شوقى . وفكر شوقى فى اعتذار رقيق

للخديو على ما بدر منه . كانت قصيدة « نهج البردة » التي قدمها ، والتي تقع في مائة
وثمانين بيتا من اجود الشعر وأرصنه ، واحفله بالتراكيب الموسيقية ..

ولقد نشرت « نهج البردة » .. لأول مرة في جريدة « المؤيد » التي كان يرأس
تحريرها الشيخ « علي يوسف » في العدد الصادر في ٢٦ يناير ١٩١٠ كما نشرت في
كتيب مستقل ، مشروحة بقلم الشيخ « سليم البشري » . وهذه القصيدة مطلعها :

ريم على القاع بين البلى والعلم
احل سفك ندى في الاشهر الحرم
رمى الفضلاء بعيني جؤنر اسدا
يا سكن القاع انك سكن الاجم
لما رنا حذقتي النلس قلالة
ياويح جنبك بالسهم المصيب رمي
جحنها وكنت السهم في كبدى
جرح الاحبة عندي غير ذى الم
رزقت اسمح ما فى النلس من خلق
اذا رزقت النلس العطر فى الشيم

والواقع انه ما اكثر القصائد العصماء - الحافلة بالمدائح النبوية - التي قالها
الشعراء منذ بدء الرسالة وحتى الآن .. ونحن قد قدمنا قصيدة « نهج البردة » لأمير
الشعراء « احمد شوقي » لانه قريب العهد بنا ..

وكل من يقرأ في تاريخ الشعر الدينى العربى الاسلامى ، يستطيع ان يحصى
الالوف المؤلفة لشعراء أجادوا في مدح الرسول ، ولم تسعفهم وسائلهم الى ان ينالوا
الشهرة كما نالها البوصيرى .. لكن يبقى ان نقول عن هؤلاء الشعراء انهم قالوا
قصائدهم في مديح رسول الله ﷺ من نبع الحب للرسول ولآل بيته الكرام . ولا نشك في
محبة هؤلاء لرسول الله واهل بيته الشريف .. وانما الحب درجات بالطبع .. وهذا هو
سبب تفضيل شاعر على آخر ، وقصيدة على مثيلتها ..

والواقع انه يقف بجانب « بردة » البوصيرى ، و« نهج البردة » لشوقي قصيدة
اخرى ثالثة .. هي التي ينبغي علينا كمنصفين متجربين ان نعقد لها الريادة في شعر
المديح ، وهي قصيدة الشاعر « كعب بن زهير بن ابي سلمى » ..
وقبل ان نتحدث عن هذه القصيدة .. ينبغي ان نلفت الانظار اولا .. الى ان
الاعمال الكبار ، او التي نعتبرها كذلك - ومهما كانت صفة صاحبها .. لا تكون كذلك

الا من خلال مناخات وظروف وملابس .. هي التي تعطى هذا العمل ، او ذاك ، تلك الشهرة العالية ، او غير العالية ..

فالمناسبة والموضوع والظروف .. من الممكن ان تنفذ عملا فنيا جيدا .. ومن الممكن ايضا ان تعطى لواء الشهرة والذيع لعمل عادى ..

ففى عصر الصدر الاول من الاسلام قيلت قصائد كثيرة وجيدة في مدح الرسول ﷺ .. وهذه القصائد لشعراء كبار مشهورين ، مثل « الاعشى » ، و « حسان بن ثابت » وغيرهما من الذين امتلا باسمائهم وقصائدهم ديوان الشعر العربى ، على مدى اربعة عشر قرنا من الزمان .. لكن القصيدة التي اشتهرت اكثر من غيرها في تلك الفترة هي قصيدة « كعب بن زهير » .. والسبب كما قلت هو الظروف والملابس التي عايشتها .. وهذه القصيدة مطلعها :

بانت سعد فقلبي اليوم متبول
متيم اثرها لم يقد مكبول
وما سعد غداة البين اذ برزت
الا اغن غضيف الطرب مكبول
نبئت ان رسول الله اوعدنى
والعفو عند رسول الله مامول

وهذه القصيدة ، لها قصة ترويحها الكتب .. فهذا الشاعر الذى شاهد ظلام الجاهلية ونور الاسلام واليقين ، كان شاعرا فذا ، ورث الشعر عن ابيه « زهير بن ابي سلمى » . ولقد ظهر نبوغ « كعب » عند اشراق شمس الاسلام - اوقبله - وفي مفتتح الاسلام اضاء الله قلب اخ له واسمه « بجيرا » .. الذى اقبل على الاسلام وذهب الى الرسول ﷺ واشهر اسلامه ، فكان هذا - على ما يبدو - مما اثار « كعبا » ، وجعله يتورط في هجاء اخيه ، وهجاء الدين الجديد .

وكما كان الشعر هو اعلام العصر .. فقد كان لقصيدة كعب تأثير كبير ، خاصة والرسالة النبوية الشريفة في بدايتها . ويقال ان الرسول ﷺ حينما علم بالقصيدة اهدر دم قائلها ، وبعث اليه باخيه « بجيرا » يحذره وينذره .

لكن يبدو ان « كعبا » في تلك الفترة مس شغاف قلبه نور الايمان ، فقدم على الرسول ﷺ محبا ، وداخل في الدين ، طالبا من الرسول الصفح والعفو عما بدر منه من جهالة ..

وانشد بين يدي الرسول ، وعلى رموس الاشهاد قصيدته « بانت سعد » ..

ويقول الرواة ، ان هذه القصيدة اعجبت الرسول عليه الصلاة والسلام .. ولذلك فانه
 ﷺ ، لم يكتف باظهار العفو عن « كعب » ، وانما خلع عليه بردته .. اوعبائه .. فكان مما
 اشهر « كعبا » على شهرته واشهر قصيدته بين العرب اجمعين .

والروايات تتسلسل وتتصل .. زيادة في الشهرة ، فتزعم ان « معاوية بن ابي
 سفيان » اراد ان يشتري « بردة » الرسول ﷺ من « كعب » واغلى له الثمن ، لكن « كعبا »
 ابي ان يبيعها « لمعاوية » . وانه لما مات « كعب » - فيما بعد - راجع « معاوية » اهله ،
 واستطاع ان يشتريها منهم بثمن ضخم ، وان هذه « البردة » . هي التي توارثها
 الخلفاء .. وكانوا يخرجون بها الى الناس ، في مواكب العيدين . وربما في مواكب الحرب
 تبركا ، وطلبا للنصر ..

ظروف هذه القصيدة اذن ، تلك التي صارت قصة تتصل بالرسول ، اشاعتها على
 مرور الايام ، وكانت سببا في ذيوها الى الان ، بل ان الدكتور « زكى مبارك » يرى ان
 « بانث سعاد » لولاما في الفاظها من الوعورة ، لشاعت في البيئات الصوفية ، واصبحت من
 جملة الاوراد ، وكان لها ماضيا للبردة من السيورة بين العوام والخواص . وبهذا يضيف
 « زكى مبارك » شيئا اخر الى ما اصفناه عن الظروف والملابسات .. وهو نوعية العمل الفني
 وسلاسته ..

وبالطبع ، فان لبردة الامام « البوصيرى » ظروفها كانت السبب في ذيوها وتداولها ..
 وان كان ذلك لاينفى ان الموضوع نفسه ، والنظم الجيد والصدق .. لها تاثير عند المتلقى
 المسلم . ويؤكد ذلك .. ان « للبوصيرى » ، نفسه عدة قصائد في المديح النبوى الشريف ،
 يربو عددها على تسع قصائد ، منها « الهزيمة » في ٤٥ بيتا ، والتي سماها « ام القرى في
 مدح خير الورى » كما ان لـ « احمد شوقى » كذلك قصائد نبوية كثيرة .. لكن لم يشتهر من
 اشعار « البوصيرى » سوى « البردة » .. ولم تشتهر من اشعار « شوقى » الاسلامية -
 او الاسلاميات - سوى « نهج البردة » ..



والسؤال هو : ماهى الظروف التي لا يست ذيو « بردة » البوصيرى ، التي حملت
 اسم « الكواكب الدرية في مدح خير البرية » .. قبل ان يطلق عليها « البردة » .. بعد ان
 بدأت تذيب وتشتهر بين جماهير المؤمنين ؟ ..
 الواقع انه كما ان لبردة « كعب بن زهير » قصة .. فقد نسجت حول بردة
 « البوصيرى » اقصيص وروايات .. وهذه القصص لم تأت على لسان احد ، وانما رواها
 « البوصيرى » نفسه ..

يقول الامام « البوصيرى » ، فيما يشبه قصة « كعب بن زهير » مع الرسول ﷺ .. مع الاختلاف طبعاً :-

« كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ ، منها ما كان اقترحه عليّ الصاحب زين الدين بن يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك ان صاحبنى فالج فأبطل نصفى ، ففكرت في عمل قصيدتى هذه فعملتها واستشفعت بها الى الله تعالى ان يعافينى ، وكبرت إنشادها ، ودعوت وتوسلت ، ونمت ، فرأيت النبى ﷺ ، فمسح وجهى بيده المباركة ، وألقى على بردة . فانتبهت ووجدت فى نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ، ولم أكن بذلك قد اعلمت احداً ، فلقينى بعض الفقراء ، فقال لى : اريد ان تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ ..

فقلت : ايها ؟ . فقال : التى انشأتها فى مرضك وذكر اولها . وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله ﷺ ، ورأيت رسول ﷺ يتمايل وقد أعجبت به ، وألقى على من انشدها بردة فأعطيته إياها ، وذكر الفقير الصوفى ذلك وشاع المنام .

* * *

ويتصل بهذه القصة ، قصة أخرى تضاف الى سابقتها للتأكيد على أن هذه القصيدة إحدى البركات . فقد روى « البوصيرى » ايضاً .. انه وهىقرأ القصيدة - فى المنام - على حضرة الرسول ﷺ ، وحين وصل الى الشطر الاول من البيت الذى فيه « فمبلغ العلم فيه انه بشر » ، لم يستطع تكلمة البيت . فتوقف ، فقال له ﷺ : إقرأ . فقال : إني لم أوفق « للمصراع » أى الشطر الثانى للبيت . فقال له الرسول ﷺ : قل : « وانه خير خلق الله كلهم » .. فكان أن ادرج البوصيرى هذا « المصراع » الذى قاله النبى ﷺ ، وجعله صلاة مكرورة بعد كل بيت ، حرصاً على لفظ النبى عليه الصلاة والسلام ، فكان يقرأ بعد كل بيت من أبيات البردة ، كما يلى :

مولأى صل وسلم دائماً ابداً

على حبيبك خير الخلق كلهم

* * *

وقصة ثالثة تتصل بسا سبقها من قصص حول « بردة البوصيرى » ، او هى تنبنى عليها .. وقد روتها كتب كثيرة ، منها كتاب « محمد بن شاذل الكتبى » « الوافى بالوفيات » .. والذى جعله مؤلفه ذيلاً لكتاب « وفيات الاعيان » « لابن خلكان » .

وهذه القصة تروى على لسان « البوصيرى » .. بعدما اعطى « البوصيرى »
البردة للفقيه الصوفي .. يقول :

« فاعطيت اياها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام الى ان اتصل بالصاحب بهاء
الدين محمد بن حسن ، وزير الظاهر بيبرس ، فبعث اليها واخذها وحلف الا يسمعها الا
قائما حافيا مكشوف الرأس . وكان يحب سماعها هو واهل بيته ..

« ثم انه بعد ذلك ادرك سعد الدين الفارقي رمد اشرف منه على العمى ، فرأى في
المنام قائلا يقول له : اذهب الى صاحب . وذهب ، وذكر منامه . فقال صاحب :
ما اعرف عندى بردة من اثر النبى ﷺ . ثم فكر ساعة ، وقال : لعل المراد قصيدة
البوصيرى . يا ياقوت : افتح الصندوق الذى فيه الاثار ، وأخرج قصيدة البوصيرى
وات بها . فأتى بها ، فأخذها سعد الدين ، ووضعها على عينيه ، فعوفى .. »
هذه القصص وتلك الحكايات تعطى للبردة بركات وأهمية خاصة .. فقصيدة
البوصيرى هنا .. تمتزج ببردة الرسول .. مما يجعلها مطلبا لكل مسلم .. تبركا أو
شفاء ..



وكما ان للبردة البوصيرية قصصا وروايات متسلسلة ..
فكذلك التسمية نفسها .. فهذه التسمية للقصيدة « بالبردة » ، هى من نسج
« البوصيرى » نفسه .. تبركا « ببردة » ، « كعب بن زهير » ، تلك القصيدة التى
يعرف « البوصيرى » قيمتها اكثر من غيره كشاعر فنان متذوق وشاعر مديح من
الدرجة الاولى .
وهذه القصص فى الواقع تحتاج الى وقفة موضوعية .

وانا هنا لا اقصد مناقشة الرؤيا التى شاهدها « البوصيرى » ، فأهل الله مع
الصوفية لهم رؤاهم ، « والبوصيرى » كان رجلا صوفيا ، خاصة فى السنوات
الاخيرة من حياته الحافلة ، كذلك فأنا لا أناقش قصة مرضه بالفالج أو الشلل
النصفى ، ومرض سعد الدين الفارقي .. وما لقيه الاثنان من شفاء . انما انا هنا
أناقش تلك اللقطة التى قالت فى الرؤيا ان الرسول ﷺ قد استكمل الشطر الثانى من
أحد ابیات قصيدة « البوصيرى » .. خاصة وان هناك خلافا بين مؤرخى
« البوصيرى » على ماهو هذا البيت الذى اكمله الرسول ﷺ فى المنام :

هل هو البيت الذى يقول :
 محمد سيد الكونين والثقلين
 والفريقين من عرب ومن عجم
 أم هو البيت الذى ورد فى قصة « البوصيرى » ، التى ذكرناها ؟

والواقع أن هذين البيتين لمن يتمعن فى قراءة « بردة » « البوصيرى » ، رغم أنهما جيدان ، فإنهما ليسا خيراً من القصيدة من أبيات ، حتى يمكن أن نجد لهذه الحكاية سنداً يمهّد للاقتناع بها . ويوافقنا على ذلك « عبد العليم القباني » ، صاحب كتاب « البوصيرى حياته وشعره » . قرغم أن الرسول ﷺ معصوم عن قول الشعر بنص الآية القرآنية التى تقول : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » - من سورة يس - فإن التكملة لا ترقى إلى مرتبة جيد الشعر ، وليس فيها من الاشراف والبلاغة مما اتصف به الرسول ﷺ .

ويؤكد من رأينا أو يدعّمه .. أن أبيات « البردة » ، برغم حلاوتها وطلاوتها .. فإن التكملة التى قال « البوصيرى » ، إنما جاءت فى المنام فى البيت ... « وأنه خير خلق الله كلهم » .. هذه التكملة وردت فى قصيدة لشاعر اسمه « الصرصرى » المتوفى ٦٥٦ . وقد أورد البيت الأستاذ « محمد سيد كيلانى » فى مقدمته لديوان « البوصيرى » . بمعنى أن « البوصيرى » لم يأت بجديد فى هذا البيت . وحتى « البوصيرى » نفسه ، جاء ببيت شبيه بالبيت الذى قال أن النبى ﷺ أكمله .. جاء به فى قصيدة له قبل « البردة » .. وهى قصيدة « ذخر المعاد » .. التى وجدها الأستاذ « محمد سيد كيلانى » فى ديوان « البوصيرى » : فقصيدته « ذخر المعاد » فيها بيت يقول :

والمصطفى خير خلق الله كلهم

له الرسل ترجيح وتفضيل

هذه بعض الملاحظات .. أوردتها ، ولا ينبغي أن يفهم منها أنها تحاول انقاص شاعرية ، أو صدق .. أو قيمة الامام « البوصيرى » .. أو « بردته » . فالعمل الجيد دائماً يحير ، ويلتصق به عشرات القصص والروايات ، والتى تصبح موروثات على مدى القرن .. تزيد وتنقص وتجعل النقاد فى حيرة التقديرات أمامها .

وهناك ملاحظات أخرى على بردة البوصيرى ، ليست هى من ملاحظتنا . وإنما هى واردة فى الكتب ، اردنا ان نذكرها هنا عملا بالصدق العلمى .. وهى انما تدل على أن « بردة البوصيرى » كانت فتحة كبيرا اقام الدنيا وشغل الناس .

فهناك بعض الافكار فى القصيدة لقيت اعتراضات من بعض المتمسكين بحرفية النصوص ، وعلى رأسهم الامام « ابن تيمية » . فلقد قيل ان بعض أبيات القصيدة تجاوز الحد الى الدرجة التى يمكن ان تكون شطحات شاعر . وقد أنكروا على « البوصيرى » بعض الاغراق الذى وصل الى حد التجاوز المسموح لرجل مسلم . وذكروا عدة أبيات من البردة تدل على ذلك وتشهد عليه . مثل البيت الذى يقول :

فان من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

والبيت الذى يقول أيضا :

لو ناسبت قدره أياته عظما

أحيما اسمه حين يدعى دارس الزم

فبالنسبة للشطر الاول من البيت الاول .. انكر المنكرون على « البوصيرى » ان تكون الدنيا والآخرة ، وهما مجلى ملكوت الله عز وجل ، من جود سيدنا « محمد » ﷺ . وهو على أية حال تساؤل لاترى الصوفية فى اجابته مايمس العقيدة . اذ أنهم يؤمنون - أو على الأقل - كما يقول « عبد العليم القباني » - يؤمن اكثرهم بأولية النور المحمدى للكائنات ، وأنها منه وجدت . كذلك أنكروا على الامام « البوصيرى » قوله فى الشطر الثانى من البيت الاول .. أنه كيف يكون علم اللوح والقلم من علوم سيدنا رسول الله ﷺ ... بينما ان هذه العلوم المثبتة باللوح « علم الغيب » مالا يعلمه الرسول حسب النص القرآنى « ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » . وهنا يجيب المدافعون عن البوصيرى ، فيقولون بأن علم اللوح المذكور فى قصيدة « البوصيرى » انما يعنى العلم القرآنى : « بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ » . ويقول البعض كذلك ان هذا يعود الى مسألة أهل الظاهر وأهل الباطن . والرسول كان يعلم الغيب فعلا بمقدار ، لانه ﷺ أخير ببعض ما أذن له ان يخبر به ، مثل قوله فى عمار بن ياسر « تقتله الفئة الباغية » ، وقوله ﷺ فى أبى ذر الغفارى « سيموت غريبا » .

وبالنسبة للبيت الثانى الذى ذكرناه ، يعترض المعترضون على شطره الاول بأنه لايجب على المسلم ان يلوذ بغير الله ، وبخاصة فى هذا الموقف الصعب ، يوم الحشر العظيم : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه .. » ويدللون على ذلك بأن الرسول ﷺ يقول لابنته السيدة « فاطمة الزهراء » رضى الله عنها : « يا فاطمة بنت محمد اعملى ، فانى لا اغنى عنك من الله شيئاً » . لكن يرد البعض على المعترضين بطائفة من احاديث الرسول ﷺ ، المعروفة بأحاديث الشفاعة .. وكذلك يردون ببعض التفسيرات لآيات بينات من القرآن الكريم .

اما الشطر الثانى ، فيقول المعترضون ، إنه من المبالغة غير المطلوبة أن يكون اسم النبى الكريم ﷺ ، وسيلة لحياء الموتى . وان المسيح عليه السلام انما احيا الموتى باذن الله . ويرد البعض عليهم منصفين « البوصيرى » بأن حرف « لو » الذى يفيد الامتناع ، ينفى معقول المبالغة .. وإذن لاشئ فى هذا البيت « للبوصيرى » مما يتناقى مع العقيدة الاسلامية هذا من جهة ..

ومن جهة اخرى فان هناك دائما من يحاولون النيل من كل عظيم . فالبعض حاول ان يقول ان « البوصيرى » .. فى برده كان ناقلا ، أو هو متأثر بقصائد غيره من الشعراء . وقد ذكرنا ماكان له مع قصيدة « كعب بن زهير »

ونذكر هنا من يقول ايضا إن « البوصيرى » تأثر بميمية « ابن الفارض » التى مطلعها :

هل نار سلمى بدت بذى سلم
ام بارق لاح فى الزوراء فالعلم

فهذا المطلع يكاد يتطابق مع مطلع بردة الامام « البوصيرى » :

امن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلّة بدم

وبالعوض ايضا يرى أن الكثير من المعانى الواردة فى « البردة » .. تتطابق ايضا مع ماقاله « ابن الفارض » ، خاصة فى البيت الذى يقول فيه :

يالائما منى فى حبههم سفها
كف الملام فلو احببت لم تلم

هذا البيت شبه به بيت « البوصيرى » الذى يقول فيه :

يالا لئى فى الهوى العذرى معذرة

منى اليك ، ولو انصفت لم تلم

نحن هنا نعترف بالتشابهات .. فى الابيات التى اتينا بأمثلة عليها .. لكننا نقول إن « البوصيرى » هنا يتضح حفظه للتراث الشعرى الدينى فى قلبه ووجدانه .. وكثيرا ماتلتقى أفكار الشعراء وأساليبيهم بدون تعارف بينهم سواء فى عصورهم .. أم فى غير عصورهم ..

هذا بعض ماثير حول برودة الامام « البوصيرى » .

على أن المؤرخين المنصفين للامام « البوصيرى » يعترفون انه مهما قيل فى هذه القصيدة المباركة ، وعلى فرض ثبوت المبالغات ، وثبوت الاقتباسات او التأثيرات بقصائد أخرى .. فان قصيدة « البوصيرى » كانت تعتبر فتحة جديدا فى وقتها . كما انه لا ينقص من قيمة « البوصيرى » او شعره او قدرته انه كان مخلصا وكان صادقا فى مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. « فالإخلاص - كما يقول د . زكى مبارك - هو الذى مكن البوصيرى من ناصية المجد الادبى ، وهو الذى رفعه الى منزلة الخلود .. » .



والدليل على قيمة « برودة » « البوصيرى » ، انها نالت من الاهتمام مالم تنله قصيدة أخرى فى تاريخ ديوان الشعراء العربى ، لقد كان نصها مباركا يحفظ فى الخزائن الامينة فى البيوت تبركا وتوسلا الى الله ورسوله وتبارى أصحاب الخطوط الجميلة ، فكتبوا نصها برقائق الذهب .. وصنعوا منها - وكانوا هم من الفنانين الكبار - لوحات متنوعة زينت الجدران .. ومنها جدران مسجد « البوصيرى » نفسه بالاسكندرية .

وهناك نسختان من « البرودة » مخطوطتان شاهدتهما فى مكتبة محافظة الاسكندرية .. وهما نموذجان حيان للعناية التى كانت « للبرودة » وصاحبها .. والنسختان مكتوبتان بماء الذهب ..

والنسخة الخطية الاولى - مكتوب فى آخرها بشكل هرمى مقلوب « برسم خزانة مولانا السلطان الظاهر ، خدمة مملوكه توزى المكى الظاهرى » .

أما النسخة الثانية فمكتوب على صفحتها الأخيرة « برسم الست المصونة الكبرى عائشة ابنة اسماعيل الخازن صان الله جمالها . أمين » .

وبالإضافة الى هاتين النسختين .. ففي مكتبة « الاسكندرية » عشرات النسخ المخطوطة بعشرات الشروح لها .. بالإضافة الى المعارضات والتخميسات والتسبيعات لها .. وقد استطعت تصوير الكثير منها .. وقمت بنشرها بمناسبة إقامة « أمسية البوصيري » في الاسكندرية في صيف عام ١٩٧٧ .

وعلى سبيل المثال ، لا الحصر .. فهناك شروح للبردة ، قام بها الكثيرون منهم الشيخ ابراهيم الباجوري .. والشيخ خالد الأزهرى ، والشيخ حسن العدوى الحمزاوى ومحيى الدين زاده ، ومحمد رضوان .. وهذه الشروح مطبوعة في كتب .

هذا بالإضافة الى شروح مازالت مخطوطة مثل شرح « البردة » لابن العماد الافقهس ، « واطهارصدق المودة في شرح قصيدة البردة » لابن مرزوق التلمساني .. وهذان الشرحان يعودان الى القرن التاسع للهجرة .

وتتنمى لهد القرن ايضا شروح مخطوطة للبردة مثل شرح جلال الدين المحلى .. و « الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة » لابی يحيى زكريا الانصارى المتوفى في القرن العاشر . و « شرح البردة » لخير الدين خضر ابن عمر العطوفى . وشرح آخر للبردة للشيخ محيى الدين محمد بن مصطفى المعروف بشيخ زاده المتوفى عام ٩٥١هـ . هذا بالإضافة الى « الدرة المضيئة في شرح الكواكب » تأليف ملا محمد بن ابى بكر الكراوى . و « شرح البردة » للشيخ عبدالرحمن القدسى « أبوشامه » . و « الزبدة في شرح البردة » تأليف ملا على بن سلطان محمد القارى و « الدرة الفريدة في شرح القصيدة » للشيخ محمد الشافعى العناني .. وهى من القرن الحادى عشر الهجرى .

لكن يبقى السؤال .. حول الأثر الذى تركته البردة فيما جاء بعدها من شعر عربى ...

لقد حاول كثير من الشعراء معارضتها ، أو تشطيرها أو تخميسها أو تسبيعها ، الى غير ذلك . فقد عارضها الكثيرون ، ومنهم ابن حجة الحموى من القرن التاسع وعائشة الباعونية

من القرن العاشر ، وصفى الدين الحلي من القرن الثامن .. وغيرهم كثير مما حصره عبد العليم القبانى ، مثل جلال الدين السيوطى ، وبهاء العاملى وعبد الغنى النابلسى .. هذا بالاضافة الى معارضات البارودى وشوقى .. وتخمينات شمس الدين الفيومى « القرن الثامن الهجرى » ومحمد بن ابنى السعيد السخاوى « القرن العاشر » والعشرى السبكى « القرن الحادى عشر » . ثم تسبيحات حارث بن الرومى ، وناصر الدين البيضاوى .. بالاضافة الى المحدثين مثل الساعاتى ، وجبر ، وعبد المجيد شوقى والسقا .

أما أهم المعارضات ، فهى معارضة شوقى بقصيدته « نهج البردة » وهناك معارضة البارودى بقصيدته « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » وهى تقع فى ٤٤٧ بيتا . وقد نظمها فى جزيرة سيلان وهو فى منفاه بعد إخفاق الثورة العرابية . وهذه القصيدة مطلعها :

يارائد البرق يمم دائرة العلم

واحد الغمام الى حى بذى سلم

وهذه القصيدة لا ترقى لقصيدة « البوصيرى » ، لا من ناحية النظم او الصور البلاغية .. كما انها ايضا لا ترقى « لنهج البردة لشوقى » على ان اهم ما فيها هو الصدق الذى كتبت به .

والاثر الدينى للبردة إن صح هذا التعبير .. يعتبر اثرا لامثيل له ، ولم تنله قصيدة أخرى . فبعض الصوفية اتخذوا منها « وردا » يقرأ فى الخلوات او فى حلقات الذكر .. أو تقرأ فى المساجد ايام الجمع وبعد صلاة الجمعة .. او بعد صلاة العشاء . ولقد اشترط بعضهم شروطا قبل قراءة البردة .. مثل الطهارة والوضوء واستقبال القبلة . بل ان البعض يعتقد فى شفائها من الامراض جريا على رواية « البوصيرى » ، نفسه من انها كانت السبب فى علاجه من الفالج ، أو الشلل . والبعض احتفظ بها فى البيوت معلقة على الجدران لإبعاد الأذى ودفع النكد . ونسبت اليها الكثير من الكرامات .

والمهم ان « البردة » إستطاعت ان تحول البوصيرى من شاعر عادى ، الى شاعر فى الضوء .

بل ان « البردة » وحتى وقت قصير .. كانت تتردد أبياتها - خاصة فى القرى - اثناء سير الجنائزات تيمنا بها ووسيلة الى الله ان يدخل الموتى الجنة وان يجنبهم النار .

إذا قلنا ان البردة تقع في مائة وستين بيتا من الشعر الراقي حسب نص
البوصيرى .. فان البوصيرى قد اضاف اليها حوالى سبعة ابيات البعض يضيفها الى
البردة ، والبعض يفصلها عنها .. ومنها هذان البيتان اللذان يقولان :

وهذه بردة المختار قد ختمت
والحمد لله في بدء وفي ختم
أبياتها قد اتت ستين مع مائة
فرج بها كربنا يا واسع الكرم

* * *

والبردة (١) تبدأ على طريقة الشعراء القدامى بذكر الاطلال والديار وشكوى الحب
والغرام . وهو استهلال من العادات الراسخة في القصيدة العمودية . وفي هذا الاستهلال
يورد « البوصيرى » ذكر الاسماء التي لها صلة بمولد الرسول ، حيث يقول :

امن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ثم ينتقل الشاعر من العزل إلى الحديث عن النفس . فالشاعر يحذر من هوى
النفس ويتحدث بحديث من فاض إناءه بالحكمة والعلم .. ولذلك ، فان بعض الابيات فيه
الكثير مما يجرى مجرى الامثال ، فيقول « البوصيرى » :

فان امارتى بالسوء ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهرم
فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها
ان الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل ان تهمله شب على
حب الرضاع وان تطفمه .. ينفطم

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك الى جوهر القصيدة ، وهو مدح النبى صلى الله عليه وسلم .
وهذا الجزء هو لب القصيدة وجوهرها ، وفيه يبلغ « البوصيرى » قمة الصديق الفنى وقمة
الشاعرية :

ظلمت سنة من احيا الظلام الى
ان اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب احشاءه وطوى
تحت الحجارة كشحا مترف الادم
وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفسه فاراها ايعاشهم

ثم يتابع « البوصيرى » مديحه : ويقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

هو الحبيب الذى ترجى شفاعته
لكل هول من الاهوال مقتحم
دعا الى الله فالمستمسكون به
مستمسكون بحبل غير منفصم
لو ناسبت قدره آياته عظما
احيا اسمه حين يدعى دارس الرمم
فمبلغ العلم فيه انه بشر
وانه خير خلق الله كلهم

وختام جوهر قصيدة « البوصيرى » ، او الجزء الذى يمدح فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا البيت الذى يقول :

لا طيب يعدل قربا ضم اعظمه
- طوبى لمنتشيق منه وملتئم

ثم يتبع « البوصيرى » هذا المديح بمجموعة من الابيات تتحدث عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث عاصر ميلاده الكريم صلى الله عليه وسلم تصدع ايوان كسرى ، وضمود نيران الفرس ، وجفاف بحيرة « ساوه » ، وانطلاق الشهب فى اثر الشياطين . ويبدأ هذا الحديث بالبيت الذى يقول فيه :

ابان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتدا منه ومختتم

ثم يواصل قوله :

يوم انفرس فيه الفرس انهم
قد انذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصدع
كشمل اصحاب كسرى غير ملتئم

وبعد ذلك يتحدث الشاعر عن معجزاته ﷺ .. وهذا الموضوع يقول فيه :

جاءت لدعوته الاشجار ساجدة
تمشى اليه على ساق بلا قدم
كانها سطرت سطرًا لما كتبت
فروعها من بديع الخط باللقم

وفي نهاية الموضوع حول المعجزات يأتي « البوصيري » بهذه الابيات الرائعة :

تبارك الله ما وحى بمكتسب
ولا نبي على غيب بمتهم
كم ابرات وصبا باللمس راحته
واطلقت اربا من ربة اللمم
واحيت السنة الشهباء دعوته
حتى حكّت غرة في الاعصر الدهم
بعارض جاد او خلت البطاح بها
سيب من اليم او سيل من العرم

ثم يتحدث « البوصيري » عن القرآن الكريم حديثا طويلا يبدأه بهذا البيت :

دعنى ووصفى آيات له ظهرت
ظهور نار القرى ليلا على علم

وينتقل من وصف القرآن الى الرسول في معراجة :

**سريت من حرم ليلا الى حرم
كما سرى البدر في داج من الظلم**

بعدها يأتي الحديث عن جهاد الرسول ﷺ ، ويصور الفتوحات في مشاهد حربية
صاخبة ، فالرسول القائد الاعظم والمسلمون من حوله أسود وادعة مطمئنة :

**راعت قلوب العدا انباء بعثته
كناية اجفلت غفلا من الغنم
ما زال يلقاها في كل معترك
حتى حكوا بالقنا لحما على وضم**

ثم يبدأ « البوصيري » في التوسل الى الرسول ﷺ ، ويناجيه بأبيات هي صلوات
حارة ، من نفس مؤمنة تعيش زمنا صعبا وظروفا غير طبيعية ..

يقول « البوصيري » متوسلا :

**خدمته بمديح استقيل به
ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم**

ويقول ايضا في المناجاة :

**يا اكرم الخلق مالى من الود به
سواك عند حلول الحادث العمم**

الى ان يختتم ذلك بالبيتين ، مترجها فيهما الى الله بالدعاء :

**وأذن لسحب صلاة منك دائمة
على النبي بمنهل ومفسج
مارنحت عذبات البان ريح صبا
واطرب العيس حادى العيس بالنغم**

الامام « البوصيرى » هو الامام شرف الدين ابو عبد الله محمد بن سعيد . أصله من بنى جنون ، الذى هم فرع من قبيلة صفهاجة المغربية .. يؤكد ذلك اعتزاز « البوصيرى » بأصله ، ويشيد به فى شعره .. رغم أنه مصرى النخاع ويعتز بمصريته .

ولد « البوصيرى » عام ٦٠٨ الهجرى ، وتوفى عام ٦٩٦ الهجرى .. أى أنه عاش عمرا يربو على ٨٨ عاما . والبوصيرى ولد من أم تنتمى الى مدينة « دلاص » غربى الصعيد ، كما يقول المقرئى .. لكن البعض يرى أنه ولد فى « بهشيم » من أعمال البهنسا يوم الثلاثاء أول شوال سنة ٦٠٨ هجرية .. كما يؤكد ذلك ابن تغرى فى « المنهل الصافى » .. والعماد الحنبلى : فى « شذرات الذهب » الجزء الخامس .

اما والد « البوصيرى » فمن بلدة « بوصير » التى تقع بين الفيوم وبنى سويف .

وقد عاش البوصيرى فى هذه المدينة أيام طفولته ، واستمد منها الاسم الذى عرف به . ويقولون انه فى البداية حاول « البوصيرى » أن ينحت لنفسه لقباً يجمع فيه بين نسبته الى « دلاص » و « بوصير » .. فكان ان سمي نفسه « الدلاصيرى » ، لكنه لم يشتهر به ..

وقد روى صاحب المنهل الصافى ، كما أورده عبد العليم القبانى ان « البوصيرى » كان مغرماً بمثل هذه المنحوتات ، حتى لقد سمي كساءه « كساط » ، فلما سائل عن سبب هذه التسمية ، قال : « ذلك لانى أرتديه كساء ، وأفرشه بساطا ، والواقع أن هذا الاتجاه فى « البوصيرى » .. يشير الى ظرفه ، ومحاولته اظهار البراعة والتظرف .. كما يشير الى عشقه للغة وتمكنه فيها .. وانها وصلت الى حد ان تكون طوع بنائه فى التعبير .



فى حياة « البوصيرى » الطويلة المثيرة حكم خمسة من سلاطين دولة الايوبيين هم : العادل سيف ، والكامل ناصر الدين ، والعادل الثانى والصالح نجم الدين ايوب ، والمعظم توران شاه ، ثم شجرة الدر . وبعد هؤلاء وفى حياة البوصيرى ايضا تولى الحكم فى مصر عشرة من سلاطين المماليك البحرية ، وهم : عز الدين ايبك ، وسيف الدين قطز ، والظاهر بيبرس ، وابو المعالى محمد ، والعادل سيف الدين سلامش ، والمنصور سيف الدين قلاوون ، والاشرف صلاح الدين قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون فى فترة حكمه الاولى ، ثم العادل كتبغا المنصورى .

وفي هذه المساحة الزمنية من حياة « البوصيرى » ، كانت هناك تيارات دينية عنيفة ، وصراع سياسى مرير ، وتهديدات صليبية وحروب دامت جوالى قرنين من الزمان .. بالاضافة الى هجوم التتار وزحفهم على مشرق العالم الاسلامى ، حيث هجموا على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة فى بغداد وحرقوها وذبحوا ناسها والقوا بما بمكتبتها فى نهر « دجلة » .

وهذا كله كان سببا فى إلهاب الحماس الدينى ، حيث غمر الشرق بموجات من القلق ، وحالات الضياع .. وفى مصر ، كانت الامور قد وصلت الى نقطة اللاعودة بالنسبة للسلاطين والامراء من الانقلابات والتكالب على دست الحكم والاغتيالات بين الفينة والاخرى حتى ان بعض السلاطين لم يحكم سوى عدة ايام .. باستثناء بعض الفترات المستقرة ، خاصة ايام الناصر محمد بن قلاوون ، وقبله الصالح نجم الدين ايوب فى دولة الايوبيين تلك الدولة التى جاءت على انقاض الفاطميين .. واحلت المذهب السنى محل المذهب الشيعى .. من خلال اغلاقها للزهر ، وفتح مدارس لها تعلم السنة ، مثل المدرسة القمحية .

ولقد كان لهذه الاخطار التى تهددت مصر وعالم الاسلام .. تأثير فى احوالها الاقتصادية ايما تأثير ، حتى عانى الناس وجاعوا ، وساعد فى ذلك تلك المجاعات والابوئة التى انتشرت والمظالم التى سادت .. حتى انقسم الناس الى فريقين : فريق منهم زانغ البصر يبحث عن نفسه فقط ويكل السبل وفريق يحاول الالتجاء الى الله والاتصاق بدينه وعقيدته لحماية نفسه ، وحماية الناس ، والدفاع عن ارض الاسلام التى باتت تهددها الاخطار .

وكان لا بد ان يظهر اثر ذلك كله فيما صدر من اعمال فى تلك الفترة ، خاصة المؤلفات الادبية .. باعتبار الادب وسيلة تعبر عما يدور فى نفوس الناس . ولذلك ظهر الكثير من الاعمال التى تتحدث عن الجهاد وفضائله .. كما ظهرت آراء تفلسف النكبات التى آلت بالمسلمين ، وتعود بها الى ترك المسلمين لدينهم ..

ومع هذه الاعمال المتنوعة .. ظهرت عشرات المؤلفات التى تتحدث عن جهاد صاحب الرسالة ﷺ ، وعن الدين القويم ، والاعمال الصالحة .. وهذه الاعمال كانت تتوجه الى عقول الناس ، لعل الله يقبل المسلمين من عثرتهم ويصلح احوالهم . وثمة اتجاه فكرى ، بدأ يسيطر ظلاله على ارض مصر ويقوى .. ويقوده عرب جامعو من المغرب .. ونقصد به « التصوف » .. بحيث امتلأت مصر - فى القرن السابع الهجرى بخاصة - باقطاب المتصوفة الكبار . ومع التصوف انتشرت نظرياتهم وآراؤه وكتبه .

يتضح ذلك فيما أورده الدكتور « على صافي حسين » في كتابه « الأدب الصوفي في مصر » اذ يقول : « تصوف اهل مصر والوافد اليها في هذا العصر على اختلاف طبقاتهم واجناسهم ومذاهبهم ونحلهم ومنازلهم الدينية والدنيوية ، فالفقير والغنى ، والحاكم والمحكوم ، كل اولئك قد تصوفوا .. إما تصوفاً نظرياً او تصوفاً عملياً . وتلك ظاهرة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً في اى قطر من الاقطار ، اثناء اى عصر من العصور » ولذلك ففى حياة « البوصيرى » عاش من علماء المتصوفة واقطابهم عمر بن الفارض ، والاقصرى ، وعلم الدين المنفلوطى ، وابو الحسن الشاذلى وابو العباس المرسى ، وسيدى احمد البدوى ، وسيدى ابراهيم الدسوقى .. وغيرهم كثير .. من الذين انتشرت طرقهم ، التى استقطبت الألوف من المريدين . وهذه الطرق الصوفية - بالطبع - كان لها دروها فى الجهاد العظيم ، حيث تروى كتب التاريخ ان ابا الحسن الشاذلى والسيد احمد البدوى .. ذهبا مع مريديهما الى ساحات المعارك جهاداً ضد الغزو الصليبي لمصر .. يحضون على الجهاد ويشاركون فيه بالدعاء والنصر .

و « البوصيرى » اعظم شاهد على عصره .. بل هو بحق مرآة عصره من خلال ديوانه الشعرى الذى يبرز الجانب الآخر من حياته الطويلة .. وهذا الديوان قام بتحقيقه وتقديمه الاستاذ « محمد سيد كيلانى » .
لقد كان « البوصيرى » ، كما يروى صاحب « وفيات الوفيات » ، وهو يرسم الصورة للإمام قبل تصوفه ، وانقطاعه للعبادة ، وقبل برده ، يقول فيها :

« انه شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع ، تجرى فى شعره النكتة المستملحة ، وله فى شكوى حاله ، والتذمر من الموظفين ، قصائد لا تخلو من ذكاء . وفى شعره وصف للحالة الاجتماعية فى عصره ، فكان يذكر ان الموظفين يسرقون الغلال ، وانهم لولا ذلك مالبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمر . وإن من الكتاب طائفة تنكست وعدت من الزهاد ، مع انها تملأ بطونها بالسحت ، وتاكل مال الإيتام . والقضاة خانوا الامانة ، وبرروا خيانتهم بتاويل القرآن والحديث .. »

والواقع ان المراجع عن « البوصيرى » ، لالتقى الضوء الباهر على طفولة البوصيرى المصرى الذى بدأ الحياة فى الصعيد .. لكن يبدو ان بدايته كانت خلقية ، وانه التحق بأحد الكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ..

والمؤكد انه ذهب الى القاهرة ليواصل دراسته .. وقد كان من طلبة مسجد الشيخ عبد الظاهر ، حيث كان يدرس فيه العلوم الشرعية والقرآنية ، بجانب بعض علوم اللغة التى نبغ فيها ، فيما بعد . وهذا المسجد الذى كان يدرس فيه « البوصيرى » فى القاهرة ، يبدو انه كان شبه « زاوية » من الزوايا ، والسبب انه لم يرد ذكر المصادر التى تتحدث عن المساجد . وانما عرف المسجد ، من خلال قصيدة للبوصيرى - على لسان المسجد - ويتهم فيها الفقيه « بهاء الدين المسردى » ، « لأنه أغفله من جزء من المنحة التى تبرع بها « الصالح نجم الدين ايوب » ، للمساجد ، والقصيدة ضمن أبياتها يقول فيها البوصيرى :

اقترانى لا استحق ككونى
جامعا شمل قارىء القرآن
وبى الاسباب يعطى مكان
صدقات السلطان دون مكان
انا لا انسب « البهاء » على
ذلك الا لقللة الايمان
كلما جاءت الدنانير ينقض
البهاء عليها كالشيطان

وفى الموسوعة الميسرة ، التى اصدرتها مؤسسة « فرانكلين » تحت اشراف « محمد شفيق غربال » ، نعرف ان « البوصيرى » كان فقيرا ، ولم تكن موارده أو موارد ذويه تكفيه كطالب علم فى القاهرة .. وكان خطة حسنا ، فاستغل موهبته ، وعمل بكتابة شواهد القبور لكنه لما اراد وضعها مستقرا .. سعى الى وظيفة « مباشرة » .. اى كاتب فى « الشرقية » ، وفى مدينة « بلبيس » بالذات .

يصف « المقريزى » الامام « البوصيرى » فى هذه الفترة « انه كان قليل المعرفة بالحساب » .. وانه « رعى المستخدمين باوايد » .. و « الاوايد » هى قصائد الهجاء التى قالها فى الموظفين ، بعد ان تبين له وجوده استغلالهم لوظائفهم وانحرافاتهم .. وظلمهم لأفراد الشعب البسطاء ، يقول « البوصيرى » ضمن « اوايده » :

حوت بلبيتس طائفة لصوصا
عدلت بواحد منهم مئينا
وكيف يلام فساق النصارى
اذا خانت عدول المسلمينا

وقال ايضا يتهمهم بالفباء والجهل بعلمهم وعدم معرفتهم الحساب :

كتابنا لو كنت مالك امرهم
لرددتهم جمعا الى الكتاب
لا يعرفون من الحساب دقيقة
سبحان رازقهم بغير حساب

ويعلق صاحب كتاب « البوصيرى حياته وشعره » قائلا : ان شعر البوصيرى
في المولفين ونقده المزلهم ، يعتبر نظرة اجتماعية ، راحت تعلق عن نفسها في شعره :
وان هذه النظرة سبق بها البوصيرى عصره ، وهى نظرة جريئة فعلا ، تدل على
اخلاقيات البوصيرى في شبابه ، وعلى حرصه على بلده الذى يتعرض للاخطار
والكوارث ، ولقد بلغ البوصيرى من الجراة انه ارسل للوزير بالقاهرة ، صورة مكتلة
عن انحرافات المولفين ، وكبارهم بقصيدة مطلعها :

امولانا الوزير غفلت عما
يهم الكلاب الخائنينا
اتطلق « جامكيات » لقوم
وتنفقها لقوم آخرينا

وفي هذه القصيدة يشدد « البوصيرى » النكير على بعض الذين يحملون اسم
الفقيه او القاضى ، وينمى عليهم بعدهم عن الدين والاخذ بسنة رسول الله ﷺ فيقول :

اذا أمناؤنا قبلوا الهدايا
وصاروا يتجرون ويزرعونا
فلم لا شاطروا فيما استفادوا
كما كان الصحابة يفعلونا

تحيلت القضية فخان كل
امانتة وسموه الامينا
وكم جعل الفقيه العدل ظلما
وصير باطلا حقا مينا
وما اخشى على اموال مصر،
سوى من معشر يتاولونا

هذه القصيدة في الحقيقة يجب ان تقرأ اكثر من مرة من المختصين .. ففيها يتناول « البوصيرى » المال العام ، ويطالب بالعدل الاجتماعى من منطلق ايمانه ودينه القويم .

وبديهى ان تحقد على « البوصيرى » فئة المرتشين ، ولذلك عملوا على إبعاده والتخلص من فضحه لهم ، وتعرضه بهم وكشفه لالاعيبهم .. وقد كان ذلك عندما أسندت نظارة الاقليم الى « ابن عمران » فقام بفصل « البوصيرى » من وظيفته كشخص مثير غير مرغوب فيه . فكان ان عاد « البوصيرى » الى القاهرة بعد سنوات قضائها في مدينة « بلبيس » .

وفي القاهرة .. إفتتح كتابا ليعلم القراءة والكتابة وماتيسر من الدين ، وتحفيظ القرآن الكريم .. لكنه سرعان ماأغلق هذا الكتاب ، وبدأ يبحث عن وظيفة تساعد على تربية أولاده الذين زاد عددهم . فالتعليم في الكتاب أرقه ، وجعله كما يقول في احدى قصائده يعطى للأطفال عقله ، ويأخذ منهم عقولهم ، فكان كمن يبيع نوره في مقابل ظلام غيره .. هذا بينما أولاده في البيت يصرخون من الجوع .

كيف الخلاص من البنين ومنهم
قوم ورائى وآخرون امامى
أصبحت من حملى همومهم على
هرمى كانى حامل الاهرام

لقد كان « البوصيرى » مشغولا ببلده ومايحدث فيه .. وهذا الانشغال مضافا اليه إنشغاله بإطعام اطفاله .. جعله يترك طموحه ، ويقضى وقته في البحث عن لقمة العيش .. وقد كان كما يقول : « ولو انى وخذى لكنت مريدا في رباط أو عابدا في مغارة » .. لكنه ماذا يفعل وغنده « كبشة » عيال .. يريد ان يكفيهم .. وهنا يصور حالهم بأسلوب يدل على مصريته الاصيلية الساخرة فيقول :

صاموا مع الناس
كانوا لمن ابصرهم غيرة
اين يشربوا فالبئر زير
لهم ما برحت والشربة الجره
لهم من الخبيز مسلوقة
في كل يوم تشبه النشرة
فارحمهمو ان عاينوا كعكة
في كف طفل او راوا ثمره
تشخص ابصارهمو نحوها
بشهقة تتبعها زفره

ثم ينتقل البوصيري من اطفاله الى زوجته الولود التي انجبت هذه الحفنة الكبيرة من
الاطفال ، ولذلك فهو يصفها في شعره ، ويقول :

بلغت من الكبر العتي ونكست
في الخلق وهي صبية الارحام
ان زرتها في اعام يوما انتجت
واقت لتسعة اشهر بغلام

ولم تكن زوجته ولودا فقط ، وانما كانت مشاكسة تطالبه دائما بالنقد ، مثل أختها التي
تعيش عيشة هنية ، يقول البوصيري عن حماته :

ويوم زارت امهم اختها
والاخت في الغيرة كالضرة
واقبلت تشكو لها حالها
وصبرها منى على العشرة
قالت لها كيف تكون النساء
كذا مع الأزواج يا غرة
قومي اطلبى حقه منه بلا
تخلف منك ولا فقرة
وإن تابى فخذى ذقنه
ثم انتفيتها شعرة شعرة

هذا الضغط النفسى ، وتلك القلة فى المنزل .. بالاضافة الى اهتمام « البوصيرى » بما يحدث ببلده .. جعل الضيق يكتم على انفس الشيخ الشاعر ، الذى صور لنا اصدق تصوير ، حياته .. وقد دفعه ذلك الى أن يتصوف . وقبل ذلك .. دفعه الى ان يلجأ الى الوزير « الصاحب بهاء الدين على بن محمد » يستعينه ، وكان هذا الوزير يحب فى « البوصيرى » سخريته وشاعريته ، وقد اغراء بذلك - كما يروى عبد العليم القبانى - صديقه الشيخ « شهاب الدين ابوالثناء محمود » . وزيادة فى الاغراء - تعهد له بتقديم شكواه المنظومة الى الوزير . وبالفعل حدث ذلك ، وعينه الوزير كاتباً بالمحلة .

وفى هذه المرة عاد البوصيرى بعينه الكاشفة التى تثنى على المجيد ، وتهاجم ايضا غير المجيدين ، او المرتشين ، وتثنى على الشدة معهم .. حتى انه وكما يقول « البوصيرى » فى صورة ساخرة ايضا :

**وقد تادبت المستخدمون بهم
والغافلون اذا مذكروا ذكروا
فعف كل ابن انثى عن خيانتة
فلم يخن نفسه انثى ولاذكر**

لكن « البوصيرى » الشاعر الفنان القلق الظريف .. لم يستمر به المقام فى المحلة الكبرى . فانتقل الى « سنى » التى تتبع محافظة « كفر الشيخ » الآن ، ليجلس بها بعض الوقت ، ثم عاد للقاهرة ، ليفتح كتابه مرة أخرى ، وكان يعتمد على ايراد الكتاب البسيط مع بعض الهبات التى كانت تصله من محبيه وعاشقيه وعاشقى فنه .. وفى هذه الفترة أوغل « البوصيرى » فى التصوف .. واكثر من مدائحه النبوية ، ورافق « ابا العباس المرسي » تلميذ « ابي الحسن الشاذلى » .. وكان فى القاهرة يجلس فى مسجد الظاهر . وفى الاسكندرية يجلس فى « القلعة » مسجد العطارين ، الذى جلس فيه ابو الحسن الشاذلى ، ومن بعده تلميذه ابو العباس .. كما كان يسافر الى اقاليم مصر مع استاذة ابي العباس ..

ولقد قيل انه فى اخريات حياته عرضت عليه وظيفة « محتسب » .. ولكنه تعففا وتقديرا لمسئولية الوظيفة لم يقبلها ، ويدللون على ذلك بقوله :

**اجلس والناس يهرعون الى
فعلى فى السوق عصبية عصبية**

اوجع زيدا ضربا واشبعه سبا كانى مرقص السدبة ويكسب الغيظ مقلتي وخدى احمرار كزامر القرية

* * *

مسجد الامام « البوصيرى » فى الاسكندرية والقائم فى رحاب مسجد سيدى « ابنى العباس المرسى » .. يعتبر آية من آيات عمارة المساجد فى مصر .

كان المسجد فى البداية زاوية متواضعة .. لكن الفرصة جاءت فى عهد الوالى « محمد سعيد » .. فقد قيل ان « محمد سعيد » باشا اراد كتابة بيت من الشعر فى صدر احدى قاعات قصره .. فاختر له احد رجال حاشيته بيتا للامام « البوصيرى » من قصيدته « الهمزية » .. يقول هذا البيت :

واذا سخر الاله اناسا
لسعيد ، فانهم سعداء

وقد اعجب الوالى ببيت الشعر ، وامر بكتابته ، واهتم بصاحبه ، والبحث عن ضريحه .. فلما جاءوا اليه وقالوا هو زاوية صغيرة قرب رأس التين ، امر بانشاء المسجد الحالى على الضريح ، وكتابة البردة على الجدران برقائق الذهب .. على ارضية زرقاء .

وهذا المسجد كما يروى « على باشا مبارك » فى « الخطط التوفيقية » ، انشئ عام ١٢٧٤ الهجرى وان القسم الخارجى منه ، وهو الدرج الرخامى الموجود بالواجهة المطلة على شارع السيد محمد كريم . والمواجهة للبحر ، وكذلك بعض الغرف الملحقة به ، تم انشاؤها عام ١٣٠٧ الهجرى .

وكما تصف « الدكتورة سعد ماهر » مسجد الامام البوصيرى « ملوح الذات المحمدية وصاحب البردة والهمزية » فى كتابها « مساجد مصر » ، « فان المسجد يتكون من مربعين منفصلين .. الاول يشمل صحن المسجد ، وتتوسطه نافورة من الرخام ، وتحيط به الاروقة من جميع الجهات . والثانى وهو مرتفع قليلا عن الاول هو ايوان القبلة . ويتقدم الايوان دهليز مغطى بمظلة يؤدى الى ضريح الامام البوصيرى اولا ، ثم الى ايوان القبلة ثانيا .

اما الضريح فهو عبارة عن غرفة مربعة معطاة بقبة تقوم على مقرنصات في الاركان ،
والقبة من الصاج وليست من الخشب او من البناء .

ويتوسط ايوان القبلة ستة اعمدة ، تقوم عليها قبة مرتفعة من الصاج ، وبه دورتان
مخصص للسيدات يعرف باسم « الصندرة » . وبهذا الايوان يوجد مدخلان رئيسيان
احدهما في الجهة الشرقية ، والاخر في الجهة الجنوبية ، كما يوجد مدخل ثالث رئيسي من الجهة
الغربية يؤدي الى صحن الجامع . وخلف الرواق الشرقي للمسجد توجد ثلاث غرف مغطاة
بثلاث قباب كانت في الاصل عبارة عن زاوية ملحقة بالمسجد ، وتحتوى على صف من الدعائم
تفصلها الى رواقين . ثم جددت الزاوية سنة ١٣٠٧ هـ . وسدت اروققتها فتحوّلت الى غرف
خصصت للمكتبة ، وللمشرفين على المسجد .

وفي الركن الشمالى لايوان القبلة توجد منئذنة المسجد ، وهى على شكل مسلة ، والمسجد ،
وكذلك المنئذنة يمثلان الطراز التركى في القرن التاسع عشر الميلادى احسن تمثيل .

انتهى كلام الدكتور « سعد ماهر » ..

والواقع ان المسجد غاية في الاناقة والرشاقة بأرضيته الخشبية .. وبغنى الرخام الموجود
فيه .. وايضا النجفة المورقة والمزهرة التى تتوسط ايوان القبلة ثم بالمنبر الرقيق الذى يختلف
عن بقية منابر المساجد .

وتعلو حوائط الصحن والضريح ازارات زرقاء مكتوب عليها ، وبالخط الفارسي البارز نص
« البردة » ، والتى تبدأ من يمين المحراب .. بالاضافة الى انه تنتشر على جدران المسجد
لوحات من الآيات القرآنية .. وداخل ضريح الامام البوصيرى قصيدة في لوحة تمدح
البوصيرى عميد المديح النبوى وتقول :

محمد بن سعيد جاز منزلة
في صادق الشعر اعيت كل تحرير
والناسجون على منوال برده
باعوا بعجز وابدوا كل تقصير

.. كما انه على الباب الشرقي توجد لوحة رخامية .. بعضها مكتوب بالتركية ، وبعضها
مكتوب بالعربية يقول : « الحمد لله ، قد تم تعمير هذا المسجد بارادة ولى النعم الجنب
العالى الاعظم .. »

يصف الاثرى « حسن عبد الوهاب » في كتابه عن « مساجد مصر » ، مسجد البوصيرى بأنه « مسجد نير يحفه الجلال ، بنى على طراز خاص غير مألف من حيث عمده الحديدية ، وقبابه الست المكسوة بالصاج والرصاص »

ويقول ان المقصورة على قبر الامام البوصيرى اقيمت في عام ١٢٧٤ الهجرى وعلى الضريح ستر مقصبة عملت في نفس العام . ومزارته من دورتين تسودها البساطة ، وهى مبنية بالآجر ، وتنتهى من اعلاها بسارية تحمل علما اخضر ، كان يرفع بالنهار ، ايذانا بحلول وقت الصلاة ، كى يراها من يكون بعيدا عن سماع الاذان ، ويضاء عليها مصباح ليلا ايذانا بحلول وقت الصلاة ، وهى طريقة جاءت الى الاسكندرية ، من بلاد المغرب ، ولعلها ترجع الى القرن الثامن الهجرى « الرابع عشر الميلادى » فقد امر السلطان ابوعنان في مسجد القرويين بمدينة فاس عام ٧٤٩ الهجرى « ١٣٤٨ الميلادى » ، وانشد فيه :

**نور به علم الايمان مرتفع
للمهتدين به للحق ارشاد**

وكما يقول الاثرى « حسن عبد الوهاب » ايضا :

ولقد ظل قبر البوصيرى موضع الرعاية ، مقصودا بالزيارة الى ان اجريت به اصلاحات في القرن التاسع عشر .. ثم تجدد مرة اخرى . ويعتبر مسجد البوصيرى من اشهر مساجد الاسكندرية ، وهو من مزاراتها المقصودة من اهل الاسكندرية والوافدين عليها للتبرك بناظم قصيدة البردة في مدح رسول الله ﷺ ..



سیدی القنائی

الأسد القادم
من المغرب



●● عشقه اهل الصعيد :

حتى انهم دقوه « وشما » على صدورهم ، وفوق اكفهم .. اسدا يرفع سيفا .
ولم يكتفوا بذلك ، بل اصبحت ماثوراتهم الشعبية تتغنى بنورهم وعلمه الذى
اضاء ظلام الصعيد ، وبدد الجهل فيه .
وقبل ان يجرى اختراع الثلاجات الكهربائية .. كانت هذه المدينة التى عاش
فيها قد اخترعت ثلاجات يدوية .. يحملها حجاج بيت الله الحرام معهم فى رحلتهم
المقدسة .. تطفىء من لهيب الشمس وشدة الحرارة .
وهذه الثلاجات اليدوية .. اخذت شهرة كبيرة منذ قرون وحتى الان .. بعد
اختراع عالم الثلاجات والمبردات ..
هو صاحب مدرسة تصوف ، وليس قطب طريقة .. ولو اراد طريقة لزحفت اليه
الآلاف .. لكنه صاحب مبادئ تقوم على العلم والعمل والاخلاق فى تكامل يصل الى
حد الفلسفة ..

ولنقترب اكثر ، فاكثرت منه ..

هو شريف علوى ينتهى نسبه الى الحسين بن على بن ابي طالب تزوج من ابنة
شيخ مسجد قوص .. الإمام القشيري .. وعاش فى قنا ..
وقبل ان يأتى الى « قنا » درة الصعيد ، كان قد ساح فى عالم الإسلام ينشد العلم
وينشد التفقه فى الدين .. وقبل ذلك كانت سياحاته فى عالم المسلمين الواسع الذى
تهددته الاخطار .

عشرات الآلاف تزوره على مدى العام .. وهو مشهور بيوم « الأربعاء » من كل
اسبوع . ومولده يأتى الناس اليه من كل مكان فى مصر .. يحتفلون بالولى الذى
« فرش القلوب بالورد والنور » .

انه سيدى عبدالرحيم

شيخ قنا فى عصره .. والداعية الى الله ..



فوجئ اهل مدينة « قوص » .. فى صعيد مصر .. وهم ينتظرون شيخهم قادما من
الحجاز ، بعد ان ادى فريضة الحج .. فوجئوا وهم فى استقباله .. ان معه شابا فى

مقتبل العمر ، وفي شرح الشباب .. يسير معه ، وقد بدا على ملامحه الصلاح والتقوى .

وسال أهل « قوص » شيخهم الكبير سيدي « مجد الدين القشيري » عن هذا الشاب الذي جاء معه .. خاصة وأن أهل الصعيد - وهذه عادة فيهم - يتشممون رائحة الغريب من بعيد ..

لكن تساؤلهم ذاب في حلوقهم ، قبل أن يعرفوا الجواب ..

فهذا الشاب الوسيم الصالح التقى ، لم يمكث بينهم سوى يومين أو ثلاثة على حسب اختلاف الروايات .. وفي أثنائها كان قد همس الى الشيخ « القشيري » بسر .. ثم حمل متاعه على ظهره .. خرج من « قوص » يقصد مدينة « قنا » .

وفي مدينة قنا ، على الشاطئ الشرقي لنهر النيل .. لبث هذا الشاب الصالح يعبد ربه في « خلوة » صغيرة .. أورباط .. أو تعريشه - سمها ماشئت - وجعل يدعو الى الله ، وإلى دينه القويم .. وكان كلامه واضحا مبنيا على الكتاب وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد بدأ أهل « قنا » يقتربون من هذا الغريب على حذر أولا .. ثم بدأوا يسمعون مايقوله ، فيسرى في قلوبهم عبق الايمان . لقد كان يتحدث حديثا غير تلك التي اعتادوا سماعها .. وهكذا بدأت حلقة تتسع ، وبدأ عدد مريديه يزداد ، يوما بعد يوم .. الى أن ذاع صيته وانتشر .

وقد لفت نظر أهل « قنا » سلوك هذا الشاب .. انه لم يتبتل وينقطع للعبادة فقط .. أو يشتغل بالدرس والعلم فقط . كان من رجال الله الذين يرون أن العمل عبادة .. ولذلك رفض أن يعوله أحد ، وقد كان الكثيرون يريدون أن يتشرفوا بذلك .. اشتغل في تجارة الأقمشة والحبوب ، لكن لم تله التجارة ، ولم يله البيع عن ذكر الله ، وعن دعوته الى الله .. وقد ربحت تجارته وزادت في هذا البلد « قنا » .. لكنه كان قنوعا ، اذ استخدم القليل ، وجاد بالكثير في مساعدة المحتاجين ، خاصة من شباب العلم الفقراء .

لقد كان سيدي « عبد الرحيم القنائي » - رحمه الله - علويا هاشميا - ينتسب الى سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .. حتى أن علماء النسب والتحقيق يذكرون - ومنهم الإمام الشعرائي رضى الله عنه - بأنه سيدي أبو محمد عبد الرحيم بن أحمد بن حجون بن محمد بن جعفر بن اسماعيل بن جعفر الزكي بن محمد بن المأمون بن حسين بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن سيدي علي زين العابدين بن مولانا الامام الحسين سبط الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا من ناحية والده ..

أما من ناحية والدته ، فهي السيدة الشريفة الحسينية ، السيدة سكيبة بنت أحمد بن حمزة الحراني . هي من بنى حمزه ، الذين كانوا نقباء الشام وشيوخه .. وكانوا ذوي علم ودين .

ولد سيدي « عبد الرحيم القنائي » في قرية « ترغاي » .. وهي قريبة من مدينة « سبته » المغربية . ولقد رباه والده ، منذ نعومة أظفاره تربية دينية خالصة .. وكان والده الشيخ « أحمد » عالما جليلا من علماء المغرب ، ومدينة « سبته » على وجه الخصوص .. فحفظه القرآن الكريم ، وبدأ يعلمه الفقه والحديث والتوحيد ، ويدله على أسرارها ، ويفتح له مغاليق أبوابها ..

وتسير الأمور بالشباب الذي كان قرّة عين والديه .. والذي أظهر من النجابة في صغره ما يحسده عليها من هم في مثل سنه .. لكن عندما بلغ الثانية عشرة من عمره ، حدث ما كان منعظا كبيرا في حياته . ذلك الحدث الذي اهتزله وجدانه هذا ، وصدمه صدمة عنيفة أثرت على نفسه ونفسيته . فقد مات أبوه الشيخ الصالح .. وكان الخطب فادحا بالنسبة للصغير المتعلق به المحب له ، والذي يعتبره دنياه الكبيرة ..

مات الأب الحنون ، وتركه .. وترك معه أربعا من الأخوات ، فضلا عن السيدة والدته .

وعلى أثر ذلك مرض الصبي ، مرضا عضالا عجز الأطباء عن شفائه .. حتى ليقال إن الصبي كان يتهدده الموت في كل لحظة . وكان لابد من شيء .

وكان هذا الشيء .. أن أمه فكرت في أن ترسله إلى أخواله في دمشق الفيحاء لعل السفر يحدث له من مرضه مخرجا ..

فقد كانت أمه تعرف ما في إبنها من ميله إلى العلم . وكانت تدرك أيضا أن مرضه نفسي أكثر منه عضوي .. وأنه تصور أن موت والده ، ذلك العالم الجليل الذي كان يفيض عليه بأنواره .. وكان سبيل المعرفة قد ضاقت أمام عينيه وانسد الطريق في وجهه . فلعل فكرة سفرته إلى دمشق تخفف عن الصبي ، وفي نفس الوقت حين يطلع على علم الشرق الغزير .. قد يكون عزاء وسلوى وعوضا عن فقدان الوالد الشيخ .

وفي دمشق فوجيء الشاب بعالم آخر غير عالمه في المغرب .

هذه الرحلة إلى « دمشق » اتاحت لسيدي « عبد الرحيم القنائي » ، أن ينهل من

العلوم ماجعله يستزيد .. خاصة في مجال الشريعة والتصوف .. وأنست هذه الدنيا الجديدة في « دمشق » الصبى القادم من المغرب همومه وحزنه الكبير على فقد والده .
ففى الفيحاء « دمشق » انطلقت ملكاته ومواهبه في الدرس والتحصيل . حتى تآلق نجمه هناك .. وعلى مشهد ورضا من أخواله الذين كانوا يحتلون مكانة مرموقة ومراكز علمية عالية في الشام ، منهم السيد « محمد » ، الذى كان مفتيا لدمشق ، والسيد « زين العابدين » .. وكان إمام الشافعية هناك ... كما يقول « البستافى » في « دائرة المعارف » ..

ويوما بعد يوم .. وسنة بعد أخرى ينضج الصبى مع تصاعد أيام عمره ليبدو عليه الوقار وسمت الشيوخ الكبار .

ويقولون إنه على الرغم من دعوة علماء الشام لسيدى « عبدالرحيم القنائى » وإلحاقهم عليه ، ليعيش بينهم ، ويتولى الدعوة هناك الى دين الله .. فإنه ظل على تواضعه يقرأ كنوز المشرق ويقارن بينها وبين ما حصله في المغرب .. ويعتبر نفسه تلميذا في مدرسته التى هى بحر لا قرار له . ورغم رجاء أخواله ليبقى وسطهم فإنه عزم على العودة الى مسقط رأسه بالمغرب .. لأن أهله وعشيرته قد يكونون أشد حاجة الى علمه من أهل المشرق ..

في « ترغاي » قريته بالمغرب .. جلس للدرس والفتوى بمجرد عودته الى « المغرب » ، وفي ذات المكان الذى كان يجلس فيه والده - رحمه الله - يعظ الناس .

وكان تهافت الجموع على مجلس سيدى « عبدالرحيم القنائى » في « ترغاي » يؤكد يوما بعد يوم ، أن هذا الشيخ القادم من الشرق ، والذى امتزجت في عقله ، علوم المشرق مع علوم المغرب .. قد جاء بشيء جديد لم يسبق اليه . ولذلك فقد كان كثير من علماء المغرب يحرصون على حضور مجلسه ، ليسمعوا منه حديثه الجديد المستنير عن الدين ، وعلاقته بالدنيا ، وكيف يعرف الانسان طريقه الصحيح نحوربه جلت قدرته ، وكيف يكون سلوكه مع نفسه ، ومع المجتمع ، ومع خالقه .

وقد كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، قد بدأ يدرس التصوف في الشام ، وحين عاد الى « المغرب » بدأ يتبحر فيه ويمارسه ويكتنه الكثير من أسرار وأنواره .. وكان من أهم الشخصيات التى استقطبت اهتمامه ، عارف المغرب الكبير ، سيدى « أبويعزى المغربى » .. وكذلك الإمام العارف سيدى « أبو مدين الغوث التلمسانى » ، المتوفى عام ٥٩٤ الهجرى . وسيدى « عبدالرازق الجزولى » ، وهو شيخ سيدى « أبى الحجاج الأقصرى » ،

ويقال إن سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، قد تتلمذ فترة ، هو وسيدى « أبو مدين » .. على هذا القطب الولى سيدى « أبى يعزى » . كما يقال أن سيدى « أبى مدين » حينما جلس للتدريس ، كان من تلامذته سلطان العارفين ، سيدى « محيى الدين بن عربى » .. كما يقولون إنه بالرغم من أن سيدى « عبدالرحيم » كان مع سيدى « أبى مدين » ، فقد أخذ عنه الكثير .. والدليل على ذلك أن صاحب « قلائد الجواهر » يقول رواية عن سيدى « عبدالرحيم القنائى » يذكر فيها أنه قال : « قال الشيخ عبدالرحيم القنائى رضى الله عنه : سمعت شيخنا أبى مدين رضى الله عنه يقول : أوقفنى ربى عز وجل بين يديه ، وقال لى : يا شعيب : ماذا عن يمينك ؟ قلت : يارب عطؤك . قال : وماذا عن شمالك ؟ . قلت : يارب قضؤك . قال : يا شعيب ، قد ضاعفت لك هذا ، وغفرت لك هذا . طوبى لمن رآك ، أو رأى من رآك » .

وهذه الرواية تريد أن تقول .. أن سيدى « عبدالرحيم » شاهد سيدى « أبى مدين » ، بل هو تتلمذ عليه .. وجاوره فى الدراسة على سيدى « أبى يعزى » .. فطوبى لسيدى « أبى مدين » .. وطوبى لسيدى « عبدالرحيم القنائى » .

وهى أيضا ترهص كذلك ، بأن سيدى « عبدالرحيم القنائى » قد تربى تربية صوفية قوية .. نهل فيها من بحار أئمة التصوف وأقطابه فى عصره ... لدرجة أن مؤرخيه ، يقولون عنه أنه فى هذه الفترة من حياته كان قد وصل الى محيط النور ، واكتملت صوفيته .. وبدأ هو من بحر علمه يدعو ويجاهد ويخرج التلاميذ والمريدين الذين اقتنعوا بمدرسته .. وليس بطريقته لأن سيدى « عبدالرحيم القنائى » لم يذكر المؤرخون له طريقة من بين طرق التصوف ..

ومن أنجب تلامذته فى مصر ، الامام العارف سيدى « أبو الحسن على بن حميد الصباغ » ، المتوفى عام ٦١٢ الهجرى . وهو المدفون بجوار شيخه فى ضريحه بقنا .

لقد كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، هو الاب الروحى لسيدى « أبى الحسن على بن حميد الصباغ » . فقد « تخرج على يديه » ، ونهل من راحتيه ، فغمره النور والفتح ، حتى صار بابا من أبواب الحق تعالى .

وفى كتابه « بهجة الاسرار » يروى « نور الدين الشطنوفى » ، عن أبى العباس احمد بن محمد المعرف بالراس ، أنه قال : الشيخ أبو الحسن بن الصباغ رضى الله عنه ، شيخ عند الله عز وجل ، انتهت اليه الرئاسة فى هذا الشأن - أى

التصوف - في وقته في الديار المصرية ، وبه عرفت تربية المريدين بها ، وتخرج به غير واحد من أهلها ، مثل الشيخ أبى بكر بن شافع القوصى - من قوص - والشيخ علم الدين المنفلوطى - من منفلوط - والشيخ الامام مجد الدين أبى الحسن على بن وهب بن مطيع القشبرى - المعروف بابن دقيق العيد ، وغيرهم رضى الله عنهم .

وفى « بهجة الاسرار » .. بالاضافة الى ما ذكرناه ذكر مناقب كثيرة للشيخ أبى الحسن على بن حميد الصباغ ..

وفضلا عن ذلك ، فقد تربى في مدرسة سيدى « عبدالرحيم القنائى » نخبة من العارفين ، مثل سيدى أبى الحجاج الاقصرى ، وسيدى عبدالله القرشى ، وابن شافع القنائى .

وكما يقول الاستاذ « جودة محمد ابو زيد المهدي » ، في مجلة « منبر الاسلام » ، عدد ديسمبر عام ١٩٧١ .. « فقد كانت تربية الامام عبدالرحيم القنائى لابنائهم وتلاميذته في الطريق ، تقوم على التمسك بأداب الشريعة الغراء وتخليص القلب من كدورات البشرية ، وتطهير النفوس من قذى الاذى ، لتعود كما كانت في أصلها تقية نقية ، والمزاوجة بين العلم والعمل ، لتحقيق كمال العبودية .. »

ويصف الامام « عبدالوهاب الشعرانى » سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، في ترجمته له ، في « الطبقات » بقوله : « هو من اجلاء مشايخ مصر المشهورين ، وعظماء العارفين ، صاحب الكرامات الخارقة . والانفاس الصادقة . له المحل الأرفع من مراتب القرب ، والمنهل العذب من مناهل الوصل . وهو أحد من جمع الله له بين علمى الشريعة والحقيقة ، وآتاه مفتاحا من علم السر المصون ، وكنزا من معرفة الكتاب والحكمة » .

كما كان الشيخ « عبدالله القرشى » ، يقول عن سيدى « عبدالرحيم القنائى » :

« نور الشيخ غلب على أنوار جميع أصحاب الاحوال ، من أهل الديار المصرية في وقته » ..

ويروى الإمام « الشعرانى » ، ان سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، كان اذا سمع المؤذن يقول : « اشهد ان لا اله الا الله » ... يقول هو : شهدنا بما شاهدنا وويل لمن كذب على الله تعالى .

ظل الشاب التقى النقى « عبدالرحيم القنائي » في « قرغاي » .. حتى اختار الله والدته الى جواره . وكان عمره اذ ذاك حوالى الخمسة والعشرين عاما . ولم يجد الشاب مفرا من ترك قريته .. وكان قد أدى ما عليه من واجب المسلم فيها . ليعود من جديد الى المشرق الاسلامى . بعد أن فقد حنان الامومة .

ويبدو أن بين ما دفعه الى أن يهجر قريته ، انه لم يطق المكان الذى تذكره كل بقعة فيه بأب كريم عالم ، وأم حنون ..
لكن يبدو أن هناك ما هو أعمق من ذلك ..

فمهما بعد المؤمن في ديار الاسلام عن الاراضى المقدسة في « مكة المكرمة » و « المدينة المنورة » ، فان قلبه يظل يرف لها ، ونفسه ترتبط بها .. تتحين الفرصة الى شد الرحال اليها ..

كان الهدف الأساسى أن يؤدى فريضة الله عليه ، فريضة الحج .. والتي لا يكتمل ايمان المسلم الا بها ، خاصة لمن استطاع اليها سبيلا . وفضلا عن زيارة قبر الرسول ﷺ .. و « عبدالرحيم القنائي » هو من هو .. الذى يتشرف بالانتساب الى رسول الله ﷺ . اقول فان زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام تأتى له بالشفاعة « من زار قبرى وجبت له شفاعتى » .

والواقع ان المسلم حين يحج الى بيت الله الحرام ، وحين يزور قبر الرسول عليه الصلاة والسلام تتمثل امام قلبه ووجدانه - خاصة اذا كان عالما مثل سيدى « عبدالرحيم القنائي » - تلك الذكريات المقدسة من جهاد الرسول في سبيل الدعوة اليه ، لإعلاء كلمة الله . كما يتمثل المسلم في كل بقعة يزورها من بقاع الارض المقدسة ، في رحاب تلك الأماكن التاريخية المملوءة بالذكريات .. أمة الاسلام في مشرق الرسالة ..

لقد ظلت هذه الرحلة أملا من أمال هذا الشاب يتحين الفرصة للقيام بها عندما يأذن الله تعالى بها ، وكانت تتمثل له في « قرغاي » قريته ، وهو يعطى الدروس في مسجددها .. وهو يتحدث عن جهاد رسول الله ﷺ ، وعن دعوته الكريمة الى الله .. وعن العقبات التى وقفت في سبيل الدعوة .

ولقد كان يمكن لسيدى « عبدالرحيم القنائي » أن يستمر في دعوته في بلاد المغرب ، بعد أن كبر اسمه وذاع صيته ، ورسخت قدمه بين علماء المغرب الكبار ، وبين دعائه الصادقين . لكنه رضى الله عنه ، بالاضافة الى عزمه على أداء فريضة الحج .. كان دائم التفكير في الامة الاسلامية ، التى بدأت تتهددها المحن ، خاصة من

الخارج ، وعلى الاخص من اولئك الذين رفعوا الصليب شعارا لهم ظلما وعدوانا ..
وبدأوا الهجوم على المشرق ..

كما بدأت أوروبا المسيحية ، في الاندلس ، موجة زحف سماها المؤرخون الغربيون بحركة « الاسترداد » .. وهذه الموجة المسيحية بدأت تحقق بعض النجاحات .. حيث ساعدها على ذلك ما كانت عليه حالة المسلمين من ترك دينهم والانغماس في دنياهم .. والنزاع بين ملوك الطوائف .. ثم النزاع بين المرابطين والموحدين .. مما هدد الاسلام . ويبدو أن أخبار الاندلس كانت تصل الى الشيخ « عبدالرحيم القنائي » وهو في « ترغاي » .. فقد كانت « سبته » أقرب الى الجانب الآخر من مضيق « جبل طارق » .

وكعالم مسلم كان يقول في جامع « ترغاي » .. ان الجهاد فريضة ، كان لابد أن يقرن القول بالعمل .

لكن كيف يؤدي ماعليه من فريضة الجهاد .. في هذا الجو المتلاطم ، وتلك الأحوال التي تتأمر على المسلمين ، وعلى دول الاسلام ؟

بعد تفكير وروية .. استقر رايه أن يترك « المغرب » .

اتجه في رحلة طويلة وشاقة الى الاراضى المقدسة ، مارا بالاسكندرية ومدن مصرية كثيرة ، قد تكون منها القاهرة .. ثم بمدن أخرى في الصعيد ، حيث كانت الرحلة تسير بمحاذاة النيل الى قنا ، ثم تتجه شرقا حتى عيذاب على البحر الاحمر .. ثم يجرى عبور البحر الى الشاطئ الآخر ..

وهناك في « مكة المكرمة » يلتقى بعلماء المسلمين القادمين من شتى بقاع العالم الاسلام .. لكى يسألهم ويسألونه ، ويسمع منهم ويسمعونه .. وبعدها يحدد هو طريقه .. وفكره في أمر الجهاد كعالم مسلم ..

ولقد ظل سيدى « عبدالرحيم القنائي » تسعة أعوام في الأرض المقدسة متنقلا بين « مكة المكرمة » و « المدينة المنورة » .. لقد أدرك ان الاخطار التي تتهدد عالم الاسلام يمكن الوقوف امامها والتغلب عليها ، اذا ما انصلح حال المسلمين ، واذا ما عادوا الى دينهم القويم ، واذا ما تمسكوا بحبل الله جميعا .. وأدرك ايضا أنه مما يزيد الاخطار ان بعض حكام المسلمين لا يعملون بشريعة الله وسنة رسوله ﷺ .. وأن هذا كله تجمع وادى الى إضعاف أمة الاسلام .. مما دفع أعداءها الى تهديد حدودها ، ووصل الامر الى حد الهجوم عليها ..

وأدرك سيدى « عبدالرحيم القنائى » أن لعلماء المسلمين دورا أساسيا في هذا المجال ، إن عليهم تبصير المسلمين بأمور دينهم الحق ، وعلى علماء المسلمين أن يكتفوا الدعوة الى الله .. وأن العالم المسلم لابد أن يقوم بشرح دقائق تاريخ الدعوة المحمدية .. وما حققته من انجاز .

إن على علماء المسلمين واجبا وجهدا كبيرا في ميدان خطر .. هو ميدان العقول . وجهادا في ساحات العلم ، وفي رحاب المساجد التى كانت بمثابة المنارات العلمية في العصور الوسطى .

هذا .. هو ماخرج به سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، وهو فى الرحاب المقدسة بعد أن ظل يدرس حالة عالم الاسلام ..

وليس صدفة ان يلتقى سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، فى السنة العاشرة من اقامته بالرحاب المقدسة ، بشيخ مهيب قادم من مصر ليؤدى فريضة الحج التقى بالشيخ « مجد الدين القشيري » .

لقد حدثه الشيخ « القشيري » طويلا عن مصر ، وعن علماء مصر .. كما حدثه عن أهل مصر ودور العلم فيها ، ونمو التصوف والصوفية هناك .

وقد طال الحديث بين الشيخ القادم من « قوص » عاصمة صعيد مصر حينئذ وبين هذا الشاب المؤمن العالم « عبدالرحيم » .. وهذا الحديث امتد فى المسجد الحرام .. كما امتد فى رحاب الحرم النبوى .

ولقد وجد هذا الشاب فى حديث الشيخ « القشيري » .. ما أغراه ان يذهب معه الى صعيد مصر .. الذى كان فى حاجة الى جهاد لتفشى الجهالة لقد أغراه ان يعود معه الى صعيد مصر .. حيث كانت الخلافة ضعيفة . لقد شرح له الشيخ « مجد الدين القشيري » حالة القوم فى صعيد مصر .. مما جعل الشاب يتحمس ، ويعود مع الشيخ « القشيري » الى مصر .. ليبدأ طريقا صعبا ، ولكنه ليس بصعب على المجاهدين المؤمنين .

عاد سيدى « عبدالرحيم » ، مع الشيخ « مجد الدين القشيري » الى « قوص » .. ولم يبق فيها سوى يومين أو ثلاثة .. إتجه بعدها إلى « قنا » ليبدأ الجهاد ، ويربى الرجال ويرفع راية الاسلام عالية .. كل ذلك على هدى من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان اتجاهه الى « قنا » كما تذكر المصادر عنه .. بعد أن رأى ، وهو فى قوص ، مناما يأمره بشد الرجال الى « قنا » حيث كان المجال خصبا ومهيأ للشيخ الشاب لكى يبذل الظلمة ، بدروسه فى العلم والتصوف .

وقد صارت « قنا » مركز دعوة سيدى « عبدالرحيم القنائى » .. وذاع صيته بها ..

ويحدثنا التاريخ أن سيدى « عبدالرحيم » تزوج اول ماتزوج من ابنة الشيخ « مجد الدين القشيري » . وكانت زوجة مخلصه مؤمنة صالحة . وحين توفاهما الله ، تزوج بأخرى . ويقال إنه تزوج من أربع زوجات ، وأنه انجب تسعة عشر ولدا وبنتا ، منهم سيدى محمد كمال الدين ، وسيدى الكامل علم الدين محمود ، وسيدى شمس الدين ، والسيدة مباركة ، والسيدة رحيمة ، والسيدة عزيزة رضى الله تعالى عنهم .

في « قنا » ، وكما تقول الدكتورة « سعاد ماهر » .. التقى سيدى عبدالرحيم بعلمائها . وكان أول ما التقى به هو الشيخ القرشى . وكان من أولياء الله الصالحين بها . وقد انعقدت أواصر الألفة بينهما ، وتحابا وتزاملا في الدعوة الى الله .

ولقد ساعد جو « قنا » الهادئ ، الشيخ عبدالرحيم على حياة التأمل . ولذلك فإنه أمضى العامين الأولين يتعبد ، ويدرس ، ويختلئ الى نفسه .. ومع ذلك كان يعتمد على عمله الخاص في تدبير معاشه .. لأنه كان قد اتخذ لنفسه منهجا لم يجد عنه طول بقائه في صعيد مصر .. وهو العمل بيده لكسب قوته . وقد اشتغل بالتجارة ، كما اسلفنا ووضحنا ، وقد درت عليه التجارة في مدينة « قنا » ربعا وفيرا ساعده على الانفاق على فقراء الطلاب والراغبين في العلم ولايستطيعون لضيق ذات اليد .. بالاضافة الى انفاقه على غير القادرين من أبناء المسلمين .

ولاشك ان مافعله سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، كان اسلوبا مختلفا عما هو متبع في مصر في ذلك العصر . فقد كان العلماء يتناولون أجورهم من بيت مال المسلمين . وكان هذا حقاقهم .. حتى ولو كانوا ضد السلطة الحاكمة . كما أن اثرياء المسلمين ، كانوا يعتبرون من العار عليهم أن يشغلوا العلماء بأمير معاشهم .. فكانوا يتكفلون عنهم بذلك .. حتى يتفرغوا لرسالتهم العلمية . لكن سيدى « عبدالرحيم القنائى » .. نفر من هذا الأسلوب المتبع ، وجاهد هو ليكسب قوته من عرقه . وكان يكتفى بأقل القليل ، وينفق الباقي على وصل المحتاجين ، والتلاميذ المعوزين .

لقد أسس سيدى « عبدالرحيم القنائى » في مدينة « قنا » مدرسة جديدة ، مدرسة صوفية خاصة ، تسمح للطرق الأخرى بالأخذ منها من غير الخروج على مناهجها .. وكان يرى : « ان الدين الاسلامى .. دين علم وإخلاص ، فمن ترك واحدة ضل الطريق » .

وفي هذا الجو الهادئ في قنا ، استطاع سيدي « عبدالرحيم القنائي » ان يفيض بالكثير من المؤلفات .. ومنها تفسير القرآن الكريم .. ورسالة في الزواج .. وكتاب الاصفياء .. وغيرها كثير .. ووردت سيرته في كتب كثيرة مثل « الطالع السعيد في ذكر علماء الصعيد » .. و« أبوالمحسن في حسن المحاضرة » وفي « لطائف المنن » ، و« طبقات الشعرائي » ، و« طبقات الإمام المناوي » .. كما جاء ذكره أيضا في روايات الشيخ « علي الخواص » ، أستاذ الإمام « الشعرائي » .. والأخير ذكر بعض مناقب سيدي « عبدالرحيم القنائي » في كتابه « الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية » .. و« بهجة الأسرار » للشطنوني ، و« جامع الكرامات » للنبهائي .. وغيره كثير ..



ويقال إنه لما تولت الدولة الايوبية مقاليد الامور في مصر .. بعد انهيار دولة الفاطميين ، عمل الايوبيون جاهدين على القضاء على المذهب الشيعي السائد ونشر المذهب السني ، وكانت وسيلة الدولة الايوبية في ذلك اغلاق الجامع الازهر ، وانشاء المدارس ، مثل المدرسة القمحية لتدريس ونشر المذهب السني ، بالاضافة الى ان الدولة الايوبية عملت على ان يتولى المناصب الكبيرة اصحاب المذهب السني . خاصة مذهب الامام الشافعي رضى الله عنه ، والذي كان مذهب الايوبيين .

ولقد اصدر الملك « العزيز بالله » بن « صلاح الدين الايوبي » مؤسس دولة الايوبيين في مصر ، وفي نطاق خطة الايوبيين ، قراره بتعيين الشيخ « عبدالرحيم القنائي » ، شيخا لمدينة « قنا » .. ومنذ ذلك التاريخ صار سيدي « عبدالرحيم » يعرف « بالقنائي » .. وكان مركز دعوته زاوية بجانب ضريحه الحالي يجتمع فيها بزائريه والوافدين عليه من كل مكان .. وكانت هذه الزاوية قلب المدرسة القنائية التي قويت وانتشرت .

وكانت المدرسة القنائية - في التصوف خاصة - ذات فكر خاص جديد فقد كان شيخها سيدي « عبدالرحيم القنائي » يرى ان المسلم ، لابد ان يكون قدوة لمعاني الايمان الذي يحمله في داخله . ولذلك فلا بد له ان يتخلق باخلاق الدين القويم ، والا يكون عاطلا . وانما يكون عاملا .. لأن هذا هو حق مجتمعه عليه ، والذي اوجبه العقيدة . ومن هذا المنطلق ، فان محور فلسفة سيدي « عبدالرحيم القنائي » ، كشيخ صوفي - وليس قطبا ذا طريقة - تدور حول التمسك بالدين . وهذا التمسك يلزم العمل به ، والعلم يدفع الى العمل ، والعمل يقود الى السلوك القويم ، والاخلاق الكريمة .

لقد كان كثيرا وكثيرا جدا - كما يقول « صلاح عزام » في كتابه عن سيدى « عبدالرحيم القنائى » - مايركز على شعار العلم ، والعمل ، والاخلاق .. ولذلك فقد كان محور جهاده حولها . وكان يرفض ان يكون له طريقة .. كغيره من العلماء .

ولذلك كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يقول حول العلم : « .. والعلم اصل العقائد الدينية . وفي ذلك يقول الله تعالى : « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم » . وقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » . كما تحدثت السيدة « عائشة » رضى الله عنها عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « طلب العلم عند الله افضل من كثير » .

ومع العلم ، كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يقول لتلاميذه ومريديه : « إحفظ نفسك من نفسك وإلهكت » . ويقول ايضا : « لاتعن ظالما على مظلوم ولو قيدت بالسلسل والاغلال » .. كما يوصى مريديه : « اتجه الى الله قبل كل شيء ، وفوض اليه الامر فى كل شيء » .

والى جانب العلم ايضا ، كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يدعو كل من يأتى الى حلقة ، أن يتخذ له حرفة ، وإلى المزيد من العمل لمن يعمل .. حتى انه كان يبدأ دروسه وينهيها بقوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

وكان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يقول كذلك : « من راح الى غير عمل بعلم واخلاق ، فهو تحت حكم ما قاله الله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلا » .

ويقول سيدى « عبدالرحيم القنائى » حاضا على العمل ومحبا له : « ان النبى صلى الله عليه وسلم تصوف قبل الرسالة بغار حراء ، فانقطع عن الدنيا الابما يقيم صلبه ، ولم يمنعه هذا من ان يعمل قبل الرسالة وبعدها عمل صلى الله عليه وسلم عمل اهل الارض ليقوم المساواة والعدالة لرسالة سوف تلقى عليه من ربه . فلما نزلت الرسالة ، اقر الله العلم والعمل بآية نزلت على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا » .



وعن الاخلاق يقول سيدى عبدالرحيم القنائى مفسرا لقوله تبارك وتعالى :

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » يقول : ان النعمة المقصودة هى الاخلاق الحسنة . لان الدين لم يكن ناقصا ولكن معنى « اكملت لكم دينكم برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء والرسل وبه كمل الدين .

بالرسول . ثم ارتضى تبارك وتعالى الاسلام ديناً . وهو الدعوة المحمدية التى وصل للناس نورها .. هداية وتبصرة وقوة وايماناً .. ومعرفة ، وعزة ، وجاها ، وعلما ، وعملا ، واخلاقا « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .



إن مدرسة سيدى « عبدالرحيم القنائى » .. هى مدرسة متصوف ، تقوم على العلم والعمل والاخلاق .. وهى مدرسة فيها مافيه من السلوك القويم والاخلاق الكريمة .. التى تصبح جميعها متصلة .. لتكوين المسلم الصحيح ، وهذا يدل عليه ماسجل له من بعض عظاته ودعوته فى مدينة « قنا » .. كما يبرز قدرة سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، على توصيل مايريد ان يقوله الى عقول المسلمين ..

لفى إحدى جلساته .. قال لمريديه :

عندما كنت بالمدينة المنورة ، مقيماً فيها .. سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم « مناماً » ، وكان ذلك فى رؤيا ذات ليلة فسألت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن : كيف حدث شق الصدر . فقال عليه الصلاة والسلام : لقد شق صدرى وأنا فى اليقظة ما شعرت فيه بشئ من ألم . وأتانى الله بقلب سليم ليتحمل نزول كلام الله على هذا القلب . لان القلب الذى خلقت به طفلاً ، لا يتحمل هذا النزول .. وأنت يا عبد الرحيم تقرأ كتاب الله ، الذى قال جل شأنه : « بسم الله الرحمن الرحيم : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » .. « نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين » .

فمن رحمة الله بى أن هذا القلب الذى ارتضاه ربه ، فيه قوة ونورانية ونقاء وصفاء . وقد سلم من كل شئ من امراض الدنيا وعثراتها .. تجرى فيه آيات الرحمن التى نزلت عليه ، لم يخالطها شئ من قوة أخرى . حيث كان كلام الله هو القوة والحياة . وقد حفظه الله من الزيف والنسيان ، وليس للشيطان سلطان عليه . ومتى جرى قول الله فى مكان ، أصبح هذا المكان بعيداً عن الهوى ، وهذا هو معنى قوله تعالى عنى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .. وهذا هو المعنى فى قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من امرنا ، ماكنت تدري ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » ..

« ولقد كان الكتاب والايمان نورا في قلبي وعلى قلبي . وكان قلبي نورا يهدي به الله من يشاء من عباده بإذنه . وأرسلني جل شأنه لهدى الناس الى صراط الله المستقيم . وهذا هو قلبي يا عبد الرحيم » .

ثم بعد ان روى سيدى « عبد الرحيم » ذلك ، يقول فى مستمعيه :
يا عباد الله .. هذا هو ما وصل الى فى وصف قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسول الله نفسه ، وأنا هناك بالأرض الطيبة بالمدينة المنورة ، أنعم برضاء الله وحب رسوله العظيم .

يا عباد الله .. قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخالطه حقد ولا حسد . فقد عاش هذا القلب بقوة كلام الله الذى أنزل عليه ، وكلام الله غذاء للروح والجسم . وحياة الانسان .

قلب رسول الله أبيض . فقد غمره الصفاء . فأشرق به على العالم أجمع نبيا . وغمره النور ضياء فكان به رحمة للعالمين ، وكسته السلامة ، فأتى الله بها دنيا وأخرى ، ولقى الله بقلب سليم . ما نطق عن الهوى .. كل كلامه حكمة وكل كلامه كمال ، وكل كلامه حسن ، وكل كلامه جمال ، وكل كلامه حق ، وكل كلامه صدق ، وكل كلامه رحمة ، وكل كلامه معرفة ، وكل كلامه نور ، وكل كلامه ضياء ، وكل كلامه جلال ، وكل كلامه تقريب الى الله ، وكل كلامه فصاحة ، وكل كلامه خير ، وكل كلامه وقار ، وكل كلامه أمانة ، وكل كلامه شرف ، وكل كلامه غذاء للروح والقلب .. حتى كان الصحابة رضى الله عنهم يستأنسون بصوته عن بعد اذا غاب عنهم جسده الشريف ، يحسون به ريا لظمتهم ، وأطمئنانا لقلوبهم ، وشفاء لحبهم .

انظر الى كلام الله جل شأنه فيه صلوات عليه وسلامه :

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ..

و .. و .. و ..

لقد كان أسلوبه رشيقا يدخل القلب .. وكان عرضه يستقطب الانتباه كما كان تفسيره ينحونحو الفلسفة السهلة .. دون التعقيد . ولقد عرض صاحب كتاب « بهجة الاسرار » لمجموعة من أحواله ومقاماته التى تظهر فيها صوفيته وعلمه الغزير كما تظهر فيها منزلة سيدى « عبد الرحيم القنائى » فى العلم اللدنى ومعرفته بالاحوال والمقامات .. نجترى منها قوله رضى الله عنه :

● قطع العلائق : محو الفقد وظهور العقد بعدم الالتفات الى السوى ، وثقة القلب بترتيب القدر السابق .

● **التجريد** : نسيان الزمانين حكما ، والذهول عن الكونين حالا ، وغض البصر عن « الأين » ، وقتا حتى تنقلب الاكوان باطنا لظاهر ، ومتحركا لساكناً ، فيسكن القلب بتمكين القدر على قطع الحكم ، والابتهاج بمنفسحات الموارد وانسراح الصدور بصور الاكوان مع ثبوت المقام بعد التكوين ورسوخ التمكين ، فتكون السماء له رداء ، والارض بساطا .

● **والهبة** : في القلب لعظمة الله تعالى : طمس على أبصار البصائر لمشاهدته ومشاهدته لمن سواه حسنا ، فلا يرى الا بانوار الجلال ، ولا يرى الا بسواطع الجمال .

● **والرضا** : سكون القلب تحت مجارى الاقدار بنفى التفرقة حالا ، وعلم التوحيد جمعا ، فيشهد القدرة بالقادر ، والامر بالامر ، وذلك يلزمه في كل حال من الاحوال .

● **والجوع** : صفاء الاسرار في استغراق الازكار .

● **والشوق** : الاستغراق في مجال الذكر طريا ، ثم الغيبة في توسط الذكر سكرا ، ثم الحضور في اواخر الذكر صحوا . فهو بين استغراق يهيج ، وغيبة تزعجه ، وحضور ينعشه ، وثلاث وقت المشتاق استغراق وثلاثة غيبة ، وثلاثة حضور .

● **الواصل** : القى السمع للاصغاء ، وفتح البصيرة للنظر ، فتقلب حروف الاكوان في سر استماعه نذيرا وحكما ومواعظ ، فهو في رياض التدبير بين حدائق المواعظ الناطقة والصامتة ، وازهار الحكم الباطنة والظاهرة .

● **التقوى** : ان لا يظهر على محله حركة الا وهى منوطة بحبل العلم مع غيبة عن حركته . فان تكن باطنة ، ففي باطن العلم وجودها مع طهارة القلب وتسليم النفس ومبادرة الوقت . واذا صح هذا الوصف للعبد ، آتاه الله عز وجل العلم اللدنى ، وفتح له باب الالهام الوحي ، فيحدث روحه بأسرار الملكوت .

● **والحياة** : أن يحيا القلب بنور الكشف ، فيدرك سر الحق الذى برزت به الاكوان في اختلاف اطوارها فكيف هى حية بالله تعالى ، ويخاطبه بأسرار معانيها والطف مبانيها .

● **والتمكين** : شهود العلم كشفا ، ورجوع الأحوال عليه قهرا ، والتصرف بالقادم حتما ، وكمال الامر شرعا ..



ظل الامام « عبدالرحيم القنائى » - قطب المدرسة القنائية - ولا اقول الطريقة الصوفية - يردد دعاءه الاثير ليدى : « اللهم ارزقنى علم الحياة وحياة العلم .. وامنحنى نعيم الحياة وحياة النعيم . واغمرنى بفضل من النور ونور من الفضل .

واعطنى قوة الابدان وابدان القوة . واسالك نعمة الشفاء وشفاء النعمة . واسالك طول العمر إذا الطول والانعام ، واحسن الى يا عظيم الاحسان ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

ويقال أيضا ان دعاءه الذى ظل يردده مريدوه « اللهم ارزقنا رزقا لاتعذبنا عليه » .

ظل سيدى « عبدالرحيم القنائى » يواصل الجهاد فى مدرسته حتى توفاه الله بعد حياة حافلة امتدت ٧٢ عاما قضاها بين المغرب ودمشق والحجاز والصعيد .. مرورا بالاسكندرية والقاهرة . وقد كانت وفاته فى عام ٥٩٢ الهجرى .. وهونفس العام الذى توفى فيه « صلاح الدين الايوبى » .

ومدينة « قنا » التى عاش فيها سيدى « عبدالرحيم القنائى » رضوان الله عليه ، هى مدينة مصرية قديمة اسمها الفرعونى « شاسيت » .. وفى العصر البطلمى تسمت باسم « كنيابوليس » .. وهذا هو الاسم الذى حملته حتى الان ، وان كان فى العصر القبطى كان ينطق « كونا » ومنها الاسم العربى « قونه » .. ثم حرف الى « قنا أو قنى » .

ومن الصدف ان يكون سيدى « عبدالرحيم القنائى » قد غير اسمه أيضا مثل المدينة التى عاش فيها ، فلقد كان اسم سيدى « عبدالرحيم » الذى اختاره له والداه هو « أسد » .. وهو من الأسماء العربية الشهيرة المتكررة . وبعد سياحات وجولات ..

مجاهدة وجهادا فى سبيله تعالى رأى ان يستبدل « عبدالرحيم » .. بـ « أسد » .. انطلاقا من اقتناعه بأن الرحمة بالنسبة للمسلم ، لاتعنى المعنى البسيط المجرد لهذه الكلمة .. وانما هى أكثر الكلمات امتلاء بالمعانى . فهى تعنى الكرم من موقف القوة ، وتعنى الصلة بين الاخوة ، وتعنى الجلال فى طيبة .

وهكذا غير الشيخ اسمه إلى « عبدالرحيم » اما القنائى فهى صفة لصقت باسمه من المدينة التى عاش فيها ودفن فيها .. وفى الموروثات الشعبية نجد تلميحاً الى ذلك فيما يقولون :

السيد غير اسمه بالنور

جانا وفرش القلوب بالورد والنور

رسمنا الاسد على ايدينا وصدورنا

وفوق الكفوف

وجوه القلوب الى قايد .. بيتفجر نور

يا حبيبى يا قناوى .. يا منى عينى

ويرمز الى ذلك ايضا ان اغلب اهل الصعيد كانوا تبركا بسيدى د عبدالرحيم القنلاوى ، يدقون وشم الاسد والسيف على صدورهم وفوق اكفهم .. رمزا للشيخ المبارك الذى نور الصعيد ..

ومسجد سيدى د عبدالرحيم القنلاوى ، الملحق به ضريحه والموجود حاليا يرجع بناؤه الى النصف الاول من القرن العشرين .. الا انه حل محل الزاوية التى بناها الشيخ فى حياته ، والتى كان يتعبد فيها .. كما كان ايضا يستقبل فيها زواره ومريديه .

ويتكون المسجد الحالى - كما تقول الدكتورة د سعاد ماهر ، من صحن مربع بسقف به د شخصيخة ، تعلوها قبة صغيرة ضحلة ، ويحيط بالصحن اربعة ايوانات عميقة متعامدة ، اكبرها ايوان القبلة ، ويقع فى الجهة الشرقية من المسجد . ويتقدم كل ايوان عمودان ، كل منهما يتكون من عمودين ملتصقين ويعلو العمودين ثلاثة عقود تكون واجهة الايوان .

والمدخل الرئيسى للمسجد يقع فى الجهة الجنوبية ، وهو مرتفع اذ يصعد اليه بست درجات وتتقدمه مظلة ذات أعمدة . وفى الركن الجنوبي الشرقى للمدخل توجد منئذنة الجامع . وخلف الايوان الشرقى يوجد الضريح .. وهو عبارة عن أركان المربع .. والضريح مدفون فيه سيدى عبدالرحيم القنلاوى وسيدى ابوالحسن الصباغ تلميذه وزوج ابنته .

وهذا الضريح .. تروى حوله قصص الكرامات ، والتى يقولون ان من كراماته رضى الله عنه د فائدة الاربعاء . وهذه الكرامة تروى عن ابنى عبد الله القرشى . وهى أن من له حاجة عند الله تعالى يزور سيدى عبدالرحيم القنلاوى يوم الاربعاء بكيفية مخصوصة ، بأن يمشى الى قبره حافيا ، مكشوف الرأس وقت الظهيرة ، فيدخل ويصلى ركعتين ، ويقرأ شيئا من القرآن الكريم ، ويقول : اللهم انى اتوسل اليك بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبابينا آدم وامنا حواء ، وما بينهما من النبيين والمرسلين ، وبعبد الرحيم ، اقضى حاجتى .. ثم يذكر حاجته .

ويروى بتواتر .. انه لم يجربها احد الا وقضيت حاجته ..

والقد ظل ضريح سيدى د عبدالرحيم القنلاوى ، قبلة للقصاد من المؤمنين ، حتى أن المؤرخين ، يقولون إنه بعد موته زار ضريحه سيدى د احمد البدوى ، - وقد قال له - كما تروى المأثورات الشعبية - الكثير ، ومنه انه دعا الى جواره ان يقضى الله حوائجه ، توسل اليه بتلميذه الصباغ :

انا يا سيدى عبد الرحيم ايا الاسد
يا كعبة القصاد يا اعلى سند
انا في جوارك يا ابن بنت المصطفى
مما دهانى من كرب أو شدد
بالسيد الصباغ من اوليته
بالمشهد الاعلى ، بسرك قد ورد
انى قصدتك في قضاء حوائجى
قل مرحبا يا ابن الحسين ، ومد يد

وهناك رواية منسوبة لشيخ الاسلام « ابن دقيق العيد » ، وكان في مصر ، في زمن
سيدى « احمد البدوى » . وتقول هذه الرواية ان شيخ الاسلام « ابن دقيق العيد » زار
جبانة قنا وقت الظهير ، وجلس عند قبر سيدى « عبدالرحيم القنائى » .. واذا بانوار
تخرج من قبر سيدى « عبد الرحيم » وانوار اخرى تخرج من قبر سيدى « ابي الحسن
الصباغ » .. حتى توارى عنى نور الشمس لشدة ضياء تلك الانوار . ثم سمعت قائلا من
قبر سيدى « عبدالرحيم » يقول « الله نور السموات والارض » وقائلا يقول من
قبر الشيخ « ابي الحسن الصباغ » : « نور على نور » .



يقولون ان ضريح سيدى « عبد الرحيم » مجلل بالانوار ، وان خيرا وبركة ترفرف
فوقه .. وان كثيرين من حكام مصر كانوا يعتقدون في بركاته .. وانهم أوقفوا الكثير عليه -
قبل حل الاوقاف . ومن بين تلك الاوقاف قطعة أرض اسمها « الغدان » .. وفي بعض
المصادر « الفداك » .. وهذه الأرض يصلح ترابها لعجينة الفخار الذى تصنع منه القلل
والاباريق ، والتي كان الحجاج يحملونها ويعودون بها من الاراضى المقدسة وفيها بعض
ماء زمزم .. ولأجل هذا فان القلل القناوى مازالت لها شهرتها وبركتها في تبريد الماء ..
وتحويله الى ماء زلال .. لأنها من الأرض المدفون فيها سيدى « اسد » .. أو « عبد الرحيم
القنائى » رضى الله عنه .



الامام الطرطوشي

صاحب سراج الملوك
المدافع عن المظلومين



●● كما يروى الاستاذ المؤرخ الكبير « محمد عبدالله عنان » ، الحجة في تاريخ الاندلس .. فان عصر الطوائف بالاندلس ، كان عصرا غريبا .. يمتاز من الناحيتين السياسية والاجتماعية بعدة خصائص تجعله عصرا قائما بذاته .

فمن الناحية السياسية ، نرى الاندلس في عصر الطوائف تنتثر الى دويلات عديدة ، متنابهة متنافسة ، يسودها الخلاف والتفرق ، وتشتبك في حروب اهلية صغيرة لانهاية لها .

ونرى اسبانيا النصرانية ، تستطيل عليها ، وتترصد بها .. وتحاول ان تؤلب بعضها على بعض ، وان تنتزع منها ما استطاعت من القواعد والاراضى .

ومن الناحية الاجتماعية ، نرى في دول الطوائف ، مجتمعات منحلة ، يغلب عليها الضعف والخور ، والانهمك في الترف ، وحياة المجون والدعة والاستهتار .

على ان اغرب ظاهرة - والحديث هنا لاستاذنا عبدالله عنان - تبدو خلال هذا الانحلال الشامل ، الذى كان يسود مجتمع الطوائف .. هو ان هذا المجتمع كان من الناحية الاخرى ، يبدو في اثواب لامعة زاهية ، وبسطع نهضة ادبية شاملة ، وانها لظاهرة من ابرز ظواهر عصر الطوائف ان يكون معظم حكامها من اكابر الادباء والشعراء والعلماء ، وان تكون قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون ، وان يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين ، ومنهم بعض قادة الفكر الاندلسي والفكر الاسلامي بصفة عامة .

في هذا المجتمع المترف .. الذى يعشق متع الحياة المادية ، ومن بين هذه الجمهرة الحاشدة من ائمة العلوم والآداب .. ظهر مفكر اندلسي من نوع خاص ، يتخذ من اوضاع هذه الدول الصغيرة - دول الطوائف ، ومن أحداثها وسياسة ملوكها ورؤسائها .. مادة لتأملاته ، ويتأثر بها في تفكيره ، ويصوغ لنا منها مبادئ ونظريات خاصة .. هو الامام المتصوف العلامة « ابوبكر الطرطوشى » ، الذى جاء الى الاسكندرية .. التى كانت دائما مهبط علماء المغرب والاندلس المفضل .. ففي الوقت الذى نزل بها الإمام « الطرطوشى » ، نزل بها مواطنه العلامة « امية بن ابي الصلت

الاندلسى ، المتوفى سنة ٥٢٩ هـ ، ونزل من بعده بنحو نصف قرن موطنه العلامة المقرئ الشهير « أبو القاسم الرعينى الشاطبى الضرير » ، امام القراءات والمتوفى سنة ٥٩٠ هـ وهو الذى أورث مصر علم القراءات ، ونزل فى منتصف القرن السابع الهجرى العلامة الاندلسى المتصوف « أبو العباس المرسى » المتوفى سنة ٦٨٥ هـ .. وغيرهم كثير

هذا نموذج فريد من الأئمة الصوفيين .. كان شمعة مضيئة فى ليل مظلم ، حالك السواد . لكنه بأشراق قلبه وصدق إيمانه .. أدى ما عليه من واجب نحو دينه ونحو المسلمين ، فعلا صيته وهزت كلماته قلوب الناس .. ورجت السلاطين والملوك فهابوه .

هذا العالم الجليل والامام الصوفى جاب عالم الاسلام من مغربه إلى مشرقه فى النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة .. بدأ رحلته الطويلة من الاندلس وأنهاها فى الاسكندرية .. وخصص من نفسه ومن علمه الغزير هاديا ومعلما وواعظا للملوك والسلاطين .. وهدفه من وراء ذلك كله أن يعود الاسلام الى عزته ومنعته ، وأن تتخلص ديار الإسلام من الكوارث والتمزقات .

من طرطوشه - أوطرطوسه - فى الأندلس ، كانت قصته المثيرة ، باحثا ودارسا ومدرسا فى فروع العلم والفلسفة والتصوف ، أمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر .. لا يخشى فى الله لومة لائم .. وكما يقول « المقرئ » ، صاحب كتاب « نفع الطيب » .. « كان الطرطوشى قوالا للحق ، مدافعا عنه » .

ونهاية سياحات هذا الامام فى بلاد الاسلام ، كانت « الاسكندرية » .. حيث حظ رحاله ، واستقر المقام بهذا العالم الشجاع المؤمن ، المعتد بنفسه ، والذى لا يخشى فى الله لومة لائم . وكانت هذه النهاية - كما كانت بدايتها - نسيجا لحياة ثرية .. وخلصا للناس الثغر .. حتى لقد قال قولته المشهورة : « وجدت فى الاسكندرية قوما ضلالا .. فكنت سبب هدايتهم » .

لكن الامام « الطرطوشى » ، قبل أن يهل على « الاسكندرية » كهوائها الطيب ، وقبل أن يصير اهلها على تشريفه لها ، ليعيش بينهم .. كانت له فتوحات ، وصولات وجولات .. فى كل من مكة المكرمة ، وبغداد ، والبصرة ، والشام .. ثم رشيد فالإسكندرية ، فالقاهرة . فالاسكندرية .

وقبل أن يدخل الاسكندرية ليعيش فيها ، ويستقر بها .. كانت هذه المدينة فى شدة وكرب ، لم تشهدهما على طول تاريخها العريق .. فقد جاء « الطرطوشى » الاسكندرية والبلد خراب ، صفوة علمائها قد قتلوا ، بحيث نضب معينها من العلماء الأجلاء ..

أحس أهل الاسكندرية ، أنهم في حاجة ماسة الى جريان ماء العقيدة والتقوى والصلاح ، بعد ان كادت تتوقف . إنهم في حاجة الى قطب فقيه كبير سبقته شهرته في عالم الاسلام . يتصدر حلقات الدرس في مساجدها التي تعطل وتهدم أكثرها .. حتى من إقامة الجمعة والجماعة .. ولذلك شكل الناس وفدا من الباقي من فقهاء الاسكندرية وأعيانها .. وسافر الوفد الى مدينة رشيد ، وعلى رأسه قاضى الاسكندرية ، قابلوا الامام « الطرطوشى » طلبوا اليه ورجوه ان يذهب معهم الى بلدهم .. والحوار في الطلب . والإمام « الطرطوشى » لم يتقاعس عن الجهاد فقبل رجاءهم ، لأن الجهاد فرض عين على كل مؤمن .. ناهيك عن هذا الإمام الكبير العالم الصوفي ...

وبالفعل .. اصطحب معه تلميذه من فلسطين الشيخ « السائح » .. ودخل الثغر مع الوفد الذى جاءه .. وبدأ نور الايمان يسلط أضواءه على الاسكندرية حين بدأ الامام يعمر المساجد بدروسه وينشر العلم على مذهب الامام مالك - مذهب هو - وكثر الناس حوله في حلقاته ، يأخذون عنه ، ويفيدون منه ومن علمه . وقد كان دخوله الاسكندرية ، في عهد الوزير الفاطمى « الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى » عام ٤٨٨ هجرية .. أيام دولة الفاطميين في مصر .



قبل أن يأتى الامام « الطرطوشى » مدينة الاسكندرية .. كانت « مصر » تحت حكم الخليفة الفاطمى « المستنصر بالله » .. والذى ظل يحكمها ٦٠ عاما وبضعة أشهر . وكان عهد هذا الخليفة ، كما يقول دكتور « حسن ابراهيم حسن » في كتابه « تاريخ الدولة الفاطمية » .. أطول عهود الخلفاء الفاطميين في مصر .. وهذا العهد في فترته الاولى كان من أزهر فترات حكم الدولة الفاطمية .. حتى أن سلطان الدولة امتد فيه على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال افريقيا . وكان اسم « المستنصر بالله » تجرى الخطابة به على منابر تلك البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غربا الى الخليج شرقا .. وكذا صقلية ، وبغداد نفسها ، حاضرة العباسيين .

لقد زار الرحالة الفارسى « ناصر خسرو » مصر في عام ٤٣٩ الهجرى ، في أيام حكم « المستنصر بالله » الاولى ، ووصف البلاد وحالتها في كتابه « سفرنامه » الذى نقله الى العربية الدكتور « يحيى الخشاب » ، حيث قال عنها « انها تلفها الطمانينة واليسر والرخاء .. » وقد اطنب في وصف البلاط الفاطمى وابتهته ، وما كانت عليه القاهرة الفاطمية في ذلك الوقت من يسر ورخاء وإمبراطورية شاسعة الأرجاء .

غير ان الحالة في مصر سرعان ماتبدلت بعد ذلك من النقيض الى النقيض فقد حل بالقاهرة قحط بدأ عام ٤٤٦ هـ . وانخفض ماء النيل مدة سبع سنوات .. اهتمت فيها الزراعة ، وانتشرت المجاعات ، وعم الوباء الذى يعتبر اطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى ، حيث امتد ثمان سنوات من عام ٤٤٦ هـ . الى عام ٤٥٤ هـ . ويقول بعض المؤرخين ، إنه كان يموت بمصر عشرة الاف نفس في اليوم الواحد . وهدمت الاقوات ، حتى اكل الناس القطط والكلاب ، ثم اكل الناس الجيف .. حتى ان البعض يشبه هذه الحالة ، بما كانت عليه أوروبا في العصور الوسطى ، أيام الوباء الذى انتشر فيها وسماه الناس « الموت الأسود » .

ومما يذكر .. أنه تقلد الوزارة في مصر في تلك الفترة ، ومدتها تسع سنوات حوالى ٤٠ وزيرا .. وكان الوزراء هم أصحاب الأمر والنهى في البلاد وقد اقترنت هذه الحالة التى اطلق عليها المؤرخون « الشدة العظمى » .. بقيام الفتن ، والحروب الأهلية .. حتى استدعى « المستنصر » الى مصر واليه على عكا « بدر الجمالى » ، الذى هدا الحالة ، وبنى سور القاهرة : إستدعاه « المستنصر » في عام ٤٦٦ هـ .. فأعاد - كما يقول المؤرخ « ابن ميسر » في كتابه « تاريخ مصر » : « النظام ، ووجه همه الى إصلاح حال البلاد ، وقضى على المفسدين » .

لكن لم تكد تمضى فترة قصيرة .. حتى مات « المستنصر » ، فبادر الوزير « الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى » فأجلس « ابا القاسم أحمد » أصغر أبناء « المستنصر » على عرش الخلافة الفاطمية .

هنا تبدأ شدة أخرى بالنسبة للاسكندرية .. حين يغضب أكبر أبناء « المستنصر » ، واسمه « نزار » .. لتخطى دوره ، خاصة وان أباه كان قد ولاه عهده في حياته . وحين يرى « نزار » ضياع حقه في « الخلافة » يسير الى الاسكندرية مع أعوانه ، حيث يحسن واليها « ناصر الدين افتكين » التركى استقباله ، ويبايعه مع أهل الاسكندرية بالخلافة . وهنا أيضا تحدث ظامة كبرى .. حيث يخرج لقتاله « الأفضل بن بدر الجمالى » ، فيحاصر المدينة بجيش كبير ، حصارا شديدا ، وينصب عليها المجاليق .. فأصبحت الاسكندرية بالتخريب . كما انتقم « الأفضل » من أهل الاسكندرية ، الذين شقوا عصا الطاعة ، فقتل الكثير من علمائها بحيث لم يبق في المدينة كبير من علمائه .. !!



في هذه الفترة يأتي الإمام « الطرطوشي » .. ليدرس مذهب الامام « مالك » .. ويتقاطر الناس عليه يأخذون منه ، ويقراون عليه ، ويفيدون من علمه ..

وهنا ملاحظة تذكرها الدكتورة الاستاذة « سعاد ماهر » في كتابها « مساجد مصر واولياء الله الصالحين » ، تقول :

« ومما تجدر ملاحظته ، أنه على الرغم من أن المذهب الرسمي للدولة الفاطمية كان هو المذهب الشيعي الفاطمي ، وأن الدولة بذلت جهودا كبيرة في نشره ، فقد ظلت الاسكندرية « سنية » على مذهب الامام مالك . ويرجع السبب في ذلك الى مرابطة الكثير من القبائل العربية . فقد دأب الخلفاء الراشدون الاربعة ، وكذلك خلفاء الدولة الاموية والدولة العباسية على أن يبقى ربع الجيش الموجود في مصر ، بمدينة الاسكندرية لحمايتها ، وحماية حدود مصر الشمالية .

« كما كانت الاسكندرية دائما محط رجال المغاربة الذاهيين للحج أو العائدين منه ، ولعل هذا يفسر لنا رغبة أهل الاسكندرية الملحة في مجيء الامام الطرطوشي اليهم ، كما يفسر السبب في وفود كثير من علماء وأئمة أهل المغرب اليها » .

الإمام الطرطوشي .. هو أبوبكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهرى الطرطوشي . ويعرف في المصادر الأسبانية « بابن رندقة » . وهذه التسمية من تسميات الكتاب الفرنسيين ، في محاولة منهم لجعله فرنسي الأصل .

وتقول الدكتورة سعاد ماهر : إننا اذا كنا لانعرف شيئا عن أسرة أبى بكر الطرطوشي ، فإن المراجع التى أرخت له لم تذكر شيئا عن أسرته ، ويخطئ من يحاول إرجاع نسبه الى أصل فرنسي ، اذ أن نسبه واضح ، وينتهى الى قریش .

ولقد ولد الإمام الطرطوشي في طرطوشه ، ثغر مملكة سرقسطة الاندلسية ، الاول .. في السادس والعشرين من جمادى الاول عام ٤٥٠ - ٤٥١ الهجرى « يوليو ١٠٥٩ الميلادى » . وكانت طرطوشه ، كما يصفها المؤرخ أبو المحاسن في « الفجوم الزاهرة » مدينة كبيرة من مدن الأندلس ، تقع على سفح جبل الى الشرق من مدينتى بلنسية وقرطبه . . يحيط بها سور حصين من الصخور بناه بنو أمية . كما كانت « مدينة منبجة ، قريبة من البحر ، بينها وبينه عشرون ميلا ، متقنة العمارة ، مبنية على نهر أبرة » .

كانت طرطوشه داخل مملكة سرقسطه تتمتع في ظل أمرائها من بنى هود بالرخاء والازدهار . بل كانت مركزا من مراكز العلوم الاندلسية . كما كان بلاط بنى هود منتدى للعلماء والادباء . وكان أمير سرقسطه في الوقت الذي برز فيه الطرطوشى ، هو المقتدر بن هود « ٤٣٨ - ٤٧٤ هـ » .. من اكابر علماء عصره ، يشغف بدراسة الفلك والفلسفة والرياضيات .. وله في ذلك كتب ضاعت .. كما كان المقتدر بن هود يلتقى في بلاطه بأكابر العلماء ، ومنهم العلامة الكبير أبو الوليد الباجى ، إمام عصره في الفقه ومسائل الخلاف .

يقول الدكتور « جمال الدين الشيبلى » .. « إنه إعتادا على ما جاء في كتاب « سراج الملوك » ، من قصص وروايات عن أفراد أسرة الطرطوشى ، فإن والده كان عالما من المشتغلين بالعلم ، ولذلك وجه ابنه هذه الوجهة ، وأن أسرة الطرطوشى كانت على شيء من الثراء ، ولذلك استطاع الطرطوشى أن يعيش في وطنه حتى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو عالة على أهله يطلب العلم ، وهم يكونونه . واستطاع قبل خروجه للرحلة أن يزود بنفحة وفيرة » .

وقد بدأ الإمام الطرطوشى رحلة العلم في مسجد طرطوشه الكبير .

وفي رحاب العلامة « أبى الوليد الباجى » ، تلقى عنه الكثير ، وخاصة في مسائل الخلاف ، ولازمه أهواما طويلة خلال إقامته بسرقسطه .. حتى أن « الطرطوشى » تأثر في تفكيره وفلسفته الكلامية ، بفكر هذا القطب الكبير . كما تأثر أيضا بتفكير صنه وقرينه في غزارة الفقه ومسائل الخلاف والفرق العلامة « ابن حزم الاندلسى القرطبى » . فضلا عن ذلك ، فقد شهد « الطرطوشى » في شبابه أحداث دول الطوائف في الاندلس . خاصة مملكة سرقسطه .. عن كتب ، وهى التى أملت عليه الكثير من نظرياته في السياسة والاجتماع .

يقول « الطرطوشى » في « سراج الملوك » .. أشهر مؤلفاته ، إنه لما أراد الرحيل الى المشرق لطلب العلم ، كان شديد الخوف على نفسه لجهله بالتجارة أو بآية حرفة .. لكنه في الواقع ذهب ومعه ما هو أهم : دعم مادى من أسرته وكنز من العلوم في رأسه .. رحل « الطرطوشى » ، وهو شاب يافع في حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، في ٤٧٦ هـ . رحل أولا الى « مكة المكرمة » ، حيث قام بأداء فريضة الحج ، وحيث استقر بها بعض الوقت ، يلقى فيها بعض الدروس ، ويستفيد مما يلقى من دروس .. ولاشك أنه كان قد مر على « الاسكندرية » في بداية رحلته .. لكن مؤرخيه لم يذكروا شيئا عن مروره الاول .

ومن « مكة » قصد « بغداد » .. و« بغداد » في ذلك الوقت كانت مزدهمة بالفقهاء والعلماء وتنفض بالنشاط العلمي .. حيث كانت هناك المدرسة « النظامية » نسبة لنظام الملك . وهذه المدرسة كانت بمثابة قلب الحركة العلمية هناك . وقد درس « الطرطوشي » في « بغداد » على أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي ، وأبي أحمد الجرجاني ، وأبي سعد بن المتبولي .. وهم يؤمنون أئمة الفقه الشافعي ..

وفي « بغداد » كذلك ، اتجه « الطرطوشي » الى التصوف .. حيث كان الفكر الصوفي متأصلا على يد أقطابه .. وقد درس التصوف هناك ، ونبع فيه ، حتى عده من كتبوا عنه واحدا من المتصوفة الزاهدين .. وقد حفظ شعرا صوفيا كثيرا موجود أغلبه في كتابه « سراج الملوك » .

ومن « بغداد » .. بعد أن أتم « الطرطوشي » زاده من الدراسة ، وكون لنفسه رؤية خاصة به تقوم على الزهد ، والسعى للامر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ذهب الى البصرة ، حيث نهل من علم « أبي علي التستري » .. ثم رحل الى الشام ليستوطنها فترة .. حيث عاش هناك بعلمه الغزير وحلقاته التي زادت .. واشتهر بورعه وزهده ، لدرجة أنه كان - كما يقول أحد مؤرخيه - « يأكل على شقف من الفخار ، وينام على القراب » . ومن جبل « لبنان » ذهب الى « بيت المقدس » ، حيث التقى بتلميذه الشيخ السناح ولبث هناك فترة من الوقت .. وشهدت مساجد بيت المقدس دروسه وحلقاته . يقول « ياقوت الحموي » : « سكن الطرطوشي الشام مدة ودرس بها وذاع صيته ، واخذ الناس عنه علما كثيرا » .. وقد ذاع صيته في بيت المقدس ، مما دفع بأهلها الى الذهاب اليه ليزوروه .. وكانت ختام رحلة العلم الى « رشيد » في « الاسكندرية » .

في « الاسكندرية » يستقر الامام « الطرطوشي » ، منذ عام ٤٤٨ الهجري ... في بداية عهد الوزير الفاطمي « الأفضل شاهنشاه بن الجمالي » ، وهو في نحو الثامنة والثلاثين من عمره . واقبل عليه الطلاب ينهلون من علمه العزيز في الحديث والفقه ومسائل الخلاف ..

ويصف المؤرخون « الاسكندرية » عند قدوم « الطرطوشي » ، أنه وجدها معطلة دينيا ، ما أقيمت فيها صلاة الجمعة بالمسجد منذ فترة طويلة . فثار الامام العالم وهاج . وعرف الناس بوجوده ، فتجمعوا حوله للدرس والصلاة .. حتى أن « الاسكندرية » بدأت تعود الى مكانتها ، وفتحت المدارس على يديه ، وصارت « الاسكندرية » بوجود الامام « الطرطوشي » بها « مدرسة الدين في مصر » .

وفى « الاسكندرية » ، كذلك يتزوج الامام « الطرطوشى » من أكبر بيوتاتها ، وكانت زوجته خالة تلميذه وخليفة فكره « أبى الطاهر » .

لكن لم يلبث « الطرطوشى » أن يسافر من الاسكندرية الى القاهرة ، كما يروى فى كتابه « سراج الملوك » ، ليقابل الوزير الفاطمى .. حيث كان « الطرطوشى » قد سمع بما يأتية « الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى » من ظلم وتعسف مع الرعية . وقد استقبله الوزير الفاطمى استقبالا حسنا ... لكن « الطرطوشى » لم يعبا بهذا الاستقبال ، وصار يعظ الوزير القوى ، وينصحه بتقوى الله وطاعته ، واقامة العدل ، وقمع الظلم ، والرفق بالرعية .

يقول « ابن خلكان » فى وفيات الاعيان ، ان الطرطوشى دخل على الافضل بن امير الجيوش بمصر ، فبسط تحته مئزرته ، وكان الى جانب الافضل نصرانى ، فوعظ الافضل حتى ابكاه ، ثم انشد يقول :

يا ذا الذى طاعته قربه
وحقه مفترض واجب
ان الذى شرفت من اجله
يزعم هذا انه كاذب

واشار « الطرطوشى » الى النصرانى ، فاقام الافضل النصرانى من موضعه وابعده .

ولقد كان مما قاله « الطرطوشى » للافضل : « اعلم ان الملك الذى اصبحت فيه ، انما صار اليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك ، فائق الله فيما حولك من هذه الامة . فان الله سائلك عن النقيير والقطمير . فافتح الباب ، وسهل الحجاب وانصر المظلوم . اعانك الله على ما قلذك ، وجعلك كهفا للملهوف ، وامانا للخائف » .

والواقع أن الإمام « الطرطوشى » بهذه الجراءة ، حين يذهب الى القاهرة ، الى وزير الدولة الفاطمية لى يلقى اليه بموعظة .. فإنما هذه خير شهادة للرجل على جراته فى الحق . لقد قال « الطرطوشى » كلمته دون أن يرهب الوزير الفاطمى . ثم يعود الى « الاسكندرية » .

في « الاسكندرية » .. كان جهاد آخر . فقد نشبت بين « الطرطوشي » وبين قاضيه « مكين الدولة بن حديد » ، خصومة شديدة ، بسبب ما كان يثيره الامام من نقد حاد حول تصرفات هذا القاضي ، في شئون الأموال والمكوس والمغازر والمظالم ، وغير ذلك من التصرفات الادارية والقضائية . يضاف الى ذلك ، ما كان يصدره الامام « الطرطوشي » من فتاوى تثير الرأى العام في بعض الشئون ، مثل قوله بتحريم الجبن الذى يأتى به « الروم » الى « الاسكندرية » - وكانت « بالاسكندرية » جالية كبيرة - ومثل حملاته المتكررة على كثير من العادات السائدة في المجتمع السكندرى .. وهو ماكان يصفه الطرطوشي « بالبدع المحرمة » .. !

وهنا يضيق القاضى « بالطرطوشي » وأرائه ، ويبحث في حقه الى وزير الخليفة بالقاهرة بشكاوى وتقارير ، وصفت بأنها « مرة » . وهذه التقارير والشكاوى صورت « الطرطوشي » شخصا خطرا على النظام ، مثيرا للشغب .

وهنا يبادر « الافضل شاهنشاه » ، فيرسل لاستدعاء الامام « الطرطوشي » الى القاهرة سنة ٥١٥ هجرية « ١١٢١ ميلادية » . ويحضر « الطرطوشي » ومعه خادمه الى « الافضل » ، الذى استقبله ولم يسيء معاملته .. لكنه أمر بأن يقيم في مسجد « الرصد » في الفسطاط الى أن يجرى البت في شأنه كما قرر له راتبا شهريا ضئيلا .. هذا يعنى أن « الافضل » حدد إقامة الامام ، أو اعتقاله - بالمفهوم الحديث - لعدة أشهر .

لكن الإمام الثائر .. لم يسكت على الاعتقال المقنع ، ولم يستكن .. فقد أضرب عن الطعام الذى يشتري بنفقة السلطان . وأمر خادمه أن يجمع له شيئا من « المباح في الأرض » ، وظل يتقوت به مدة ثلاثة أيام ..

وتقول المصادر .. إنه بعد صلاة مغرب اليوم الثالث ، وكان ذلك هو اليوم السابق لعيد الفطر ، قال الامام « الطرطوشي » لخادمه : « رميته الساعة » . وكان يقصد بذلك « الافضل » . وتضيف هذه المصادر ، أن « الافضل » مات بالفعل .

بوفاة « الافضل » . كان خلاص « الطرطوشي » من المعتقل الاجبارى في مسجد « الرصد » .. حين أفرج عنه الوزير « المأمون البطائحي » . ويعود الى « الاسكندرية » ، ليستأنف جهده ، ويبدأ حياة الدرس والاقراء كما يبدأ في نفس الوقت بتأليف أشهر كتبه بعنوان « سراج الملوك » .. والذى جاء

حصيلة أحداث شاهدها وعاشها في كل مكان ذهب اليه ، شاهدها وعاشها في
الاندلس في شبابه ، وشاهدها وعاشها في العراق والشام ومصر في نضجه وكهولته .
وهذا الكتاب القيم ، قدمه « الطرطوشي » بعد أن إنتهى منه للوزير « المامون
البطائحي » ، الذي خلف « الأفضل شاهنشاه » في الوزارة ، حيث يقول في تقديمه :
« للاجل المامون ، تاج الخلافة ، عز الاسلام ، فخر الانام ، نظام الدين . خالصة
المؤمنين . أبى عبد الله محمد الاموى » ،

وبعد أن أتم « الطرطوشي » نسخ كتابه ، حمله معه الى القاهرة ، وقدمه بنفسه
الى الوزير ، الذى استقبله وأسبغ عليه احترامه وعطفه ورعايته .

والكتاب عن فن السياسة والحكم ، من وجهة نظر « الطرطوشي » .. العالم
والفقيه والامام . والهدف من تقديمه للمامون البطائحي ، الذى اعجب به
« الطرطوشي » .. لكى يعيد النظر في أسلوب الحكم وتقاليده ..

ويقال ، إن « المامون البطائحي » ، استعمل مع الامام أسلوب الدهاء والسياسة
وجلس بين يديه كالتلميذ .. بينما راح « الطرطوشي » يشرح له ، وينتقده ، ويتحدث
معه شارحا وجهة نظره في بعض المسائل والشئون المخالفة للشرع في نظره ، والتي
ضمنها كتابه .

وبعد شهرين قضاهما الامام « الطرطوشي » في بلاط الوزير « البطائحي » يحضر
جلساته مع وزرائه ورجال الدولة ... سافر الى الاسكندرية ، لكنه قبل السفر طلب من
« البطائحي » أن يبني مسجداً كبيراً « بالاسكندرية » . وقد وافق « البطائحي » ،
على بنائه من ماله الخاص ، وفي فترة وجيزة . وقد بنى المسجد فعلا ، لكنه لا يوجد له
أثر الآن في الاسكندرية ، في منطقة باب البحر التى قيل انه بنى فيها .

لكن ماذا .. في هذا الكتاب ؟

في مقدمة الكتاب يلخص الطرطوشي محتوياته ، فيقول : انه جمع فيه ما
تنطوى عليه سير الامم السابقة ، وبالأخص ملوك الطوائف وحكام الدول .
وأنه وجد ذلك في ست من الأمم ، وهم : العرب ، والفرس . والروم . والهند .
والسند . والسند هند . وأنه عمد في ذلك الى استعراض ما الفاه في كتبهم من الحكم
البالغة ، والسير المستحسنة .. بالإضافة الى ما رواه وجمعه من سير الانبياء ، وأثار

الأولياء ، وبراعة العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونوادير الخلفاء ، وما انطوى عليه القرآن الحكيم .

ويفتتح « الطرطوشى » كتابه عن الخصال التى يقوم عليها الملك ، والتى تؤدى الى هدمه ، وعن الخصال المحموده فى السلطان ، والتى تمكن له ملكه ، وتسبغ الكمال عليه ، ثم تلك التى توجب ذمه ؛ كما يتحدث عما يجب على الرعية اذا جنح السلطان الى الجور ، وعن صحبة السلطان وسيرته مع الجند ، وفى اقتضاء الجبابة وانفاق الاموال .

أما عن الخصال المحموده فى السلطان ، فهي كما يراها الطرطوشى : العدل ، والتواضع ، والحزم ، والحذر ، والحلم ، ولين القول . ثم يتحدث « الطرطوشى » عن خير السلطان وشره ، كما يتحدث خلال ذلك عن العقل والدهاء والمكر ، والصفات البشرية من الحلم والجود والشج والبخل والصبر وكتمان السر والشكر . ويتحدث كذلك عن الظلم وسوء عواقبه ، وعن « السعاه » وقبحها ، وعن القصاص وحكمه .. ويقرن بذلك كله أخبار ملوك العجم ، ويورد خلال ذلك بعض الحكم المنتهبة .. بالاضافة الى كلام متنوع عن الملوك والانبياء والناس ، وعن الزهد والحكم والوصايا والعظات .

ويعقد « الطرطوشى » جزءا للوزراء وصفاتهم وأدابهم .

ويتحدث عن المشاورة والنصيحة .. وكونهما يعتبران من أسس الملك ، ومن هذا يبدو أن الطرطوشى كان يدعو للشورى ..

ثم يأتى الحديث عن قواعد السلطة ، ويؤيد ذلك بإيراد الحكم والاخبار من أقوال الاسكندرية الأكبر ، وأردشير ، وأنو شروان وبزر جمهر ..

ويعود للسلطان حيث يتحدث عن خصاله وسيرته مع الجند ، وتصرفاته نحو الاموال والجبابة ، والاقطاع ، وسياسة السلطان نحو عماله ... ثم سياسة الخلافة مع الذميين ، وأحكام أهل الذمة ، والجزية وأحكامها ، والقضاة والعمال ، والحرب وتدبيرها . ثم يختتم الكتاب بالحديث عن أخبار ملوك العجم وحكم حكمائهم .



فى كتاب ذى سراج الملوك ، القيم .. واضح أن « الطرطوشى » قد حاول علاج ما اصطلح العلماء على تسميته بسياسة الملك ، أو سياسة الملكية والسلطانية . وقد كان

الطرطوشى، واثقا من قيمة الكتاب ، حتى انه ذكر في مقدمته انه « كتاب لم تسبق الى مثله اقلام العلماء » .

لكن أستاذنا محمد عبد الله عنان ، يرى انه مع قيمة هذا الكتاب في وقته ، فإن موضوعه قد عالجه من قبل « الطرطوشى » أكثر من مفكر مسلم .. مثل « ابن قتيبة » المتوفى عام ٣٣٦ هـ في كتابه « عيون الاخبار » . كما عالج هذا الموضوع أيضا جماعة « اخوان الصفا » في أواسط القرن الرابع الهجرى في بحوثهم المتعلقة بالسياسة . كما عالجه أيضا « ابو الحسن المارودى » في كتابه « الاحكام السلطانية » ، وفي رسالته عن « الوزارة وسياسة الملك » .

على أنه للحقيقة والتاريخ ، ولكى لانظلم الامام ، فانه يمتاز على اسلافه بالتوسع والإفاضة ، وبأنه طرق بعض الابواب التى لم تطرق من قبل .

والحقيقة ، فإن كتاب « سراج الملوك » يعتبر أكبر مؤلف من نوعه ، من حيث ضخامة مادته ، وتنوع موضوعاته وراثتها ، والصفة الدينية تغلب على أسلوب المؤلف ، وليست الصفة الفقهية .. التى تغلب مثلا على بحوث « الماورودى » فى أحكامه السلطانية . كما أن « الطرطوشى » رغم قيمة الكتاب ينحويه نحو الوعظ ، ويتضمن كثيرا من الحكم والاحاديث والاقوال الماثورة .. كما أن الكتاب ينقصه الربط والتنظيم والتنسيق ، فهو يورد موضوعاته مستقلة متباعدة ، بحيث تغرق فيها ، وربما قد تختلط عليك الأمور .

ومع ذلك ، بل رغم ذلك ، فالامام « الطرطوشى » قد ذهب فى « سراج الملوك » الى آفاق جديدة ، لم يطرقها من سبقوه فى موضوع السياسة الملكية أو السلطانية فهو قد حاول فى بعض نظراته أن يستقرىء أحداث عصره . وخواصه ، وأن يستخرج منها المبادئ الاجتماعية .. على غرار ما فعله « عبد الرحمن بن خلدون » من بعده ، حيث جعل من المجتمع كله ، ومن تاريخه .. مادة لتأملاته .

إن « ابن خلدون » يشهد له بذلك ، ويقول .. ان الطرطوشى كاد يطرق نفس موضوعه ، وأنه قد « حوم » فى كتابه - سراج الملوك - وبوبه على أبواب تقترب من أبواب كتابه ومسائله لكنه - وكما يذكر ابن خلدون - « لم يصلح فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، انما يبوب الباب للمسألة ، ثم يستكثر من الاحاديث والآثار وكأنه حوم على الغرض ، ولم يصادفه ولا تحقق قصيده » .

إن الذى يقارن بين « ابن خلدون » والامام « الطرطوشى » فى « سراج الملوك » .. أن « ابن خلدون » قد عالج بعض الموضوعات فى مقدمته ، والتى عالجا قبله « الطرطوشى » فى كتابه ، مثل الدواوين ، ومذاهب الحروب وعواقب الظلم ، واستظهار صاحب الدولة بالموالى والمصطفين ، وشئون الجباية والمكوس .. وغيرها ، ولكن « الطرطوشى » ينحى منحى آخر فى العرض ويختلف عن « ابن خلدون » حيث لا نجد فى « سراج الملوك » بلورة المذهب الاجتماعى المبتكر ، والذى يسيطر عليه ويتميز به .

ويبدو أن ذلك ، قد جاء من تأثر « الطرطوشى » فى عرض نظراته - الاجتماعية خصوصاً - بما شاهده فى « الأندلس » .. وقد قضى شطراً من شبابه فى مملكة « سرقسطه » وهى إحدى دول الطوائف فى ظل « بنى هود » وشهد عن كثب أساليب ملوك الطوائف فى تدعيم سلطانهم ، وحشد جيوشهم وانفاق أموالهم .

على أنه من أبرز نظريات « الطرطوشى » فى ذلك أن قوة الدولة الحامية أو كما يقول عصبية الدولة - تقوم على الجند ، قبل المال ، وأنه يجب أن ينفق على الاستكثار من الجند ، وأن خير ما يدعم هذه العصبية « هم الجند » ، أهل العطاء المفروض مع الأهله .. أى الجند الذين يتناولون رواتبهم كل شهر .

ويعارض « ابن خلدون » هذه النظرة أو النظرية ، ويقول إنها لا تنطبق على الدولة فى أولها ، وإنما « تنطبق على الدولة فى نهاية عهدها ، بعد التمهيد ، واستقرار الملك وأحكام الصبغة » .. « فالطرطوشى » قد أدرك « الدولة اليهودية » - مملكة سرقسطه - عند هرمها ، ورجوعها « الى الاستظهار بالموالى والصنائع » ، ثم الى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة ،

والظاهر - كما يقول الأستاذ « عبد الله عنان » ، إن الطرطوشى قد تأثر تأثراً شديداً بما شاهده من اعتماد « بنى هود » فى حماية ملكهم على الجند النصارى ، ولاسيما أيام السيد « الكمبيادور » ، وسعيهم الى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها .. وقد كان ذلك فى نفس الوقت شأن ملوك الطوائف الآخرين ، والذين ظهروا عند اختلال الدولة الاموية فى الأندلس ، وانقراض عصبيتها من العنصر العربى .

و « للطرطوشى » نظرة او نظرية تقول ايضا : إن بيت رجال خير من بيت مال . فقد كان يرى أن من أسباب ضعف المسلمين بالأندلس ، هو اهتمام ملوكهم

بجمع المال وعدم انفاقه على اعداد الجند .. « فالدفاع في الرجال ، لافى المال ، وإنما يدفع بالاموال بواسطة الرجال ،

ولقد تأثر « الطرطوشى » فى هذه النظرة ، بما شاهده من شدة اهتمام ملوك الطوائف بجمع الاموال من الرعايا ، وانفاقه قبل كل شىء على حياتهم المترفة وعلى قصورهم الفخمة ، وعلى اقتناء الغلمان والجوارى .. وإهمال قضية الأمن القومى ، والدفاع القومى بمفهوم العصر الحديث . ثم الاستعانة عند الضرورة بالمرتزقة من النصارى . وهؤلاء المرتزقة كانوا يحشدون فى غالب الأحيان لتحقيق الأعمال العدوانية ، ومباشرة الحروب الاهلية .. التى كان ينزلق اليها ملوك الطوائف باستمرار ، والتى كانت كذلك من أسباب ضعفهم كما يرى المؤرخون فى وجه العدو المشترك .. اسبانيا النصرانية ، ومحاولة التعاون على كبج جماعها ، وعدوانها وأطماعها فى انتزاع أرض المسلمين واستئصال عنصرهم .



وبالنسبة لانفاق المال العام ، فان « للطرطوشى » نظرية قيمة فى هذا الصدد حيث يعتبر انفاق المال العام فى سبيل العلم من « دعائم » الملك والدولة ويورد الامام « الطرطوشى » قصة الوزير « نظام الملك » مع ملكه « ابنى الفتح بن الب » ارسلان ، ملك الترك . فحين احتج الملك لضخامة ما ينفقه الوزير من أموال على دور العلم والعلماء وأهل الصلاح والفقراء - أى الصوفية - وأنه كان من الأفضل لو أنفقت هذه الأموال على جيش يوجه لفتح القسطنطينية .. أجاب نظام الملك : بأنه ينفق هذه الأموال على « جيش » أيضا ولكنه « جيش الليل » . وأن هذا الجيش ، متى نامت جيوش الملك الحربية ، يقوم بين يدي ربه ، حيث يرسل جنود الليل دموعهم ، ويطلقون السنتهم بالدعاء للملك وجيشه النظامى . وأن الجيوش السلطانية ، إنما تعيش فى خفارة هذا الجيش الروحى ، وتبیت بدعائه ، وترزق وتنصر ببركاته . ويقال إن السلطان « ابا الفتح » حين سمع ذلك الوزير بكى بكاء شديدا ، وطلب اليه أن يكثر من هذا الجيش الروحى ، جيش الليل .



و « للطرطوشى » نظرية شهيرة هى نظرية العدل ، التى يؤمن بها كعالم وكإمام ورجل مسلم ، فهو يقول فى « سراج الملوك » :

« بالحاكم العادل تصلح البلاد والعباد ، وبالسultan الجائر تقسد البلاد والعباد .
وذلك أن السلطان اذا عدل انتشر العدل في رعيته فاقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطوا الحق
فيما بينهم . واذا جار السلطان ، انتشر الجور وعم العباد ، فرقت اديانهم ، ثم فشت فيهم
المعاصي ، وذهبت امانتهم فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق وتعاطوا
الباطل ، فرفعت منهم البركة . ونزل الوياء » .

كما يقول الامام « الطرطوشي » ايضا :

« ينبغي ان تعلم ان عمارة الدنيا وخرابها من الملوك ، فاذا كان السلطان عادلا عمرت
الدنيا .. واذا كان جائرا خربت الدنيا » .

والواقع ان الامام « الطرطوشي » .. في حقيقة امره ، كان اماما مسلما مجتهدا
ورائدا ..

على ان معظم ما قاله في الاجتماع .. وان كان سابقا فيه ، فان الذي يأخذه عليه
ناقدوه .. ان نظراته وتطبيقاته تقف عند احداث وطنه .. الاندلس ، وعند احداث ممالك
الطوائف بالذات ، التي عاصرها في اواخر عهدها ، والتي كانت مملكة سرقسطة ووطنه
الاصلي نموذجا بارزا من نماذجها .

يجمع المؤرخون والكتاب ، ان الإمام « الطرطوشي » قد بلغ في عصره ، مرتبة الامامة
كفقيه وعالم يرجع اليه في الملمات .. ويدللون على ذلك ، بأن عامل دولة المرابطين « يوسف
بن تاشفين » قد طلب رأيه وقتواه - الى جانب الامام « الغزالي » - في اخطر شئونه
السياسية والعسكرية .. ومن ذلك مشروعه لخلع ملوك الطوائف ، وغزو ممالكهم ،
باعتبارهم خارجين على احكام الشريعة الاسلامية ..

وقد ايد الامام « الطرطوشي » ما ارتآه « يوسف بن تاشفين » ، واصدر فتوى
بذلك ، وعلى اثرها ومن خلالها نفذ « ابن تاشفين » مشروعه بغزو ممالك الطوائف ،
واستولى على الاندلس لضمها الى ملكه . وقال « الطرطوشي » : اذا عرض لك امران ، امر
دنيا وامر اخرى ، فبادر بامر الاخرى ، يحصل لك امر الدنيا والاخرى معا .

لقد توفي الامام « الطرطوشي » في الاسكندرية ، في السادس والعشرين من جمادى الاولى سنة ٥٢٠ هجرية ، ١١٢٧ الميلادية ، في التاسعة والستين من عمره ، وقيل في السبعين .. كما يرى ذلك صاحب « النجوم الزاهرة » .

ان حياة الاستقرار - بعد طول سفروترحال في عالم الاسلام - هيأت له فرصة الكتابة والتأليف في جميع فروع العلم . فبالاضافة الى كتاباته في « سراج الملوك » من علم السياسة وفن الحكم والمجتمع واحواله .. فان مؤلفاته قد بلغت - كما قيل - حوالى ٢٢ كتابا ، منها رسالته الى « ابن تاشفين » من شرعية غزوملوك الطوائف . ثم كتاب قيم من خمسة اجزاء بعنوان « الكتاب الكبير في مسائل الخلاف » .. و « شرح لرسالة ابي زيد القيرواني » .. وكتاب « بر الوالدين » .. و « رسالة تحريم الغذاء على الصوفية » .. ورسالة اخرى في « تحريم الجبن الرومي » .. و « كتاب الفتن » ، وكتاب « الحوادث والبدع » .. و « معارضة احياء علوم الدين للغزالي » .

وفضلا عن ذلك ، فان كتبه ، خاصة « سراج الملوك » ، مملوءة بالشعر الصوري الجيد . فقد كان الامام « الطرطوشي » شاعرا واديبا ، كما كان باحثا ومؤرخا .. ومن شعره الصوري يقول :

اقرب طرفي في السماء ترددا
لعل ارى النجم الذي انت تنظر
واستعرض الركبان من كل جهة
لعل يمن شم عرقك اظفر
واستقبل الارواح عند هبوبها
لعل نسيم الريح عنك يخبر
والمح من القاء من غير حاجة
عسى لمحة من نور وجهك تسفر

بالاضافة الى ذلك فللامام « الطرطوشي » الكثير من الشعر في النقد الاجتماعي ، وهو شعر جيد استخدمه الامام المسلم سلاحا في محاربة الفساد والرشوة .. ومن ذلك قوله :

اذا كنت في حاجة مرسلا
وانت بانجازها مغرم
فارسل باكمه خلاصة
به صمم اغطش ابكم

ودع عنك كل رسول سوى رسول يقال له الدرهم

هذه هي حياة الامام « الطرطوشى » ، العالم المسلم الصوفى .. وهى حياة ثرية قلقة ، ثائرة فى سبيل الله ، وفى سبيل المثل العليا ..

« الطرطوشى » الذى قال للوزير : « ايها الامير ، افتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم » .. « الطرطوشى » الذى كان « قوالا للحق مدافعا عنه » .. ولا يخاف فى الله لومة لائم .

لقد ربى مدرسة .. وتلاميذه كانوا اعلاما من بعده ، ومنهم سيدى « سند بن عنان بن ابراهيم » الذى تولى مهمة التدريس من بعد موت استاذة .. وسيدى « ابنى الظاهر بن عوف » الذى صار شيخا للملكية فى القرن السادس الهجرى .. والذى يصل نسبه الى « عبد الله بن عوف » الصحابى الجليل .

ومن تلامذته ايضا « المهدي بن تومرت » فى المغرب العربى ، و« ابوبكر ابن العربى » فى بيت المقدس ، والشيخ « عبد الله السائح » فى جبل لبنان . لقد صدق ابن فرجون حين وصف الطرطوشى بقوله :

« الذى عند ابنى بكر الطرطوشى من العلم هو الذى عند الناس .. والذى عنده مما ليس عند غيره دينه » .

لكن نصير المظلومين .. ظل هو مظلوما .. ومن بين من ظلمه نحن المفكرين فان اعمال « الطرطوشى » التى كتبها غائبة عن المكتبة العربية ، اللهم الا كتابه « سراج الملوك » .. لم نتعب انفسنا فى البحث عنها وجمعها واعادة طبعها . كما ان وزارة الاوقاف فى مصر ظلمت « الطرطوشى » ايضا ..

مسجد « الطرطوشى » بدون قبة او منئذنة ، وهو لا يليق بعالم صوفى مسلم ملا الدنيا فى حياته وشغل الناس .. الحكام قبل الرعية ..

وسيدى « الطرطوشى » مدفون فى مقبرة .. وحوله مجموعة من اولياء الله الصالحين .. ومنهم سيدى محمد العقباوى ، وسيدى محمد الاسعد ، وغيرهما كثير . مما

تدل عليه تلك الشواهد الرخامية ، المكتوبة بالخط الكوفي ، والتي تحتاج لمن يزيل عنها النقاب ويقرأ سطورها وكلماتها ليبرزها .

وضريح « الطرطوشي » من الصعب ان نجده في « الاسكندرية » الا بعد عناء وطول سؤال .. متعب في البحث والوصول اليه .. وهو في باب الكراسته بمنطقة الجمرك .. وليس في الضريح من القديم سوى عمودين من الطراز الكورينثي ، ومقصورة خشبية .. كما انه ليس على الضريح كسوة كما هي الحال في اضرحة اولياء الله الصالحين .

والمسجد والضريح في حارة مسدودة جانبية وقد اغلق لانه آيل للسقوط كما هو واضح في ملفه .. ولكنه يفتح بين الفينة والاخرى .

يقول علي باشا مبارك : إنه كان بالاسكندرية ٤٩ جامعا ، ومن الزوايا ٩٧ زاوية ، منها ما فيه ضريح ولي ، ومنها ما هو خال من ذلك .. كان هذا في عصر « علي مبارك » ، حينما ألف « الخطط التوفيقية » في القرن التاسع عشر ..

ويصف صاحب الخطط مسجد « الطرطوشي » ، بأنه « كان متخربا ، فأصلحه المرحوم السيد ابراهيم مورو سنة ١٢٧٠ هـ . وقد تمت اصلاحه المرحومة والددة الجنب الخديو ، وهو الآن تقام فيه الشعائر » ..

لكن يبدو انه بعد ذلك نسي الناس انه كان هناك في الاسكندرية مسجد « للطرطوشي » .. الرجل الذي دافع عن المظلومين !

أعلام
التصوف
الاسلامي

سيرة محمد القباري

فلسفة الحلال والحرام
من داخل بستان



●● هذا الولي الزاهد ، من أولياء الله الصالحين .. من المفيد جدا ان نلقى بعض الاضواء على حياته الثرية البسيطة .. في هذا العصر الذي نعيش نحن فيه الان .. وهو عصر تحولات كبرى في حياة المؤمنين الصالحين ..

فمصر ولي الله القبارى ، يتشابه الى حد كبير مع عصرنا نحن .. حيث القابض على دينه مثل القابض على جمرة من نار . هو عصر الحروب والازمات .

وفي عصر القبارى ، الذى شهد جانبا من حكم دولة الايوبيين وجانبا آخر من حكم دولة المماليك .. اجتاحت مصر المحروسة بعناية الله اعاصير وكوارث وحروب ، وتكالب عليها جند التتار والصليبيين ، وتفشت فيها الوبئة .. لكن مصر خرجت منصور على اعدائها .. كما خرجت مصر والعرب منصور في رمضان ١٣٩٣ الهجرى ١٩٧٣ الميلادى .

ان القبارى عاش في ذلك العصر نموذجا للمسلم ، الذى لا تهز كيانه الازمات .. عاش بالايمان والزهد .. ماذا يفعل المسلم عند الكوارث والازمات ، وكيف يتصرف مع نفسه ومع الناس ؟



رغم ان الباحثين والكتاب .. وأرباب البحوث مازالوا يختلفون على تفسير اسم « القبارى » .. او « الكبارى » .. كما قد يسمى هل هذا من الثمار أم القبر .. فإن حى « القبارى » في « الاسكندرية » ، الذىبقى يحمل هذا الاسم منذ قرن ظل حيا روحانيا .. تموج فيه الحياة والناس تبركا بولى الله الزاهد العابد .. الذى أنشأ هذا الحى من صحراء وجفاف .. حتى أنه لزم من قصير كان حى تجارة الصادرات من زراعة مصر .

فبعد منتصف القرن التاسع عشر - كما يذكر « على باشا مبارك » في خططه ، بدأت المنطقة المحيطة بقبة سيدى « محمد القبارى » تعمر ، وتنمو .. حتى امتد العمار من « مريوط » إلى ساحل البحر . ومن خلال هذا العمار اسست في المنطقة أكبر محطة للسكك الحديدية في الاسكندرية ، كما أنشئت فيها أول وأقدم مدرسة للمعلمات ، وكانت أول ناظرة لها الرائدة « نبوية موسى » .. يضاف إلى ذلك ، أن المنطقة شهدت أقدم مجرز في الاسكندرية وأقدم المستشفيات الحديثة ، التى أقيمت في مكان

كان اصطبلا لخيول « سعيد باشا » ... ثم إن منطقة « مينا البصل » كانت من معالم
 حى « القبارى » .. الذى يحمل اسم هذا الولى الكبير .

وقبل عام ١٨٤٨ .. الذى بدأت تعمر فيه منطقة « القبارى » ، كما يرى « على
 باشا مبارك » .. ظلت البقعة منذ حياة « القبارى » بساتين مزروعة وخضرة وارفة
 الظلال .

ولقد بدأها ولى الله « القبارى » ، منذ ٨٠٠ ، وبدأ يعمل فيها ، فحلت البركة .
 ولقد بدأت تنمو فلسفته مع نضج ثمار بستانه أو « غيطه » .. بنخيله وزراعاته ..
 بحيث شاهد « غيط » « القبارى » حياة ثرية وخصبة لنموذج انسان مسلم ، توفر على
 عبادة الله ، وتهجد فى مرضاته .. فكان له الفلاح .

ونقول « بستان القبارى » .. أو « غيطه » لأنه كان له دور كبير فى حياة هذا
 الولى الزاهد العابد .. فإن حياته كلها دارت ملامحها حول هذا البستان . لقد ملك عليه
 هذا البستان نفسه وتصرفاته ، وكان مصدرا لأفكاره وتشبيهاته ، والمحور الاساسى
 لأحاديثه ، والحكم التى نطق بها .. وفلسفته .. حتى أن « القبارى » قلما كانت تخلو
 عباراته من محتويات البستان .. نخلة أو دابة ، أو زهرة ، أو سقاية .. أو ..

* * *

اسم ولى الله الزاهد المتصوف ، والذى أجمعت عليه المصادر ، هو أبو القاسم
 محمد بن منصور بن يحيى القبارى .. أو « الكبارى » كما هو مكتوب على كسوة
 ضريحه . وهو سكندرى ، أى من مواليد الاسكندرية ، عاش فيها أجداده كما كان
 مالكى المذهب . وهو كما حقق الاستاذ محمد محمود زيتون فى كتابه بعنوان « القبارى
 زاهد الاسكندرية » من أجداد سكندريين لكن من أين جاءت تسمية « القبارى » ١٩
 يقول محمد زيتون : أما القبارى ، فلم نسمع من قبله أو من بعده ، أحدا من
 أرباب الثقافة قد تسمى بهذا الاسم ، لافى مصر ولا فى غيرها . فهو المتفرد بهذه
 التسمية دون سواه . ومن العجب أن ابن المنير صاحب ترجمة القبارى ، قد ذكره
 فقال له « الكبارى » بالكاف دون القاف . وفى موضع آخر يقول صاحب الترجمة عن
 القبارى ، أنه كما يقول على سبيل المباشطة : أثبتت ببضاعة لها زبون واحد ، يشير الى
 « الكبار » .. لأنه كان لا يعامل أهله ، وكانوا عددا قليلا ، وكان يختار واحدا منهم
 لمعاملته ، ويجعله سمسار نفسه ، ويعطيه أجرة السمسرة ، ويسامحه فى الثمن عند
 الوزن على عادته ، ويقول : هذه صدقات مستترة .

واسم « القبارى » كما يقول « رمضان حلاوة » ، أورده صاحب القاموس في القاف ، ولم يبين نسبه ، وكذا الشمنى في الكاف أيضا .

وأغلب الظن أن « القبارى » نسبة إلى القبار ، وهو ثمرة كانت تعرف في عصر « القبارى » حتى لقد ورد اسمها مرارا في « ابن المنير » ، إذ يقول عن شيخه القبارى .. « وذلك أنه انقطع .. باع الدابة التى من شأنه قنيتها ، وضم ثمنها الى ثمن ثمرة القبار ، ففلق ذلك على ثمانمائة درهم فزكاها » .

ومما يذكر أن الدكتور « بوتي » أمين المتحف اليونانى الرومانى السابق بالاسكندرية ، حاول أن يجد علاقة بين « القبارى » و « القبور » ، فلم يصل الى شيء ذى بال .

ويقول « محمد محمود زيتون » إنه خلال تأليفه كتابه عن « القبارى » .. عثر على أحد اجداد هذا الولي عند السلفى في معجمه .. واطلع على سيرته وخصاله .. حيث كان من أهل الورع ، وكان لا يشرب اللبن ، ولا يأكل الجبن ولا من اللحم الا الطير الذى يصطاده بنفسه ، يأكل من « القبار » المباح . وأن هذه الخصال انتقلت الى الامام القبارى بالوراثة ، وزاد عليها الامام فضيلة الاحتياط والتحرز في طلب الحلال .. ويتأكد ذلك إذا عرف أنه كان في « الاسكندرية » من المعاصرين « للقبارى » ، جده الأعلى ، وكان زاهدا كبيرا هو « عليان الزغبى العامرى » المتوفى عام ٥١٤ هـ وله مواقف مشابهة للإمام « القبارى » في الحلال والحرام .

ولقد ولد « القبارى » ، كما يقول تلميذه « ابن المنير » عام ٥٨٧ الهجرى ، وتوفى في السادس من شعبان سنة ٦٦٢ هجرية .. كما أكد ذلك « أبو شامة » في كتابه « الذيل على الروضتين في اخبار الدولتين » .. حين أخبره بذلك الشيخ القاضى « عبد الجليل بن خليل » ، الذى يبدو أنه عاصر فترة موت « القبارى » وهذا يعنى أن ولي الله « القبارى » عاش حوالى ٧٥ عاما .. لكنه على أية حال بحياته الثرية الخصبة ، وبورعه وزهده وتقواه سيظل يعيش في الوجدان المؤمن نموذجا يحتذى .. إلى أن يرث الله الارض ومن عليها .. بعد أن سلكه بعض مؤرخى التصوف في تراجمهم ..

وحين نقول إن « القبارى » ، وقد ولد في نهاية القرن السادس الهجرى ، فلقد طلع القرن السابع الهجرى على « القبارى » وهو صبى لاتزيد سنه على الثالثة عشرة .

وهو بذلك قد ولد قبل وفاة «صلاح الدين الايوبي» بعامين اثنين .. ليظل «القباري» علما من أعلام القرن السابع الهجري ، الحافل بجلال الأعمال .

وحول وفاة هذا الولي الكبير ، يقول ابن عزم في مخطوطه «دستور الاعلام بمعارف الاعلام» عن سيدي محمد القباري : «هو مدفون بظاهر الاسكندرية مشهور ، مقامه يقصد للبركات» .. وهذا يعني ان الآلاف الكثيرة التي تزور ضريح «القباري» ، وتحتفل بمولده كل عام في شهر شعبان .. تأتي وفي وجدانها أن هذا المكان مبارك بإذن الله .. لأن المدفون فيه كانت حياته جهادا ، وكان سلوكه مراعاة لشرع الله .. وكان علما من الاعلام السكندريين معاصرا لكثير من علماء الاسلام الذين شاهدتهم تاريخ هذا الثغر ومنهم ابن المنير تلميذه والإمام الشاطبي الاندلسي ، وابن الحاجب ، وأبو شامة ، والعز بن عبد السلام والإمام الشاذلي ، والإمام أبو العباس المرسى ، وسبط بن الجوزي ، ومنصور بن سليم الهمداني محتسب الاسكندرية ومؤرخها الشهير .

يقول الياقعي صاحب «مراة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان» : وفيها .. أي الإسكندرية .. توفي القباري ، أبو القاسم بن محمد المنصور الاسكندراني . كما يقول سبط بن الجوزي في «صفوة الصفوة» عندما زار الاسكندرية عام ٦٤١ الهجري ، في عهد سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين بن ايوب : الاسكندرية معمرة بالأولياء ، كالشيخ محمد القباري والشاطبي وابن أبي شامة .. و «أبو شامة» هذا المؤرخ الدمشقي ، هو صاحب «كتاب الروضتين في اخبار الدولتين» كما ذكرنا ، وكان قد زار الاسكندرية ، وقابل سيدي «محمد القباري» ، وكتب عنه في كتابه «الذيل على الروضتين» .

والواقع انه رغم أن سيدي «محمد القباري» شاهد الكثير من أعلام عصره الذين وقفوا بباب بستانه ، كما أن عصره حفل بالكثير من الأحداث .. فإنه للأسف لم يكتب عنه الكثير ، مما يلقي بالأضواء الكاشفة على دقائق حياته .. سوى شذرات قليلة في كتب معاصريه ، أو من جاء بعدهم ، واهتموا بتاريخ وسير أولياء الله في الإسكندرية .

ولقد كان من الممكن أن يظل سيدي «محمد القباري» مشهدا وضريحا ومسجدا يزار بالورثة .. دون أن يعرف عنه الكثير .. لولا أن تلميذه المخلص ، الذي

عائشه طويلا .. « ناصر الدين بن المنير » ، قاضى الاسكندرية قد وضع عنه كتابا وحيدا سماه « هذا كتاب مقامات سيدى ابو القاسم بن منصور بن يحيى المالكي الاسكندري المعروف بالقبارى المتوفى في شعبان سنة ٦٦٢ هجرية » .. لكن هذا الكتاب لم يتم العثور عليه حتى الآن .. وقد شاعت العناية الإلهية أن يقوم « احمد بن عبد الكريم حمزة » باختصار كتاب « ناصر الدين بن المنير » ، على أن ملخص ابن حمزة لم يكن ينفي بالغرض ، فلقد ختمه بقوله : « هذا ما أمكنني نسخه ونقله من النسخة التي وصلت إلى ، وذلك في حادي عشر شوال عام ثمانية وثلاثمائة والف ، وإن يسر لي المولى الحصول على نسخة صحيحة انقلها بالتمام والحمد لله على كل حال .. » وهذا الملخص قد قام بنسخه « حسين بن محمد بن رجب احمد بن الاسكندري المالكي » . وهذا الملخص ينتهي بقصيدتين للشيوخ عبد الغنى النابلسي في التصوف والعشق الالهى ، رغم أنهما ليس فيهما ذكر « للقبارى » ، وإن كانا يدلان على تصوف « القبارى » . ومطلع القصيدة الاولى :

وجود كونى من تجلى الجواد
هذا عطاء ماله من نكاد
والقصيدة الاخرى مطلعها :
ما الغير الا بابيه المغلق
وكننا مفعولاه المطلق
وهذه المخطوطة التي توجد في مكتبة الاسكندرية كذلك تبدأ بالآتى :

« الحمد لله الولي الحميد ، المبدئ المعيد .. الفعال لما يريد » ..
وبعد فيقول الفقير الى ذى العظمة والعزة احمد بن حسن بن عبد الكريم حمزة الشاذلى السكندري ، وقاه الله من كل باغ ومفتر : قد كلفت قبل التكليف بحب الصالحين ، وشغفت من حين انشئت بالبحث عن أخبار المتقدمين ، سيما من توارت شمس جمالهم بشرى الاسكندرية . وكان أكثر ما يجول بأفكارى الوقوف على أخبار سيدى أبى القاسم منصور القبارى . لأنه ألقى حبه في قلبي ، وفي أغلب الأوقات أزره وأتوسل به الى ربه وربي .. »

على أن الجدير بالذكر ، أن المخطوط الاصل « لابن المنير » ، الذى وصلنا ملخصه يأتى على أنه « مقامات » .. وكلمة « مقامات » تلفت المهتمين بالتصوف والمتصوفة ، فهي أحد مصطلحاتهم ، إذ لكل قطب من أقطاب الصوفية أحوال

ومقامات عرف بها .. والمقامات على العموم عند الصوفية ، هي الفضائل المكتسبة التي ينتهى اليها صاحبها بعد ممارسة ومجاهدة للنفس ، وقد تصل به هذه الفضائل الى حد كبير من الرضا عن الله ، فيكون عند حال « كن » .. أى كلما طلب شيئاً من ربه استجاب له ، وذلك مما يوحى به الحديث القدسي عن رب العالمين « عبادي اطعني اجعلك ربانيا ، تقول للشيء كن فيكون »

ومن هنا وكما يقول الاستاذ « زيتون » يتبين للقارئ ، ان القاضي ابن المنير حين سعى كتابه بالمقامات .. كان موفقا في اختياره . وهى كلمة لها دلالتها وأحقيتها .. رغم ان ماعند القبارى ، ليس هو الذى عند الحلّاج مثلاً ، أو رابعة العدوية ، أو مخيى الدين بن عربى ، أو ابن الفارض ، أو التستري .. وهو من غلاة الصوفية .. ومن وضعت عنهم المؤلفات لتفسير مضامين ماورد عنهم .

كان سيدى « محمد القبارى » رضى الله عنه وأرضاه ، صالحاً قانتاً ، منقطع القرين فى الورع . وكان له بستان يعمل ويتبلغ منه ، وله ترجمة مفردة جمعها « ناصر الدين بن المنير » .. هكذا قال عنه صاحب « شذرات الذهب » . وفى « تاج العروس » للشيخ « عبد الرحمن الجبرتي » وصف « القبارى » بأنه « كان زاهد الاسكندرية وامامها »

وزاهد الاسكندرية ، الإمام « القبارى » ، وصفه « ابن كثير » فى « البداية والنهاية » بأنه كان يامر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويردع الولاة عن الظلم ، فيسمعون منه ويطيعونه لزهد ، بل ان الامام « المناوى » فى « الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية » ، يصف القبارى بقوله : « زاهد اخلص فى العمل ، واجتهد فى قطع الامل ، ومال الى العزلة ، واستعد للرحلة . كان كثير الورع والخضوع ، غزير الاخبات والخشوع ، مبارك الطلعة ، مشهود الذكر بين الصوفية .. يامر بالمعروف واقتفاء اثاره ، وله بستان يقات منه ويطعم الناس من ثماره » .

والحقيقة هنا .. ان الامام « المناوى » ، حين يصف الامام « القبارى » بأنه كان مشهود الذكر بين الصوفية .. هنا تطراً الكثير من علامات الاستفهام .. امام من تناولوا سيرته . فالمشهور عن « القبارى » ، انه لم يعرف انه صاحب طريقة .. وان كان له الكثير من المريدين .. وكيف يكون « القبارى » صاحب طريقة وهو من سيرة

حياته كان يتفادى الناس .. وقد عاش في عصره الامام « ابو الحسن الشاذلي » وتلميذه « ابو العباس المرسى » .. ولو كانت « للقبارى » طريقة ما أغفلها الناس ، وذكرت عند مؤرخى التصوف - ولربما كانت قد حدثت بين طريقة « القبارى » و« الشاذلية » محاورات .

ان « القبارى » كما يتضح من سيرته ، كان رجلا مؤمنا ، شديد الايمان . وكان عابدا زاهدا .. حتى ان « ابن عزم » في القرن التاسع الهجرى ، يصفه بأنه « الامام الربانى الاوحد ، شيخ الوقت زهدا وصلاحا » .. كان « القبارى » بحق ، واحدا من اهل الله ، لا افراط ولا تفريط .. وخير الامور عنده الوسط وكان نسيجا وحده .. أو دنيا وحدها من الزهد والعفة وعزة النفس بكرة الايمان ..

وكما كان « القبارى » مثله الزهد والورع .. كان ايضا يعرفه علماء مصر الكبار ويقدرونه ويجلوونه .. ومن هؤلاء بالطبع شيخ الاسلام « العز بن عبد السلام » وشيخ الاسلام ، معاصره ، « ابن دقيق العيد » .. وغيرهما ... هؤلاء كانوا معجبين بسيرته واخباره ، يتحدثون عن بركاته . وعن مواقفه المشهورة مع السلاطين والامراء وللاتهم على الاسكندرية . بل ان اهل « دمشق » كانوا يعرفون « القبارى » وكانت « مصر » و« الشام » دولة واحدة . والدليل على ذلك ان « ابا شامه » ، يذكر ان خطيب جامع دمشق صلى على القبارى صلاة الجنازة ، عقب صلاة الجمعة يوم ٧ من رمضان سنة ٦٦٢ هجرية ، .. اى بعد وفاة « القبارى » بشهر .. لانه - والكلام لابي شامه - « شيخ مشهور بالورع والزهد بالاسكندرية ، وكان يخدم بستانه بنفسه » .

ويرى « ابو شامه » ايضا ان احد الامراء الذين تولوا الاسكندرية اثناء حياة « القبارى » ، حرص على لقاء هذا الولي ، ثانى يوم توليه المنصب .. وحين عاد الامير الى « دمشق » كان يحكى لاهل الشام مآراه وسمعه عن « القبارى » .

ويلق « محمد محمود زيتون » على ذلك بقوله : رجل كالقبارى يموت بالاسكندرية ويصلون عليه بدمشق ، ويتحدث الامراء والولاة عنه في مصر والشام ، إعجابا وتعجبا من أحواله ، ولاشك انه كان من العظمة وبعد الصيت ، بحيث كان معروفا لدى اهل الشام عامة ، والعلماء منهم بخاصة . ثم يذكره باهتمام مؤرخان كبيران مثل ابي شامه وابن اصل .. اللذين عنيا بتاريخ الدولة الايوبية بالذات في مصر والشام .. فلاشك انه كان كبيرا .

إن ولي الله سيدي « محمد القباري » .. عاش في بستانه ، بعيدا عن الناس بقدر ما يستطيع ، يتأمل ، يفلسف أمور دنياه ، ويفلسف سلوك الناس لم يتزوج ، لكنه عاش وحيدا ..

إنقطع في بستانه في حى الرمل ، شرقى الاسكندرية .. ولما كثر الناس في تلك المنطقة التى كانت مهجورة ، وزاد عدد الاجانب فيها .. ترك هذا البستان الموروث وذهب الى جهة غربى المدينة ، الى قصر اثرى متهدم .. أودير .. يرجح انه كان من آثار العصر البطلمى .. حيث أنشأ من حوله بستانا ، هو الذى تسمى باسم « غيط القبارى » . وقد عاش في هذا البستان الغربى عمره ، عاملا كادحا ، يكسب قوته من عرقه . ولايستقل جهد أحد .

لكن كيف ولماذا كانت نقلة « القبارى » من أرضه الموروثة ، من بستان الاجداد الى بستان جديد ، قام هو بزرع كل عود اخضر فيه بنفسه وجهده .. رغم ماكان يعانيه من بعض الآلام في المفاصل التى لحقت به إيدانا بالشيخوخة ؟

هجر الامام « القبارى » ، بستان الرمل او غيط الرمل هربا من مناظر الفتنة ، الى مكان بعيد عن الشبهة . وكانت هجرته للبستان الشرقى عام ٦٢٧ الهجرى . في هذا

الوقت كانت العلاقات قد بدأت تتوثق بين ميناء « الاسكندرية » وميناء « جنوة » في « البندقية » ، وبدأ الافرنج يتوافدون على « الاسكندرية » للتجارة ، وللمقام بها . هنا ، كما يقول سيدي « القبارى » : « وزنت الاحوال بميزان الاعتبار . فوجدتها لاتصح الا بالعزلة » ، ومن الجدير بالذكر ، أن عدد الافرنج في المدينة ، كما يقول « كما يقول « المقرئى » ، قد تجاوز ثلاثة آلاف نسمة .

لقد ترفع الامام « القبارى » عن الدنيا ليجاهد هو نفسه اولا بالعكوف على العبادة الخالصة لله رب العالمين .. وليجاهد الآخرين ماوسعه جهد المجاهدة .. في البستان الجديد ، حاول أن يعيش حياة ، ليس فيها من الشك شيء .. أو هو حاول أن يعيش حياة اليقين في كل شيء ان صح هذا التعبير .. ونقول أيضا كان سيدي « القبارى » شديد الشك في كل شيء قد يشوبه ، أو يحتمل أن يشوبه شبهة حرام ، أو لمسة حرام مما يغضب الله جل جلاله . وهكذا عاش هذا الامام ، في تلك البقعة الوحيدة المقفرة المنعزلة عن الناس . « مع الاختلاف في الاوقات وترادف السنوات ، وهو مصون .. الى ان لقي الله محروسا بعين عنايته .. » .. والكلام « لابن المنير » .

لقد كان « القبارى » يخاف الحرام فى كل شىء ، وبنى فلسفته ، على اصول اقتنع هوبها ، فكان يقول : « قليل العبادة مع القوت الحلال انفع للعبد من كثير العبادة مع القوت الحرام ، وطلب الحلال هو الجهاد » .

وهكذا يظل « القبارى » حتى آخر شهقة فى حياته يجاهد من أجل الحلال .. وفى هذا الصدد يحكى عن سيدى « القبارى » انه كان يحصد الشعير يوما فى بستانه ، والوقت نهار والشمس ساطعة . فأخذ يحصد صفا ، ويترك آخر بلا حصاد . وحينما سئل عن سبب ذلك ، قال : ان ظلال نخيل الجار ممدة فى هذا الوقت ، فانا اتحرى الا استظل بظله ، فلذا تحول الظل من هذه المواضع ، رجعت فحصدتها .. اى ان ظلال نخيل جاره كانت تقع على بعض الشعير .. فخاف ان يحصده ويستغل ظل نخيل جاره الذى لم يستأذنه قبل .

ويعلق مؤلف كتاب « القبارى » زاهد الاسكندرية ، على ذلك بقوله : ان القبارى فى ذلك اتبع الشرع بحرفية ، وقد ذكر أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، قال للرسول صلى الله عليه وسلم : « يارسول الله : ادع الله ان يجعلنى مستجاب الدعوة » فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « ياسعد اطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » ، والذى نفس محمد بيده ، ان العبد ليقتذف باللقمة الحرام الى جوفه ، مايتقبل منه عمل اربعين يوما ، واياها عبد نبت لحمه من سحت ، فالتار اولى به ،

وحول الظلال والاستغلال ايضا .. يقال ان سيدى « القبارى » . بلغ من حرصه فى البحث عن الحلال ، والبعد عن الحرام .. انه كان اذا ذهب لصلاة الجمعة يتخير مكانه فى صحن المسجد مما يلي السقف ، ابتعادا عن ظل هذا السقف .. فلربما بنى هذا المسجد بأيد لم تتحرز من حرام . ولقد سمع أحدهم فى جامع « الدوانيقى » « العطارين » يتحدث فى الناس عن الورع وهو تحت سقف الجامع ، فقال معلقا : اما يستحى ، يتكلم فى الورع ، وهو بجامع الدوانيقى تحت السقف ، ١٩

بل ان سيدى « القبارى » - رحمة الله - كان اذا ما السماء أمطرت فى الاسكندرية وهو سائر فى الطريق .. يسرع بقدر الامكان ، خوفا فى شبهة الحرام اذا ظل بسقيفة غيره ، دون ان يسمح له بذلك .

ويقول « ابو شامه » ، مددلا على صدق « القبارى » مع نفسه ومع الناس ، بلغنى انه كان إذا رأى ثمرة ساقطة فيه - اى فى بستانه - تحت اشجاره ، ولا

يشاهد سقوطها من شجره ، يتورع من اكلها ، خوفا من ان تكون من شجرة غيره ، قد حملها طائر ، فسقطت منه في غيطه .

والواقع ، فان السب المباشر - من بين اسباب ذكرناها - في هجرة بستان الرمل ، ان « القبارى » حين رأى الناس يبيعون الاعناب لغير المسلمين ، الذين بدأوا يصنعون منها الخمر .. قرر البدء بنفسه هو . فكما هجر بستان الرمل ، قطع عروق العنب من البستان قبل هجرته . وقد كان « القبارى » يزرع العنب في بستانه ليأكله ، لا ليبيعه . وقال « القبارى » في ذلك : « وعقدت على الا انشيه زرجونا ، فوجدت الراحة بعده ، وعوضنى الله عن تلك الثمار بالشعير والفول »

ويقولون ان « القبارى » كذلك سخط ، وهو في غيط الرمل على سلطان مصر حين قام بتطهير خليج الاسكندرية ، لانه سخر الناس فيه . وانه قال في ذلك الوقت مهددا « ان اعسفوا الناس - اى سخرهم .. في عمله مرة اخرى تركت لهم مصر . فما لي فيها سوى هذه القطرة من الماء ، فلا اقل من ان تكون نظيفة بعض النظافة » . وكان خليج الاسكندرية قد جرى تطهيره عام ٦٤٦ هجرية ، في عهد الملك « الصالح نجم الدين ايوب » ، كما يقول الدكتور « على ابراهيم حسن » في كتابه « مصر في العصور الوسطى » . ولذلك فان « القبارى » اصر في هذه السنة على عدم تدوير الساقية في بستان الرمل ، وذهب الى بستانه في الغرب - المباح - وحفر بئرا يشرب منها ويروى منها زرع .. لانه كما يقول : « اوثر الوحدة في الحياة وبعد الممات » .. و« طلب الحلال جهاد » .

ولذلك فقد كان « القبارى » اذا خرج للخليج ومعه دابته يتخرج من الصيد والشرب ، ومن سقى دابته .. ويعمد الى مكان ليس فيه للخليج جسر مبنى ، حتى لا يكون قد سخر الناس في بنائه .

على ان « القبارى » من حرصه على البحث عن الحلال .. انه عندما كان يخرج لبعض شأنه شاريا أو بائعا في سوق المدينة ومعه دابته ، يلتف حوله الناس بدافع حب الاستطلاع ليوه ويسمعوه .. لأن صيته كان قد ذاع في المدينة . فكان « القبارى » يبتسم لهم ، ويرجوهم بأدب أن يتفرقوا ، ويقول لهم : « أخشى من انشغالى بحضوركم أن اغلط في حساب أو اخل بشرط لا القى فيه بائى » .

حتى بالنسبة للطير فقد كان الإمام « القبارى » يتعامل معه شرعا وحلالا . فكما كان « القبارى » يتصدق على الناس ، كان أيضا يتصدق على الطير . ويقال إنه كان

على بعض حدود بستانه نخلة عالية ، لم تمتد يده الى ثمارها قط . وانما ترك ثمارها للطير ، يأكل منها كما يشاء .. لأنه ، من وجهة نظر الإمام « القبارى » .. « كما إباح الله للطير أموال الناس ، إباح للناس دمه » .

ولم يكن « القبارى » يأكل الطير مسموما ، وانما كان ينتف ريشه نتقا ، لأن السمط يجمد الدم في لحم الطير ، فلا يزول منه إذا طبخه .

ويحكى أن « القبارى » ظل يأكل الفول أربعين سنة ، وكانت الناس تطلبه منه على سبيل البركة ، فيعطيه من مائيسر .. فكانوا يضعونه في أمتعتهم وكانوا ينسجون حول حبات الفول نوارد وقصصا وروايات عجيبة .. وقد كان من النادر أن يخلو صندوق تاجر من حبات الفول .. لكن « القبارى » حين وجد الناس يسيئون الفهم .. ترك الفول وزراعته ، وصار يزرع الشعير ويقتات منه .

إن « القبارى » في الحقيقة ، كان يقول : « المباشرة يقين ، والاستنابة ظن واليقين أحب إلى من الظن » .. وكانت هذه هي جوهر فلسفة هذا الولي الزاهد العابد .. في البحث عن كل ماهو حلال .



عاش الامام « القبارى » ، فاقد حواسه الثلاث .. الشم ، والسمع ، والتذوق .. لكنه رغم ذلك عاش سلطانا في الزهد ..

يقول عنه تلميذه « ابن المنير » ، الذي صاحبه عشرين عاما :

« عاش صابرا لأمر الله ، راضيا بقدره . وكان رحمه الله قد جمل عنه الشم ، فلا يشم طيبا ولا رديئا . وبهذا ، والله أعلم ، استعان على شطف العيش . وكان يكتم هذا من نفسه ، وما أظهره لى قط . ولكن فهمته من قرائن أحواله . وأخبرنى بعض من باطنه في الخدمة . فكانت الطعوم اذا حملت اليه ، وحملت عنه لايقرن بينها .. ولهذا كان يقسم بالله أنه لا يأكل بشهوة منذ زمن طويل ، ولا يأكل الا سدا للحلة - أى الحاجة - لاغير » .

ولم تكن « للقبارى » مائدة للطعام .. كان يأكل من قصعة ، ويجد الرضا اذا ما اكل الطعام الخفيف الذى لا إسراف فيه ولاترف ، حتى لقد كان يتبسط مع تلميذه

« ابن المنير » ويقول له : « اكلت البارحة لونا غريبا » . فيسأله التلميذ عن هذا اللون من الطعام ، فيقول : « صببت في القصعة من الابريق ماء قراحا ووضعت فيه الكسر ، وماكان هذا اللون الا الطف من الالوان البلدية وانقى » .

ويقول « ابن المنير » عن أستاذه : « كان يحضر مجالس العلم على ثقل سمعه ، فاذا انقضى الدرس ، سال من اترابه ان يعيد له بصوت عال كلام المدرس » .

لكن « القبارى » كان رغم ذلك قوى الحفظ ، قوى الذاكرة ، لماحا . كما كان قوى البنية في شبابه ، خفيف الحركة .. شجاعا لا يخاف ولا يجبن ، وكان يقول : « أنا إذا اخذت مطرقة ولقيت ثلاثين رجلا لا أبالي بهم » ، كما كان « للقبارى » سيف يحسن الضرب به ، وقد هجم عليه مرة بعض الاعراب في بستانه . وشرعوا الرماح في وجهه ، فصرخ فيهم صرخة قذفت في قلوبهم الرعب . وكانوا مائة .. ثم قال فيهم : « اما تستحون من الله .. » .. هنأ دب الذعر في قلوبهم .. وقالوا : « هذا يكون غيط رجل صالح » .. وعادوا .

وعن شبابه أيضا يحكون أن الامام « القبارى » كان خفيف الحركة في تسلق النخيل الباسقة ، حتى لقد قيل - وهي مبالغة بالطبع - انه كان وهو في أعلاها يلقي الطبق فيه البلح ، ويسبقه الى الأرض . كما كان يخلص « كرائيف » النخل من أعلاه بيده ، دون منجل . كما كان يحمل القفف وهي مملوءة ويرفعها بإحدى يديه على ظهر دابته العالية .. وكان يعجز أربعة رجال عن رفعها .



ويرون انه قام باداء فريضة الحج مرة واحدة في حياته وهو شاب .. وقد جرى له حادث حكاة لتلميذه بقوله : « .. فكنت في آخر الركب ، وخرج العرب على الركب يخطفوه ، وتعلقوا بأواخزه ، فجئنا الى عقبة تبلدت الناقة عن هبوطها ، فادركني بدوى راكب ومعه سيف مصلت . فهوى الى وضربنى ، فصادفت ضربته ساقى ، فكان لها طنين . وكانت تلك الضربة سببا في نجاتى . لان الناقة لما أحست بصوت الحديد . نهضت فزجت بنفسها من العقبة ، ففات العربى أن يضربنى ثانية ، فوقع لى عند حكاية بعضهم في الحكاية المشهورة : نجيناك من التلف بالتلف » .

وهنا يعلق « ابن المنير » قائلا : « .. وعلى الجملة فكان حال الرجل صحيحا .
وقدمه راسخة وعزمه ثابتا ، فكان إذا شرع في خير داوم عليه ، وأعين . والعون
هو الاصل » .

وكان « القبارى » قبل حلول وقت الصلاة يتأهب لها بكل جوارحه ، وآلة الميقات
في يده ، يتحدث مع من يكون في حضرته أو يمارس عمله في البستان وذهنه حاضر .
حتى إذا أيقن من حلول الصلاة إنقبض عن كل من حوله وترك كل شيء ، وأقبل على
مقدمات الصلاة ، كأنه في حالة من الوجد والهيام ، وقد راقبه « ابن المنير » في هذه
الأحوال ، وسأله عن ذلك ، فقال الامام القبارى :

« أراقب نفسي اذا توضأت حذر أن يتفق حدث أو لمس ولا ألقى اليه بالا وأراقب
العدو « ابليس » فان العبد اذا تاهب للعبادة ، تاهب العدو للفساد » .. !



كان « القبارى » رحمه الله ، حريصا على التدقيق في القول والعمل ، والتحري في
التمييز بين الحلال والحرام .. والتحرز في معاملة الناس . وكما كان حرصه على
دينه .. كان حرصه أيضا على أن يعمل بنفسه . ويأكل من كسب يده ..

وكان يعتبر السعى في كسب العيش جهادا يعينه على العبادة ، ويفنيه عن خلق
الله والحاجة اليهم .. وإلا فبطن الأرض خير له من ظهرها اذا احتاج الى أحد : « لا
أذم دنيا تعين على الدين .. الموت ولا الحاجة اليهم » . وكان يرى أن الإيمان
الحق ، والمؤمن الحق هو الذى تكون يده مبسوطة الى فوق .. ويكون كريما مع
الآخرين .. ولذلك فان أغلب ثمار بستانه كان يتصدق بها على الناس .

ومع حبه للعزلة .. كان يحب الناس ، وكان الناس يقبلون عليه يلتمسون منه
الدعاء ، فيقول لأحدهم : « للمطالب ما يحتاج ، ويقول للآخر : « ماأشتهى لأحد من
أمة محمد الا خيرا » . ويقول لثالث : « أود لو كان الناس كلهم على الخير » ..
ويقول لغيره : « أحب لكل أحد ما أحب لنفسى » .. ويقول للبعض : « الدعاء النافع
هو الذى يوافق القضاء ، فان خالف القضاء نسخ الدعاء ، وثبت القضاء » ..

ولقد توقف عن الدعاء للناس حين ظن هو أن الناس يتصورون أن دعاءه كانسان فيه شيء .. ولذلك فانه بعدها امتنع عن الدعاء ، لأنه رغب في أن يعتمد الناس على أعمالهم يتقربون بها وحدها إلى الله ..

وقد سأله تلميذه « ابن الخير » عن سبب توقفه عن الدعاء للناس .. فقال : « يطلب مني أحدهم الدعاء بلسانه ، ويظهر لي من قرائن أحواله أن قلبه غافل ، وأن نفسه قاسية على نفسه ، فكيف أرق أنا عليه ، أو كيف أدعوه بلا رقة ؟ »

وجاءه أحد أصحاب « الملك الكامل » ، وهو في أبهة وبذخ ، وقد ربط فرسه بيباب « القبارى » ، وكانت تبدو عليه أمارات الرفاهية . وقد سأله أن يدعوه ، فدعا الله على العادة . ثم سأل الرجل الشيخ « القبارى » :
- ما للناس يتحدثون بأنك لا تدعو لأحد معين ، ويعتقدون ذلك ؟
فقال الشيخ القبارى :

- أحوجتنى لاقامة الحجة عليك : أنست تعلم أن الدعاء هو طلب العبد الضعيف من الرب الرحيم ؟

فقال : بلى

فقال : أيطلب العبد الضعيف من مولاه برقة أم بقسوة ؟

فقال : برقة .

فقال : وجدتتها منك ، فبأى لسان أدعو ؟ .. وإن شئت الدعاء باللسان ، فهو البندق الفارغ ، خرج منه ماشئت بلا قلب .

كان « للقبارى » نظرية في العمل والتعامل .. جوهرا الحلال بالطبع .. « للقبارى » ، فلسفة أخلاقية إنفرد بها ، ولم يسبقه اليها أحد . نعم سبقه الإمام « الطرطوشى » ، الذى توفى قبله بنحو قرن ونصف من الزمان ، وكان مثله زاهدا ، وأمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، وله مواقف المعروفة للناس .. كما كانت له مواقف إزاء الحكام ، وخصه الله بإجابة الدعاء ، وكتب « سراج الملوك » لارشادهم وتبصيرهم . وربما وقف القبارى على سيرة الامام « الطرطوشى » .. لكن « القبارى » ، سيظل ، مع ذلك ، أمة وحده .. فقد عاش مثل القديسين . وكان يتخذ من تجاربه في الحياة مصدرا لأفكاره وأعماله ، وكان يقول : « ما فعلت شيئا من ذلك إلا بعد تجربة ووقائع اقتضته » .

وكان « القبارى » لا يستخدم أحدا ، حتى يجعل له أجرته ، بل كان يعطيه من الاجر مايرضيه . وكان يستنكف أن يستأجر عبدا مملوكا فى أى عمل ، خوفا من أن يتناول أجره ، ثم لايعطيه لسيدته .. أو ربما يكون قد عمل عنده دون إذن منه . وكذلك كان لا يستخدم أحدا من البدو . اذ سأل مرة عن مصدر رزقهم فقيل له : من غزو بعضهم بعضا ، واستحلال بعضهم مال بعض .. وكان قد كثر تعدى الأعراب على بستانه ، كما سمع بقطعهم الطريق على الناس وسفكهم الدماء فى وقت استشرت فيه الغوضى .

وكان يتعامل مع تاجر واحد .. لكنه لم يكن يحب التعامل بالسكة ، أى النقود . ويقول عنها : « علم الله اننى لو وجدت من يعاملنى بالقبار ونحوه من الثمار أجعله ثمنا للثمنون من غير توسط السكة ، لما فعلت إلا ذلك » .. كانت السكة فى رأيه أداة تعامل لا يثق هو بها .

كما كان عند « القبارى » ميزان يزن به الأشياء التى يشتريها .. ثم ترك هو الميزان وجعل البائع هو الذى يزن له .. وكان يقول .. « أن أكون مظلوما خيرا من أن أكون ظالما » .

ولقد قضى « الطاهر بن أبى العز » أربعين سنة فى خدمة « القبارى » .. وكان الشيخ يسميه « الرجل » جريا على عادة أهل الكرم .. كما يذكر ذلك « ابن المنير » ، لكن « القبارى » طرد خادمه بعد هذه السنوات ، ولم يسمح له بالانخراط فى خدمته ، والسبب أنه قبل مالا من رجل كان مريضا ، ونذر هذا المال لله أن هو شفى . ورغم أنه يطرده من خدمته فهو لم يطرده من رحابه ظل الخادم يعيش عند سور البستان ثلاثين سنة ، يوصله ويعطيه الحطب ليستدفئ فى الشتاء ، ويخصه بالزكاة .

ويحكى أن « القبارى » حين كان يريد أن يشتري سمكا ، كان يتحرى الدقة ويشترط على الصياد البائع الا يكون له شريك ، وأن تكون ادوات الصيد ملكا له غير مستأجر لها .. كما ينبغى أن يتوخى أن يكون البائع حسن السريرة .. بالإضافة الى ذلك كان من عادة « القبارى » أن يدفع للبائع أكثر من حقه ، بل كان يزيد فى الثمن . وقبل ذلك كان يتحرى دائما أن يكون السمك قد تم اصطياده بعيدا عن الميناء .. بعيدا عن الناس حيث يغتسلون .

وهناك قصص تروى .. عن اهتمام القبارى بالعمل والتقاليد الاسلامية .
فقد قيل ان حشدا كبيرا من الامراء جاؤا يريدون التوبة على يد « القبارى »
فأغلق الطاقة التى كان ينظر منها الى الناس .. وقال : « اخرجوا من غيظان الناس »
.. فتعجب الامراء : كيف يخرجون من هذه الغيظان الخربة المهجورة التى لا يسكنها
أحد . لكن « القبارى » أفهمهم ان الحق والتحرى ، الا يدخل احد مكان انسان الا
بإذنه ، حتى ولو كان المكان مهجورا .



ولقد ورد ذكر « القبارى » أمام أحد الامراء ، فقال : لم لا يبيع الشيخ القبارى
بستانه ، ويتصدق بثمنه على الناس ؟ ..
وبلغ هذا الكلام مسمع الشيخ ، فقال لصاحبه أن يذهب الى الامير ويقول له :
« هذا رايك انت .. ابيع حلالى واحتاج الى حرامك وإلى الوقوف ببابك .. انا
أطلب السلامة وهى رأس المال ، أين الوصول الى الفائدة » .. أى كيف يحصل على
ثواب الصدقة ، وهى نافلة يتقرب بها العبد الى ربه عز وجل ؟



وحكى « ابن المنير » فى « مقاماته » عن « القبارى » ، أن الشيخ باع دابته
لرجل .. وعاد هذا الرجل اليه بعد أيام - كما جاء فى السيوطى - يقول له إن دابته
ممتنعة عن الطعام منذ اشتراها منه . فسأله « القبارى » عن عمله ، فقال الرجل :
« رقاص عند الوالى » .. هنا يقول القبارى : « دابتنا لا تأكل الحرام » .. واسترد
« القبارى » دابته ، وأعاد للرجل ثمنها .

وهذه الدابة فى الواقع ، كانت لها حكايات ونوادير .. تناقلها اهل الاسكندرية فى
عصر « القبارى » .. ثم تحولت هذه الحكايات والنوادير الى ما يشبه الاساطير بعد
عصره .. ومن هذه النوادر ان الدابة كانت تتأدب حين يركبها الشيخ ، لكنها كانت
تجمع اذا ما قربها احد غيره . وهى دابة قيل انها كانت مثل صاحبها ، مشهورة
بالصبر على شرب ماء البحر ، والصبر على العطش .



كان « القبارى » عزيزا بعز الايمان ، لا يذل نفسه ، ولا يستشعر الذل من
مخلوق .
كما كان عميق التأمل فى خبايا النفوس ، حريصا على التعرف على مقاصد
اصحابها . وكانت نظريته تتجه دائما الى البحث عن الحلال ..

وكان الرجل يفلسف السلوك ، ويتعمق في إتيانه أو تركه على اساس سند شرعى وكما يقول محمد محمود زيتون : ان القبارى كان يجمع بين الحقيقة والشرعية ، كان فيلسوفا له فلسفته الميتافيزيقية والنفسية والاخلاقية والاجتماعية .. الى جانب انه كان زاهدا عابدا معتدلا ، قانعا . فالشهوة في رأيه شقوة ، ولذلك فهو يقول : « اتعجب من الخلق ، لا يبلغون شهوة ابدا .. لأن شهواتهم في الكثير والمليح .. ولا كثير الا وهناك اكثر منه ، ولا مليح الا وهناك املح منه . فالشهوة بعد هذا شقوة » .. كما كان « القبارى » يقول : « الدنيا دار اسباب ، ومن زعم ان التوكل ترك السبب بالكلية فهو غلط »

ومن اجل هذا .. كانت الناس تثق في ورعه .. ومع ذلك كان ينكر عليهم ذلك ، لانه كما يقول : « الورع الذى يشيرون اليه ، ان يترك الانسان الحلال المحض .. واين الحلال .. ؟ علم الله اننى ما وجدته كما اشتهى قط . الحلال المحض هو الذى لا تراه ولا تسمع به » .. ومن هنا فان « القبارى » ، كما يروى تلميذه : « كان شديد الحذر من اين يقع في مظنة إتفاقا . واما العمد فما اراه وقع له ذلك قط »

ويقول « القبارى » : « من ادعى انه معصوم ، فقد ادعى بما ليس له في الغيب مكتوب » .. والدنيا ، كما يرى ، « عرض زائل ، وطلابها صغار العقول قليلو الإدراك »
ورجل هذا فكره ، كانت لديه فراسة بالنسبة للناس .. فهو بمجرد أن ينظر اليهم يتعرف على ما وراء الوجه : « فالوجه هو القلب الثانى ، قل أن يقوم بالقلب شىء .. الا وظهر على الوجه أثره » .

وكان « القبارى » يتعامل مع الامراء بنفس الميزان الذى يتعامل به مع البسطاء .. لقد كان زائر « القبارى » ، مهما علت مكانته ، يقف على سياج بستانه يطلب الاذن بالدخول ، فيأذن له .. أو لا يأذن . وكما يقول « ابن المنير » : وكان الامراء والكبراء اذا دخلوا عنده ارتعدت فرائصهم من قوته وشدته » .

« وللقبارى » صولات وجولات مع سلاطين مصر في عهده .

« الملك » الكامل بن « الملك » العادل ، « ذهب الى القبارى فى بستانه .. » وقد وصف « القبارى » هذه الزيارة بقوله : لما جاء الملك الكامل الى الاسكندرية وخطر له ان يخرج الى عندى ، جاءت له مقدمات من ممالك وحجاب ، وصادفونى أصلى الوقود لعشائى . وكنت حينئذ لا اجيب داخلا على . وكان عندى احد المعتادين المترددين الى من اهل البلدة . فقلت له : ضم اليك ثيابك ، فانك لا تطيق مجالسة هؤلاء . وقلت : أتظن الكرامة فى ان يجىء ؟ قال : ربما . فقلت الكرامة فى ان ينصرف ، لانه ان دخل دخل محبا ، وخرج مبغضا ..

وقد قيل إن الملك « الكامل » جاء وأنصرف ، ولم يسمح له « القبارى » بلقائه

ايضا فان « الملك » العادل بن « الملك » الكامل أراد أن يلتقى « بالقبارى » ، ويتلمس بركاته ورضاه . فبعث الى « القبارى » بألف دينار . لكن « القبارى » رفضها . وقال لمن حملها اليه : « .. رد الدنانير الى صاحبك ، وقل له : لو عرف اصحابها لأشار عليك ان تعيدها اليهم . ولكن هذا فات ، كان « القبارى » يرى فى هذه الدنانير أنها جمعت ظلما ، ورفض ان يلقى ربه وفى عنقه أغلال هذه الدنانير سواء أخذها لنفسه أم وزعها على الناس .

والملك « الصالح نجم الدين ايوب » .. له ايضا قصة مع « القبارى » حين اعتزم القبارى وهدد بترك ديار مصر حول : هل من المباح ان يعمر الانسان ارض الموات ، اى البور ، وبعد اصلاحها تعتبر ملكا له ؟

وكانت المسألة خلافية تناقضت فيها آراء الفقهاء وأصحاب المذاهب ، وبلغ ذلك الأمر الملك « الصالح » ، فاهتم به ، وبعث بمن يأذن « للقبارى » بالاقامة كما يشاء فى اى مكان . فلما تلقى « القبارى » كتاب الملك « الصالح » قال : « هذا اذن ، وما استأذنته » .. وبقي فى الاسكندرية .

والملك الرابع .. هو الظاهر « بيبرس » .. وقد زار « القبارى » ، وسمح له الشيخ بالقدوم عليه ، على شريطة أن يتلقاه من أسفل البستان . كما يروى « ابن واصل » فى كتابه « مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب » ولقد قيل « الظاهر بيبرس » شروط ولى الله ، وقال : « انا رايح لله تعالى ، فمن اى مكان شاء أن يكلمنى » .. واعتبر « بيبرس » .. الاذن له من « القبارى » كسبا كبيرا .

ولقد حضر « بيبوس » الى بستان القبارى ، ودار الحديث بين الشيخ وبينه في جو هادئ . وقد طلب « القبارى » من السلطان - على سبيل النصيح - ان يعنى بتعمير الثغر وتحسينه . فسر السلطان للطلب ورحب به . وقد خرج من عند « القبارى » ، ليصدر اوامره بترميم الابراج وتعزيز القلاع واصلاح الاسوار . ثم جلس بدار العدل ، وامر بتطهير المدينة من الساقطات من نساء الافرنج .

ويذكر ان الظاهر « بيبوس » قد زار « القبارى » مرة اخرى في سنة ٦٦٢ هجرية .. لكنه زار قبره فقد مات « القبارى » قبل ان يصل السلطان الى الاسكندرية .

و « للقبارى » ايضا ذكر في سيرة السلطان « قايتباى » .. ونحن نعرف ان هذا السلطان يبعد عصره عن عصر « القبارى » .. لكن السلطان جاء الى « الاسكندرية » وزار قبر الشيخ « القبارى » ، وأمر ببناء قلعة المشهورة بقلعة « قايتباى » الموجودة حتى الآن لحماية الاسكندرية . ويقال ان « قايتباى » فعل ذلك بعد قصة سمعها في الحرم النبوى الشريف ، وهو يؤدى فريضة الحج مؤداها ان خدم الحرم قالوا ان رجلا ياتى الى قبر رسول الله ﷺ كل يوم ليختم « البخارى » أمام الحضرة النبوية الشريفة .. فأمسكوا بالرجل ، وسألوه عن اسمه وبلده فقال لهم : ابو القاسم القبارى من الاسكندرية !!

هكذا عاش سيدى « القبارى » .. ولى الله .
عاش فلسفة ايجابية تتلخص في الخروج الى المجتمع بحياة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. حياة خصبة وثرية .. من اجل الحق والخير .

لقد كان القبارى زاهدا ورعا تقيا .. باحثا عن الحلال مطبقا له ما امكن وقبل ان يموت بيومين ، كما يذكر « ابن المنير » سأل بعض من كانوا يعتادون زيارته والتحدث اليه ، وقال لهم وقالوا له :

قال : هل ترون في النخل شيئا أخرج ؟

قالوا : لا

قال : هل ترون في الخرنوب شيئا أخرج ؟

قالوا : لا .

قال : هل ترون في السنبل حبا ؟

قالوا : لا

فقال بينه وبين نفسه :

- رجل الرزق من صاحبه

ومات الشيخ بعدها ، وأخذ زرع بستانه في الذبول .. حتى قال ابن المنير : « ما في بستان الشيخ من نخل وشجر ، لم يثمر حبة واحدة سنة وفاته . »

وقد ظل ضريح الامام « القبارى » قبلة للمؤمنين .. ووراء الضريح بستان صغير مازالت فيه آثار خضرة .. وأثار الساقية التي رفض ولى الله « القبارى » تدويرها عند تطهير الخليج .

رجل « القبارى » الى الرفيق الاعلى ، وكانت متروكاته شيئا لا يذكر .. لكن الناس تقاطروا على شرائها للتبرك بها ، فكان مائتمه درهم يباع بألف دينار .. حتى وصلت قيمة مجموع ميراثه عشرين الفا . وقال « ابن كثير » : « ترك من الاثاث بعد موته ما يسلوى خمسين درهما فبيع بعشرين الفا »



سيّد أبو الحجاج القصري

الضيف القادم من العراق
ليصبح صاحب الأقصرين

❶❷ في النصف الأخير من شهر شعبان يصبح مقام سيدى ابو الحجاج الاقصرى ملتقى زحف المؤمنين من عشاقه ومريديه . وفي رمضان تضاء الانوار وتتلاها فوق صفحة النيل وتزين القباب والمنابر . وتستمر قراءة القرآن بالليل والنهار ، والمفكرون يتنافسون على ترتيل القرآن في رحاب معبد الاقصر ، والذي تستقر فوق احد صروحه الشرقية المئذنة الفاطمية الطراز والضريح الذى يضم جثمان هذا القطب الصوفى وتعلوه قبة جميلة .

عشاق سيدى ابو الحجاج يعدون المآدب في رمضان لكل القادمين . واهم ما يقدمونه اكلة عراقية الاصل . وهى خليط من اللحم الاحمر والبصل والقمح المدشوش ، يقطع في اشكال مكعبة قبل طهوه . في العراق يسمون هذه الاكلة « كبيبة » ، وهذا يعنى ان هذه الاكلة وافدة من العراق . واشتهرت بعد ذلك في مصر كلها .. وربما كانت هى الاكلة المفضلة لسيدى ابي الحجاج الاقصرى ومعاصريه لكنها ظلت حتى الان ..



هذا القطب الصوفى ، سيدى أبو الحجاج يعرفه العالم كما تعرفه مصر بسبب ذلك أن السياح الذين يحرصون على زيارة معبد الاقصر تجذبهم تلك المئذنة الفاطمية الطراز . وسط الهياكل والصروح والتماثيل والمسلة السامقة . يتسألون عنها وعن أسباب وجودها داخل اثار الفراعنة ، وتأتى الاجابة عن حياة سيدى ابو الحجاج . وعن أن هذه المنطقة كما تضم اثارا فرعونية . فهى تضم اثارا اسلامية . وفي نهاية قدس اقداس معبد الاقصر هناك بقايا كنيسة مسيحية .

ولا يعرف احد كيف جرى بناء المئذنة الفاطمية التى كانت تضم قبة ومسجدا - جرى تجديدهما فيما بعد - فوق الصروح والهياكل الفرعونية ، وربما كانت هذه الارض رديما وربما فوق الآثار ، فتم البناء عليها ، ثم برزت بعد ذلك . لكن ايا كان الامر . فإن البقعة التى يقوم عليها المسجد والضريح والمئذنة التى تتابعت على مصر عبر القرون . من عقيدة آمون رب الارباب الفراعنة الى آلهة اليونان والرومان الى المسيحية . ثم الاسلام .

أهل الاقصر يعتبرون هذا القطب الصوفى حارسا لمدينتهم ببركاته . وسيدى أبو الحجاج لم يُؤثّر قطب من أقطاب التصوف في ناس مثلما أثر هو فيهم . إن حياتهم تدور حوله . وطموحاتهم تقتضى ببركاته في إحياء ذكرى مولده ، وعيونهم مشدودة إليه . ويصبح أبو الحجاج دائما مركز احتفالاتهم بالمواسم الدينية وهى كثيرة خاصة في رمضان .

ويبدو أن طبيعة الاقصر المدينة ذات الطبيعة الخاصة ، بما فيها من معبد الاقصر ومعابد الكرنك .. والتي كانت تسمى باسم الاقصرين .. أو القصرين في الماضى .. فإن طبيعة الاحتفال بمولد أبو الحجاج مازالت تحمل حتى الان ملامح مما كان يدور في معبد الاقصر احتفالا بالاله الفرعونى آمون . الذى كان يزور زوجته الإلهة موت ، وابنتها الإله خنسوفى احتفال مهيب . وكان تمثال آمون الذهب يحمله الكهنة في مركب مقدس من الذهب مرصع بالجواهر وفيه التمثال ولذلك فاهل الاقصر لا يزالون حتى الان في احتفالات مولد أبى الحجاج يحملون مركبا صغيرا ويطوفون به ، مثلما كان كهنة آمون يطوفون بالمركب من معبد الاقصر الى الكرنك عبر طريق الكباش .

وسيدى أبو الحجاج ينتمى نسبه الى سيدى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم . وهو من مواليد أوائل القرن السادس الهجرى « ١٢ الميلادى » ، في بغداد أيام الخليفة العباسى المقتضى بأمر الله . وكما يقول محمد عبده الحجاجى في كتابه عن « أبو الحجاج الاقصرى » ، فهو عراقى الاصل . نشأ وتربى في اسرة ميسورة الحال ، وعلى قدر كبير من الورع والتقوى ، وقد توفي والده وهو لم يزل صبيا ، فاحترف صناعة الفزل والحياسة ، وبرز فيها . وكان حانوته في بغداد ملتقى الكثيرين .

+ لكن هذه الحرفة لم تشغله عن طلب العلم حيث بغداد في وقته كانت تخلص بعدد كبير من العلماء وأقطاب التصوف . منهم عبد القادر الجيلانى ، وأبو النجيب السهروردى ، الذى كان يمثل التصوف العمل في بغداد . ثم سيدى أحمد الرفاعى .. وكان فيها أيضا ما يعرف باسم « المدرسة النظامية » وهى أول مدرسة مذهبية في تاريخ الاسلام ، التى انشأها نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ملك شاه في القرن الخامس الهجرى . وقد التحق أبو الحجاج بهذه المدرسة ، وزامل فيها السهروردى ، كما داوم على حضور حلقات الدروس التى كان يتحدث فيها شيوخ التصوف .

وبعد أن تزود أبو الحجاج بقدر كبير من المعرفة .. ترك مهنة الغزل ليتفرغ الى الدعوة إلى الله في بغداد . وأقبل عليه كثير من المريدين العراقيين ، لأنه امتاز بجانب غزارة علمه وورعه وتقواه .. بقدرة فائقة على الاقناع .

ثم ترك بغداد الى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، وعاد اليها ، لا يستقر فيها بل ليتركها إلى الأبد ، لأن الحياة فيها لم تعد تطلق ، إذ تعرضت بغداد لفتن وثورات نتيجة لضعف الخليفة وميله الى الظلم والعسف ، وقد ساعده على ترك بغداد وفاة والده ثم زوجته .

ترك أبو الحجاج بغداد ولما يبلغ سن الأربعين ، ومعه اولاده الأربعة وبعض ذوى قرياه وأصحابه ، إلى مكة المكرمة . وهناك توفي أحد أبنائه فدفنه في مقبرة « المعلا » وفي مكة تعرف بواحد من ساداتها هو الشيخ عبد المنعم الأشقر ، الذي زوج بناته من اولاد أبي الحجاج ، وعرض على أبي الحجاج أن يزوجه فرفض ذلك عكوفاً وأخلاصاً واحتراماً للذكرى أم اولاده ووفاء لها .

ولقد قضى أبو الحجاج في مكة المكرمة علموا تعرف على بعض اشرافها ممن ينتمون إليه بصلة القرابة . وهم الذين رغبوه في السفر الى مصر . لما تماز به من الهدوء والسكينة .. واكدوا له أن مصر تمتلئ بعدد كبير من متصوفة العالم الاسلامي ، خاصة المغاربة منهم ، وشجعوه على الاستقرار فيها ، حيث مجال الدعوة فيها الى الله متسع .

خرج أبو الحجاج من أم القرى متجها الى قبر الرسول ﷺ في المدينة المنورة ، وبعدها رحل الى مصر ، ومعه بعض عرب جهينة وعسير ، واستقر اول ما استقر في شرق الدلتا ، خاصة مدينة المنصورة ، ويقول أبو الحجاج واصفا رحلته الى مصر : « ونزلت شرقي الدلتا ، ومكثت بها أياما ، تعرف بنا اولاد عمنا ، ومنحونا أطيانا زراعية ، ظنا منهم اننا سنمكث عندهم ، فلما أراد الله سبحانه وتعالى سفرنا ، توجهت انا واولادى الثلاثة الى الجنوب ، الى أن وصلت الى اسيوط ، ومنها الى جرجا ، ثم الى قوص ، وهي مدينة كبيرة ، ثم رحلنا منها حتى وصلنا الى بلدة الاقصرين ، وكان ذلك في أواخر ايام حكم صلاح الدين الأيوبي » .

وفي الأقصر أو « الأقصرين » كما كانت تسمى في الماضي ذاع صيت القطب الورع أبي الحجاج .. بعدما التقى بالراهبة تريزا ودخلت الاسلام ، وقد سمع بأخباره سلطان مصر العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن صلاح الدين الأيوبي ، وكان هذا السلطان ، كما وصفه ابن خلكان في « وفيات الأعيان » : « مباركا كثير الخير ، واسع الكرم ، محسنا الى الناس ، معتقدا في ارباب الصلاح والتقوى » ، بعث اليه السلطان رسولا يستدعيه الى قلعة صلاح الدين ، وأسند اليه وظيفة كبيرة ومهمة هي « مشارف الديوان للحسبة والخراج » لكن ابا الحجاج لم يستمر طويلا في هذه الوظيفة الكبيرة ، فتركها معلنا انه وهب نفسه للخالق سبحانه ، متصوفا لرسالة الاسلام ، داعيا الى الله وقال شعرا :

ولقدر رأيت جماعة في عصر
قد كنت أحسبهم على سنن السلف
فبلوتهم وخبرتهم وعرفتهم
فوجدت خلقا ما بجملتهم خلف
فنفضت يدي من تعاهد وصلهم
من رام وصلهم فقد رام التلف
ورأيت أسباب السلامة كلها
في رميهم خلفا لظهر ثم كف

بل إن ابا الحجاج ، إتجه من القاهرة الى الإسكندرية ، حيث التقى بالزهاد والمتصوفة والتي كانت تعج بهم ، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبدالرزاق الجزولي ، الذي يرجع اليه الفضل في نشر اول طريقة صوفية عرفت الاسكندرية ، قبل الطريقتين الرفاعية والشاذلية ، أمضى ابو الحجاج فترة بجوار الجزولي حتى صار من اخلص تلاميذه ، ثم عاد الى الأقصر ، مرورا ببلدة قوص التي كانت عاصمة الاقليم الذي تقع فيه الأقصر ، والتقى بسيدى عبدالرحيم القنائى ، وصار أبو الحجاج من انجب تلاميذه .

وفي أخريات أيامه حيث عاش عمرا ناهز التسعين عاما ، ظل ابو الحجاج في الأقصر منقطعا للعبادة والوعظ والدعوة الى دين الله ، وتكاثر حوله المريدون يوما بعد يوم فقد كان مجلسه يغص بالعلماء والوجهاء وعلية القوم يطلبون علمه وبركاته .

ولقد لقي أبو الحجاج ربه عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) في عصر الصالح نجم الدين أيوب ، ودفن في ضريحه فوق معبد الأقصر من الناحية الشرقية ، حيث اقيم المسجد

الذى حمل اسمه ، والذى أعيد بناؤه في القرن الماضي ، وجرى ترميمه بعد ذلك أيام عباس حلمي الثاني ، في أوائل هذا القرن .



أبو الحجاج هو قطب الصعايدة في الأقصر ، كما أن سيدي عبدالرحيم القنائي هو قطب صعايدة قنا ..

وكان لأبي الحجاج منهج خاص في التربية والسلوك الحسن ، كما كان له رأى ووجهة نظر في المريد الذى يدخل في الطريقة ، وقد ذكر الامام الشعراى وجهة نظر ابي الحجاج في كتابه « الانوار القدسية » يقول : إن المريد الصادق حقا في طلب الطريق إلى الله ، يجب الا يرجع عن غايته ، مهما كلفه ذلك من ثمن ، فمن خطب نفيسا ، فقد خاطر بنفيس « بمعنى ان الاصرار على الوصول الى الشيء همة من الهمم العالية .

ويرى أبو الحجاج أن محبة الشيخ واحترامه والتأدب معه ، صفات يجب أن يتحلى بها المريد ، وتنشد قائلا :

لو قيل مت ، مت سمعا وطاعة .
وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا .

ويرى أبو الحجاج أن الأمل مادام يعيش مع الانسان ، فإنه حياة . ولا بد من الوصول إلى المبتغى والرجو . وكما يقول أبو جعفر الادفوى : لقد تخرج على يدى الحجاج سادات وأكابر ، نطقت بمنابهم السنة الاقلام وافواه المحابر .

ولقد كانت طريقة الشيخ الجزولى هى التى نشرها ابو الحجاج في صعيد مصر ، وفي الاقصر بالذات ، بل أصبح ابو الحجاج اماما لهذه الطريقة في الصعيد ، كما يقول المستشرق برمنجهام في كتابه بعنوان « الطرق الصوفية » والدليل على ذلك ان هذه الطريقة ظلت تؤتى ثمارها حتى اوائل القرن الثانى عشر الهجرى « ١٨م » ومن يقرأ مرتضى الزبيدى صاحب « تاج العروس » عند الحديث عن مادة « قصر » يجد الكثير حول فكر وطريقة سيدي ابي الحجاج ، ويقول الزبيدى ايضا عن الاقصر : « ومنها الولي المشهور أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحيم بن عربى القرشى المهدوى نزيل الاقصرين ودفينها » .

وقد التقى الزبيدي مع حفيد ابي الحجاج الشيخ المعتر شمس الدين ابو على محمد بن محمد بن يوسف ، ولبس منه خرقة « زى » الطريقة ، التى كانت تعرف باسم « المدينية » ، التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، التى وضع اساسها فى المغرب ابو مدين شعيب التلمسانى ، وجاء تلميذه الشيخ الجزولى لينشرها فى مصر ، وأخذها عنه ابو الحجاج .

وبجانب نشر تعاليم « الطريقة المدينية » فى صعيد مصر ، نشر أيضا ابو الحجاج منهجه الخاص فى تربية تلاميذه ومريديه ، فالمرید الصادق عنده هو الذى لا يرجع عن طريق ولو قاسى الالهوال فى سبيله وكل مرید وجد فى نفسه عدم الصدق فى طلب الطريق ، فعليه الخروج من بين الفقراء . فإن لم يخرج كان إثم فتور عزيمتهم عليه لنظرهم اليه وسرقة الطباع السيئة منه ، ومن شأن المرید الشاب ألا يراحم الرجال فى الجلوس ، بل عليه ان يجلس خلف الناس الى ان يلتحى .



والمهم ان سيدى ابا الحجاج درس الفقه على مذهب الامام الشافعى ، وتفقه على يدى الشيخ السهروردي .. وهذا مابرز فيما تركه سيدى ابو الحجاج من اقوال فى علوم الطريق ، ومن آراء فى التربية والسلوك . وابو الحجاج كما برز فى مدينة قنا ، برز ايضا فى قوص . وكانت شخصيته تتألق فى قوص ، خاصة فى مواسم الحج ، حيث كان العلماء والفقهاء وعلية القوم يمرون بهذه المدينة فى طريقهم الى أداء الفريضة . وكان ابو الحجاج ينتهز هذا الموسم ليجتمع بالعلماء ويتبادل الحديث معهم فى الكثير من القضايا التى تتعلق بالدين الاسلامى . وقد التقى فى أحد مواسم الحج بسلطان العاشقين عمر بن الفارض ، وكان معاصرا له .

وصل ابو الحجاج إلى مرتبة القطبانية فى مصر فى زمنه ، ويقول الشيخ على يونس الصمات احد تلاميذ سيدى ابي الحسن الشاذلى : حينما كنا متوجهين الى الديار المصرية من تونس رأيت مناما يقول لى يايونس : كان ابوالحجاج بالديار المصرية قطب الزمان ، فمات البارحة ، وأخلفه الله تعالى بأبى الحسن الشاذلى ، وجئت إليه حتى أبايعه بيعة القطبانية .

وقد أنجب سيدى ابو الحجاج اربعة أبناء وهم أحمد النجم الشهير بالحجاج ، وعبد المعطى ، وعبد العاطى ، وعطا الله الذى توفى ودفن بالمعلا فى مكة المكرمة وللشيخ أحفاد كثيرون فى كثير من البلدان مثل قوص والعسيرات وجرجا وقمن العروس ، والقاهرة ، والمرج ، والمنصورة .

والواقع ان العصر الذى عاش فيه ابو الحجاج فى صعيد مصر ، كان بيئة خصبة ثقافيا وروحيا ، خاصة فى قنا ، وفى عصر قطبها الكبير سيدى عبدالرحيم القنائى ، ولقد تأثر ابو الحجاج بأستاذه سيدى عبدالرحيم القنائى ، كما تأثر ايضا وزامل الشيخ ابو الحسن الصباغ خليفة سيدى عبدالرحيم .. وهؤلاء جميعا كانوا من تلامذة الشيخ ابى مدين التمسانى فى الاسكندرية ، والذى كان يردد دائما النصيحة الغالية التى تقول : خاف الله فى السر والعلن ، وتعلق بالكتاب والسنة فى القول والعمل ، وسلم امرك لله فى الامور الخطيرة والحقيرة ، والجا إليه فى الافراح والأتراح . كما تأثر سيدى ابو الحجاج بطريقة الشيخ الجزولى التى تشجع على الاعمال اليدوية والحرف ، ولايتوقفون فى الماكل والمشرب على خشن ، ويقدمون أكل اللذيذ من الطعام على غيره ، إلا أن يكون مضرا بالمزاج ، ومن آدابهم صلاة ركعتين نفلا بعد الأكل ، والاشتغال بقراءة سورة « الملك » وذكر الله فى الملا .

ومن جماع هذا كله كانت طريقة سيدى ابى الحجاج ، وكانت طريقة اهل الصعيد بعدهم والتى حافظوا عليها حتى الآن .. والى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

الملاحظ كما تقول دكتورة سعاد ماهر فى كتابها « مساجد مصر » أن البقعة التى تضم ضريح ومسجد أبى الحجاج كانت طوال عصورها التاريخية أماكن عبادة ففيها كما ذكرنا معبد آمون الفرعونى كما ضمت بقايا كنيسة مسيحية ، ثم علا ذلك مسجد أبى الحجاج .. وكانت وزارة الأوقاف قد أقامت مسجداً جديداً غير بعيد من المسجد التاريخى لنقل رفات هذا القطب الصوفى اليه لكن أحدا لم يجرؤ على ذلك .

وأقدم أجزاء مسجد سيدى أبى الحجاج هو المئذنة التى تعود الى منتصف القرن السابع الهجرى « ١٣ الميلادى » وهو تاريخ وفاة أبى الحجاج ، وهى من ثلاثة طوابق الاولى عبارة عن مكعبين أما الثانى والثالث فهما على شكل اسطوانة تستدق كلما اتجهنا الى أعلى وتنتهى المئذنة بطاقيّة مقببة وبالدور الثالث مجموعة من الفتحات مصفوفة فى صفين كما تصفها د . سعاد ماهر وكما يقول عالم الاسلاميات البريطانى البروفيسور كريزويل الذى كان رئيس قسم العمارة الاسلامية وصاحب المؤلفات عن حى الجمالية بالقاهرة ، فإن قنطرة هذه المنارة مبنية بالطوب الآجر وسلمها من الداخل عرضه متر الا ربعا وهو سلم حلزونى وتتكون كل دورة من أربع او خمس درجات وحافة كل سلمة مصنوعة من الخشب الذى يمتاز بقوة ومتانته ويشبه طراز مآذن الصعيد فى العصر الفاطمى مثل مئذنتى جامع قوص ومسجد إسنّا كما تشبه مئذنة مسجد الجيوشى بالقاهرة على ربوة جبل المقطم .

ولقد ذكر كتاب « الطالع السعيد » لمؤلفه أبو جعفر الادفوى ، أن الذى بنى الضريح هو الشيخ صالح أحمد النجم وهو ابن سيدى أبى الحجاج وقد اختلف

الأثريون على من بنى المئذنة الفاطمية وفي أى عصر من عصور الخلفاء والفاطميين فالبروفيسور كريزويل يؤكد أنها بنيت في عصر بدر الجمالي الوزير الفاطمي وقال أنها فاطمية الطراز لكن البعض يرى أنها وإن كانت فاطمية الطراز فهي لم تبني في عصر بدر الجمالي .

على أية حال فإن مسجد سيدى أبى الحجاج يمثل الوجدانية في هذا المكان على مدى سبعة قرون والمعروف أن الذين كتبوا عن أبى الحجاج كثيرون بدءا من ابن بطوطة حيث ذكره حينما زار الاقصر كما أن دائرة المعارف الاسلامية أفردت له سطورا تحت مادة الاقصر كما ترك هذا الشيخ الجليل منظومة شعرية رائعة في علم التوحيد وتقع في ١٣٣٣ بيتا تنقسم الى ٩٩ بابا يدافع بها عن الايمان على مذهب الاشاعرة كذلك كانت له كرامات كثيرة وقال عنه الادفوى والاستيوطى والشعرانى إنه صاحب الكرامات والمكاشفات المعروفة حتى ليقول المنادى على لسان واحد من معاصريه إنه على مايتأتى من الكرامات والمكاشفات قديرى بإذن الله .



لعل من أهم ما وصف به ابوالحجاج من قبل المؤرخين الذين تناولوا سيرته أنه من أبرز شيوخ التصوف في مصرالذين احسنوا تربية المريدين لذلك وصفوه بالشيخ .. ومفهوم الشيخ في الصوفية هو ذلك الذى يتولى تربية المريدين تربية روحية قوية تقودهم الى معرفة الحق سبحانه وتعالى .

ولقد اوضح الامام الشعرانى في كتابه « الانوار القدسية » هذا الجانب في شخصية ابى الحجاج قائلا :

إن أبى الحجاج الاقصرى كان له رأى في المريد الصادق وكان يرى ايضا أن للمريد أدبا مع شيخه وأدبا مع المريد او زميله في الطريق وفي حديثه عن أدب المريد مع شيخه يصر على أن يهب المريد نفسه لشيخه يتصرف فيها كما يشاء وليس له الحق في أن يعترض على الشيخ في أى أمر من الامور بل تجب عليه الطاعة والاحترام والتداب معه

وقد كان ينهى مريديه في تشدد ملحوظ عن الحقد والحسد والإنكار ويحثهم على التحلى بالاخلاق الحميدة الفاضلة وحمل الناس جميعا على احسن المحامل حتى أنه كما قال الادفوى في « طالعه السعيد » طالما استنقذ من أسر الجهل من كل موثوقا في حباله وانجد من ضل عن طريق الهدى فهده بعد ضلاله ووجد عاثر المعاصى قد احاط به جيش الذنوب فأخذ بيده وأقاله ووضع في يد التقوى عقاله ..

فهرست

الموضوع	صفحة
● مقدمة	٥
● سيدى أحمد الرفاعى	٩
● سيدى أبوالحسن الشاذلى	٣٧
● سيدى أبوالعباس المرسى	٦٣
● البوصيرى	٨٧
● سيد القنائى	١١٩
● الامام الطرطوشى	١٣٩
● سيدى محمد القبارى	١٥٩
● سيدى أبوالحجاج الاقصرى	١٨١



الآراء والأفكار الواردة في هذا المطبوع مسئولية المؤلف

كافة حقوق النشر والنقل والطبع والترجمة محفوظة للمناشر

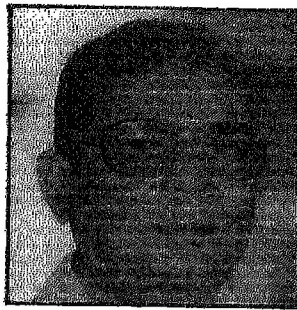
مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

الطبعة الثالثة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

رقم الايداع ١٩٩٤/٢٧٥١

التقييم الدولي ٠ - ٠٣٤ - ٢٢٩ - ٩٧٧ - I.S.B.N.



هذا الكتاب

أحمد أبوكف

كان الفكر الصوفي منعطفا كبيرا في تاريخ العقيدة الإسلامية .

فلقد تبلور هذا الفكر في ظروف اغارت فيها تيارات متنوعة ، تريد النيل من الاسلام ، ومن حضارة الاسلام ، وفي هذا المناخ ظهر التصوف كطريق يشدد على الأخذ بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

ولاشك ان التصوف الصحيح قد لحق به الكثير مما هو غريب عليه ، وما لم يات فيما جاهد فيه اقطاب التصوف الكبار الذين ساحوا في بلاد الاسلام من اجل رفع رايته الخضراء عالية خفاقة .. يشددون على العلم والتفقه في امور الدين القويم ، ويشرحون للمريدين حقائق الاسلام .. ويدافعون عن الدين القيم ، ويدعون الى الله .

وهذا الكتاب الذي يحوى بين دفتيه قصة حياة وجهاد مجموعة من اقطاب التصوف ، يحاول ان يلقي الاضواء على فكرهم وتصورهم الذي تنوج ببلوغهم درجة التف فيها الملايين من الفقراء الى الله حولهم .. لرفعة شان دين الله ، على اساس من كتابه الكريم وسنة رسوله ﷺ .

والكتاب هو الثالث لمؤلفه الاستاذ احمد ابوكف .. الذى اخرج للمكتبة العربية كتابا هي : « اليهود والحركة الصهيونية في مصر » وكتاب « آل بيت النبي ﷺ في مصر » و« سيناء من احس الى السادات » ، و« جلسة مع طه حسين » و« قطوف من تاريخنا القديم » و احمد ابوكف يعمل نائبا لرئيس تحرير مجلة المصور وهو واحد من الصحفيين المبرزين .

٦ جنيفات

Bibliotheca Alexandrina



0402379